سامر إسلامبولي

ظاهرة النص القرءاني

تاريخ ومعاصرة



سامر إسلامبولي

ظاهرة النص القرءاني تاريخ ومعاصرة

ظاهرة النص القرءاني تاريخ ومعاصرة

سامر إسلامبولي

الطّبعة الأولى: 2019 م

البريد الإلكتروني: s.islambouli@gmail.com
السويد: 0046734233031

© **جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**

تصميم الغلاف والاخراج الداخلي:
كمال يوسف
ky.design.a2@gmail.com



مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر

الإسكندرية – مصر

د3، بناء 44، ش سوتر، أمام كلية حقوق الإسكندرية، مصر
موبايل: 01114391600 هاتف: 4830903 / 03
بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net

رقم الإيداع: 5701/ 2019 م
الترقيم الدولى: 978-977-6651-28-9

سامر إسلامبولي

ظاهرة النص القرءاني

تاريخ ومعاصرة



دار نشر • دورات • دراسات • استشارات

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمـَنِ الرّحِيمِ

﴿يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوَاْ إِنّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات 13)



الفهرس

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمـَنِ الرّحِيمِ

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

(الحجر 9)

المقدمة

من الغرابة على درجة كبيرة أن يأتي أحد ويُناقش ما هو ثابت ومعلوم بالضرورة، بل بلغ صفة الحق من حيث الحكم عليه وجودًا أو صحة نحو أحقية وجود الخالق المدبر وأحقية وجود اليوم الآخر ووجود السماء والأرض... إلخ، وقصدت بكلامي أحقية النص القرءاني كمتن وحفظه تاريخيًّا من التحريف زيادة أو نقصانًا بصرف النظر عن موضوع نسبته لله فهو أمر آخر له منطق مختلف في نقاشه وإثباته.

فالنص القرءاني بدأ حقًا، واستمر بهذه الصفة إلى أن وصل إلينا حقيقة تاريخية كنص ثابت لم يتعرض للاختراق أبدًا، وأي محاولة جرت للتلاعب فيه كانت تجهض ذاتيًّا لتفكك وهزالة المحاولة أمام عظمة النص القرءاني، ومع ذلك يأتي باحث ليغوص في التراث ويتتبع الروايات التي وُضعت بدافع إيديولوجي ويجمعها ليناقش على موجبها حقيقةً مشاهدةً في الزمن المعاصر، ويحاول على أقل احتمال التشكيك بهذه الحقيقة.

فمثله كمثل من يريد أن يناقش مسألة دوران الأرض حول الشمس من خلال الموروث البشري، وذهب يجمع المقولات والنصوص لكبار الرجال في التاريخ بجانب الإشكاليات التي جرت حول هذه المسألة، ووصل من جراء ذلك إلى أن مسألة دوران الأرض حول الشمس أمر مشكوك فيه أو على الأقل يجب إعادة النظر بهذه المسألة والتأكد منها، ولا يمكن ذلك إلا بمعالجة النصوص التاريخية والأحداث التي جرت وحل الإشكال الحاصل حينئذ.

وهذا أمر مُحال لأن ذلك مغالطة كبيرة، فالأرض والشمس واقع مشاهد، والتأكد

من صحة النظرية أمر متاح الآن لا علاقة لها بالنصوص والأحداث التي جرت وعدالة الرواة وغير ذلك، فهذا أمر مستحيل حل إشكالياته بأية وسيلة، غير أنه عبث، فكل حل وتوفيق قابل لأنْ يُرفض من جهة ويُقبل من أخرى.

وبالتالي فالأمر لا يمكن حسمه ويصير الأمر موقفًا شخصيًّا وليس حقيقة علمية تلزم الجميع بالتسليم والإقرار بها.

والنص القرءاني هو من هذا القبيل فهو موجود بين أظهرنا قابل للدراسة والتأكد من صحة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس من خلال مراكز ومؤسسات علمية على كافة الاختصاصات، فإذا ثبت أن مضمونه خطأ ومناقض لمحل الخطاب من الآفاق والأنفس يكون نصًّا قد تم تحريفه والتلاعب به قطعًا رغم أنف الجميع، ولو ألَّف المؤمنون بصحته آلاف المجلدات ونقلوا الإجماع على ذلك والتواتر له، لأن النص الرباني لا يمكن أن يتناقض مع محل خطابه ولا بأي شكل.

أما إذا ثبت أنه نص منسجم كل الانسجام مع سيرورة وصيرورة الآفاق والأنفس بحيث صار النص القرءاني المتلو هو صورة لسانية طبق الأصل للصورة الموضوعية، فلا شك أن هذا النص رباني وهو صحيح لم يتعرض لأي تحريف أو تلاعب، ولو جرت في التاريخ محاولات لذلك، وتم نقل روايات آحاد ظنية عن زيد وعمرو بما يفيد أن النص قد تحرف، فالأمر تجاوز موضوع السند والإسناد وعدالة الرواة والإشكاليات التي رافقت استمرار النص القرءاني؛ لأن كل هذه الترهات كانت تسقط في زمانها أمام نور النص القرءاني، لأن النص القرءاني أشبه بالشمس وهي ساطعة في كبد السماء تحرق بشعاعها كل من ينكر وجودها أو يشكك فيه وهو يتعرض لضوئها وحرارتها.

فَمَنْ من الناس يسمع لمدَّعي هذا الادِّعاء مهما أتى بالمقولات والروايات والإشكاليات و حشد شهادات للخصوم و غير ذلك.

فالحقيقة أقوى من الجميع لأنها مُشاهدة، ومن يُنكر عالم الشهادة و هو يراه لا يعتَدُّ بقوله و لا يسمعه أحد كائنًا من كان، فالنص القرءاني تتابع في المجتمع الأول الذي نزل فيه النص، وبدأ التتابع يتصاعد ويتنامى مع مرور الزمن وتتسع دائرته إلى أن تجاوز المجتمع العربي، و بدأ يتتابع في المجتمعات الإسلامية غير العربية، وبهذا الأمر صار النص القرءاني متتابعًا إنسانيًّا، وهذا لا يعني انتفاء و جود إشكاليات رافقت تتابع النص في الزمن الأول، وذلك بسبب الصراع بين الحق والباطل، فالتتابع غير الإجماع.

وبالتالي لا يشترط في تتابع الحدث أن يُسَلِّم به الجميع فممكن- لظروف وملابسات معينة - أن يطعن أفراد من الناس بصحة هذا الخبر أو الحدث، وهذا الطعن من أفراد من الناس لا يؤثر بتتابع الخبر وصحته ولا يشكك به إطلاقًا و لا يعتد بقولهم، ومن يأخذ بقولهم مقابل التتابع لا يُعَدُّ موقفه موقفًا علميًّا إطلاقًا.

ومسألة تتابع النص القرءاني مسألة متتابعة في الأمة الإسلامية ليست هي محل نقاش أو دراسة، فالنص القرءاني واحد في مشارق الأرض ومغاربها **واليقين لا يزول إلا بيقين مثله، أما الظن فلا يُعتد به أمام اليقين أبدًا.**

لننظر على سبيل المثال قول الباحث موريس بوكاي في كتابه (دراسة الكتب المقدسة) دار رشا، بيروت الصفحة (10): « فالقرءان هو الوحي الذي أنزل على محمد عن طريق جبريل، وقد كُتب فور نزوله ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة،خاصة في شهر رمضان، وقد رتب في سور بأمر من محمد نفسه، وجمعت هذه السور فور موت النبي وفي خلافة عثمان ذلك لتصبح النص الذي نعرفه اليوم ».

وقال في صفحة (13): « وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرءان لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث ».

وقال في صفحة (145): « وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرءان أي خطأ، وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرءان إنسانًا، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟ **ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرءان الذي نملك اليوم هو فعلًا نفس النص الأول** ».

وقال في صفحة (151): « **صحة القرءان التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرءان في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد**».

وقال في الصفحة ذاتها: « لم يتعرض النص القرءاني لأي تحريف من يوم أن أنزل على الرسول حتى يومنا هذا».

وما ذكرته من أقوال إنما هي مَثَلٌ على طريقة البحث الموضوعي، وكيف يصل الباحث إلى الحقيقة فهو لم يجر وراء السند والإسناد والإشكاليات إنما تعامل مع النص بشكل مباشر وحكم عليه من جراء الدراسة العلمية له.

بينما نلاحظ بعض الباحثين يتناول دراسة النص القرءاني من خلال السند والرواة والأحداث والإشكاليات في الموروث الثقافي، أي: بمعنى آخر درس كل ما يحيط بالنص من إشكاليات وأغفل دراسة النص ذاته الذي هو محل الدراسة، وأغمض عينيه عن مسألة تتابع النص القرءاني، وتتبَّع الإشكاليات وأقامها وجهًا لوجه أمام الحقيقة، وخرج بنتيجة أن النص القرءاني طبخة عثمانية، والنص الذي بين أيدينا ليس هو ذاته كما نزل على محمد.

لننظر إلى هذا النص[1]: « ومن الملاحظ أن تلك الظروف التي أحاطت بعملية جمع القرءان في مصحف واحد وتحريق ما تبقَّى من المصاحف، كانت تشير إلى أن

1 د. طيب تيزيني ـ النص القرءاني أمام إشكالية البنية والقراءة ـ ص402 ـ دار الينابيع.

عثمان ربما كان يهدف من وراء ذلك تحقيق أمرين اثنين متضايفين. الأول منهما تمثل في الحفاظ على الوحدة الدِّينية (الإيديولوجية) للمسلمين في الدولة الفتية المتعاظمة، حتى لو تم ذلك على أساس نص قام على أنقاض نصوص انتهى بها الأمر إلى «الطبخ»...».

ولننظر أيضًا إلى هذا النص[2]: « إذا أخذنا بما نقله إلينا بعض المحدثين والفقهاء مثل البخاري ومسلم والترمذي من أن حجم نص القرءان الحقيقي ليس هو هذا الذي نجده في (مصحف عثمان)، أفليس من المحتمل حينئذ أن نرجع أسباب ذلك الوجه الإشكالي إلى هذا الأمر؟ فالكثير من السور والآيات زيدت أو نقصت أو أبعدت، بحيث لم يعد صحيحًا- بالاعتبار الوثيقي التاريخي- أن يُقال بأنه لم يطرأ على النص المعني أي تغيير وبأننا نملك الآن هذا النص في حجمه الأساسي تمامًا».

ولننظر أيضًا إلى قوله[3]: « وسوف نتبين – في ضوء عودة مدقّقة لنصوص إسلامية مبكرة – أنه يبدو أن للمسألة وجهًا آخر أكثر دلالة وحساسية ولم ينتبه إليه ماسيه ولابيرك[4] وباحثون آخرون كثيرون، ويقوم على أن القرءان، وفق آراء جمع من الكتاب الإسلاميين، خضع أثناء جمعه – وبتأثير من المصالح السياسية المتصارعة خصوصًا للتكونات السياسية والإيديولوجية الإسلامية الناهضة – لعمليات أدت إلى اختراق متنه زيادة ونقصانًا».

بينما نحى بعض الباحثين منحًى آخر فهم لم يتطرقوا إلى إشكاليات السند والرواة التي رافقت تتابع النص القرءاني، وإنما تطرقوا إلى المفاهيم والأحكام التي استندت على النص القرءاني وعلقت به وانتقلت على أساس أنها الحكم الشرعي الذي أنزله الله عز وجل ولم يفرقوا بين النص القرءاني كنص رباني، وفهم وتفاعل المسلمين الزمكاني مع هذا النص، ونظروا إليهما نظرة اندماجية وكون الفهم السابق للنص

2 المصدر نفسه صفحة 253.
3 المصدر نفسه، ص 65.
4 لاحظ كيف سبق المستشرقين في التشكيك بصحة حفظ النص القرءاني!.

ممكن أن يكون خطأ وغير مناسب للمجتمع اللاحق؟، فطالبوا بإبعاد الدِّين عن الحياة الاجتماعية.

لننظر على سبيل المثال إلى هذا النص[5]: « فلماذا لا نفصل الشريعة أو الدِّين عن قانون الأحوال الشخصية مثل غيرها من القوانين حفاظًا على سلامة الأسرة وحقوق النساء والأطفال ».

وعند دراسة أبعاد ودوافع هؤلاء الباحثين والظاهر من أبحاثهم نجد أن السبب هو واقع المسلمين الثقافي المتخلف والمتردِّي والموقف المتشنج من الحوار وعدم احترام الرأي الآخر، ومحاولة اغتياله ورفض الاجتهاد والجديد وإضفاء- على الموروث الثقافي- صفة الحق المطلق وما سواه لا شك ببطلانه، غير الانحطاط والممارسة الاستبدادية من جميع مؤسسات المجتمع التي ينتج عنها الاستعباد للشعوب على كافة الأصعدة.

فكل ذلك وغيره دفع هؤلاء إلى التفكير في النهضة بالأمة والرقي بها فنظروا إلى ثقافة الأمة فرأوها ركامًا ضخمًا جدًّا من الموروث الثقافي الدِّيني، والأساس لهذه الثقافة هو القرءان بالدرجة الأولى، ومن منطلق أهل مكة أدرى بشعابها، أي: رجال الدِّين أقروا ما هو موجود في التراث وأعطوه صفة الحق والتمثيل للنص القرءاني ذاته حتى نظرت الأمة إلى موروثها الثقافي الدِّيني نظرتها إلى النص القرءاني من حيث القداسة.

وبالتالي، أي طعن أو نقد للموروث يعدُّ طعنًا ونقدًا للدين ذاته. فلم يجد هؤلاء الباحثون إلا عملية النقض للنص القرءاني ذاته سواء بعرض الإشكاليات التي رافقت تتابعه للوصول إلى أنه قد تم تحريفه أو المطالبة بإبعاده عن الحياة الاجتماعية، فالنتيجة لكليهما واحدة وهي سحب صفة صلاحية النص القرءاني وديمومته لكل زمان ومكان.

5 د. نوال سعداوي. المرأة والدين والأخلاق ـ إصدار دار الفكر بدمشق.

إذنْ؛ الأمر على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية، وأقل ما يُقال في أمثال هؤلاء الباحثين أنهم وقعوا فريسة الغزو الثقافي العولمي، وأنه تم اختراق طبقة المثقفين والمفكرين العرب.

فالنص القرءاني ليس موروثًا ثقافيًّا - بمعنى أنه ليس من صنع أي مجتمع- تتوارثه المجتمعات اللاحقة عن المجتمعات السابقة، وإنما هو نص أصيل ووحي من الخالق المدبر للناس عبر الزمان والمكان، وهذه مسألة إيمانية لها أصول في البحث غير تلك التي نحن بصددها، فنحن ننطلق من كون أن النص القرءاني رباني المصدر، وهذا محل اتفاق وتسليم بين المؤمنين به، وبما أن الأمر كذلك، فالحوار هو حوار بين المؤمنين، أي:حوار ثقافي داخلي في الأمة الواحدة.

لذا؛ يجب التمييز بين النص القرءاني كمتن رباني وبين فهم وتفاعل المجتمعات معه حسب الزمكان والأدوات المعرفية التي يملكونها، فهذا التفاعل هو موروث ثقافي يتراكم خلال التاريخ ليس له أية صفة من القداسة أو الإلزام به للمجتمع اللاحق.

ومن هذا الوجه نطالب - بإلحاح - بإعادة فرز الموروث الثقافي دون استثناء لأي مفهوم منه، والعمدة بذلك هو القرءان ومحل خطابه من الواقع - آفاقًا وأنفسًا - دون الخوف من مخالفة الموروث الثقافي أو مجتمع السلف.

وبهذا العمل الثقافي - سيرورة وصيرورة - نستطيع أن نحمي ثقافتنا العربية والإسلامية من الاختراق والغزو الثقافي نتيجة العولمة الزاحفة بواسطة التقنية الإلكترونية والتكنولوجية التي فرضت نفسها على معطيات الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

فالأمر على درجة كبيرة من الخطورة، إنه صراع بين الثقافات والبقاء للأقوى والأقوى هو الأصلح والأنفع للناس ولو لم يظهر ذلك عاجلًا.

وقمت في بحثي هذا بعرض تاريخي مختصر لبحث جمع وتتابع النص القرءاني

واختلاف التلاوات،وحاولت أن أجيب عن أهم الإشكاليات المتعلقة بالموضوع مساهمة في إزالة الملابسات التي قد تخطر في ذهن المسلم فلا يعرف لها جوابًا، ويقف في حيرة منها أو يصل الشك إلى قلبه ولا يستطيع دفعه.

وبعد ذلك انتقلت إلى دراسة مجموعة من المفاهيم التي قد تم استخدامها في التشكيك بصحة النص القرءاني، نحو: اللوح المحفوظ، المحكم والمتشابه، الظاهر والباطن، أزلية القرءان، الثابت والمتغيِّر... إلخ، وأعرضت عن مجموعة أخرى رغم ارتباطها ببحثنا حتى لا يتم تكرار ما هو مكتوب نحو: مفهوم السنة والحديث وعلاقتهما بالنص القرءاني، وقاعدة (لا اجتهاد في مورد النص) وأن المصدر التشريعي النظري هو القرءان فقط لا غير، وغير ذلك فلقد أفردت لهم سابقًا بحثًا مستقلًا[6]، وكذلك مفهوم الإجماع والناسخ والمنسوخ[7].

فكل هذه المواضيع هي سلسلة مترابطة لا يمكن دراسة موضوع ثقافي متعلق بالنص القرءاني إلا واستحضارها جميعًا والتطرق لها والقيام بفرزها واتخاذ موقف منها رفضًا أو قبولًا؛ لأنه بناء على هذا الموقف يتم الحوار والدراسة والتواصل الثقافي بين الأمة.

وهذا الموقف صار ضرورة مُلحة في الزمن المعاصر مع الانتباه والحذر أن الموقفين كليهما لا علاقة لهما بمفهوم الإيمان أو الكفر أبدًا، إنما هو اختلاف في وجهة النظر ضمن المجتمع الواحد الذي يجب عليه أن يكون قائمًا على أساس التعايش الذي ينبثق منه مفهوم المواطنة والأمن والعدل والسلام والحرية بين فئات المجتمع على مختلف القوميات والوجهات، وأساس التماسك الذي ينبثق منه التعارف والتعاون والوحدة والمشاركة في بناء المجتمع الواحد، وأساس النهضة التي هي هدف مشترك بين فئات المجتمع للوصول للتقدم والرقي في المجتمع على الأصعدة كافة لتأسيس حضارة إنسانية.

6 كتابي: (تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم).
7 كتابي: (الآحاد، الإجماع، النسخ).

كيف يحكمُ الإنسانُ على وجودِ الشيءِ أَو صوابه؟

إنّ من طبع الإنسان الخطأ والوهم والنسيان، قال رسول الله: «**كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطّائين التَّوابون**». واحتمال الكذب قائم فيه، ولذا فطرَ الله العباد على المطالبةِ بالبرهان؛ لإثباتِ صواب الادِّعاء والاطمئنان على أن ما يعتقدون هو الصواب، ولا يدعون عقلهم عرضة للآخرين، فيضعون فيه ما يشاؤون وينزعون منه ما يشاؤون.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة:111].

وعلى ذلك قال علماء الأصول: **إن كنت مُدّعيًا فالبينة، وإن كنت ناقلًا فالصحة.**

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «إعلام الموقعين»[8]:

« الذي فطر الله عليه عباده طلبُ الحجة، والدليل المثبت لقول المدَّعي، فركز سبحانه في فطر الناس أنهم لا يقبلون قول من لم يقم الدليل على صحة قوله، ولأجل ذلك أقام الله سبحانه البراهين القاطعة، والحجج الساطعة، والأدلة الظاهرة، والآيات الباهرة على صدق رسله، إقامةً للحجة، وقطعًا للمعذرة. هذا وهُم أصدق خلقه، وأعلمهم، وأبرهم وأكملهم، فأتوا بالآيات، والحجج والبراهين، مع اعتراف أممهم بهم، بأنهم أصدقُ الناس، فكيف يُقبل قول من عداهم بغير حجة توجب قبول قوله، والله تعالى إنما أوجب قبول قولهم بعد قيام الحجة، وظهور الآيات المستلزمة لصحة دعواهم؛ لِمَا جعل الله في فطر عباده من الانقياد للحجة، وقبول قول صاحبها، وهذا أمر مشترك

8 الجزء الثاني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

بين جميع أهل الأرض، مؤمنهم وكافرهم وبرّهم وفاجرهم، الانقياد للحجة وتعظيم صاحبها، فإن خالفوه عنادًا وبغيًا فلفوات أغراضهم بالانقياد» اهـ.

فمسألةُ أنّ الإنسانَ صادقٌ شيء، ومسألة الجزم والاعتقاد بما يخبر شيءٌ آخر، فالأنبياء والرسل كانوا محل صدق وأمانة من قبل أممهم، ولكنّ هذا غير كاف لأنْ يكون برهانًا على صواب ادِّعائهم النبوة، فلذا؛ أيَّدهم الله بالبراهين التي تستلزم صواب دعواهم. فالجزم بنبوتهم، والتصديق بما يخبرون عن ربهم من أوامر ونواهي لم يتأتّ من كونهم معروفين من قبل أممهم بالصدق، وإنما أتى من جراء البراهين التي أيدهم الله بها، وعلى ذلك قامت الحجةُ على الناس بالنبي الواحد المؤيد بالبراهين التي لا تدع مجالًا للشك أو التكذيب.

ومن خلال استقراءِ واقع الإنسان، وكيف يجزمُ بوجود الشيء، أو صوابه، ومن خلال معرفة طريقة التفكير عند الإنسان التي هي: نقل الإحساس بالواقع إلى الدماغ مع وجود معلومات سابقة أو منبثقة من الواقع يتمُّ دراسة المعلومة الجديدة وتقليمها وتفسير الواقع والحكم عليه، علمنا الوسائل التي من خلالها يقوم العقل الإنساني في الحكم على وجود الشيء، أو صوابه بشكل قطعي، وهي:

أولًا - وقوع الحواس على الواقع مباشرة: (طريقة التفكير التجريبية)

يحكم الإنسان على ما يقع عليه حسه مباشرة بالوجود القطعي، ويمكن أنْ يعرفَ ماهيّة هذا الواقع بالدراسة، سواء استقراءً، أو تجربة، كأن يدَّعي إنسان أنّ الخشبَ يطفو على وجه الماء، فما علينا لمعرفةِ صواب ادِّعائه إلا بتناول خشبةٍ وقذفها في الماء، فإن طفتْ نحكمُ على دعواه بالصواب قطعًا.

وهذا الحكم تأتَّى من الإحساس به بواسطة العين، وتمّ نقل ذلك إلى الدماغ الذي بدوره رفعه إلى العقل الذي قامَ بعملية الربط بين الفكرة والواقع، فتطابقا، فجزم بصواب الفكرة.

ثانيًا – وقوع الحواس على أثر الواقع: (طريقة التفكير العقلية)

يحكمُ الإنسان على وجود الشيء إذا وقع على أثره، ولو لم يحسَّ الواقع ذاته، كأنْ يسمعَ الإنسان الطرقَ على الباب، فيحكم بشكل جازم أنه يوجد طارقٌ ولو لم يره. ومن هذا القسم حكمنا على وجودِ الجاذبية، والطاقة المغناطيسية، ووجود الله سبحانه، من خلال الإحساس بأثرهم، وهذا القسم لا يكون الحكم فيه إلاّ حكمَ وجود فقط. ولا يمكن الحكم على الماهية؛ لعدم وقوعِ الحواس على الواقع مباشرة.

ثالثًا– تتابع النقل أو الحدث بصورة اجتماعية دون انقطاع

يحكمُ الإنسان على وجود الشيء أو ثبوته بشكل جازم، إذا وقع حسه على الخبر القطعي أو تتابع الحدث اجتماعيًّا دون انقطاع، وتم نقله بشكل اجتماعي منذ بدئه مع توسُّعه وتناميه مع الزمن، أي: ما نقله مجتمع معاصر للحدث إلى مجتمع لاحق له دون انقطاع يستحيلُ عقلًا حصول تواطؤ على الكذبِ، ويصير ظاهرة ثقافية اجتماعية، كوجود معركة بدر، فالمسلمُ يجزمُ بوجودها، رغم أنّه لم يقعْ حسه على المعركة ذاتها، ولم يقع حسه أيضًا على أثر المعركة، ومع ذلك جزم بوقوعها من خلال النقل المتتابع الذي يُفيد عقلًا الجزم بالخبر دون الدخول بالتفاصيل.

ومثل نقل الفن الفلكلوري في المجتمع، فهو فعل اجتماعي مستمر، وهذا يفيد الثبوت للفعل أو الحدث بشكل قطعي في المجتمعات السابقة وصحة نسبة الحدث لصاحبه الأول، وهذا الحكم من مقومات العقل الذي يتعامل على موجبها مع الأحداث النقلية، وهو حكم ثبوت للحدث، وليس حكم صحة الحدث أو خطئه فهذا ليس مجال هذا النوع من التعامل الحكم عليه للطريقة العقلية والدراسة والبرهان والتحليل.

وأخيرًا: بقي جانب آخر يحكم العقل من خلاله بقطعيّة الخبر ولو كان المخبر

واحدًا، وذلك إذا رافق الخبر البرهان المثبت له، كخبر الأنبياء والرسل عن ربِّهم.

إذن؛ الخبر أو الحدث يكون قطعي الثبوت والحصول إذا كان متتابعًا في الأمة كفعل اجتماعي مستمر، أو خبر آحاد مدَعَّمًا بالبرهان العقلي على صوابه.

هذه هي الوسائل الثلاث التي يحكمُ الإنسان من خلالها على وجود الشيء أو صوابه قطعًا، وأيُّ شيء لا يأتي عن طريق هذه الوسائل، لا يجزم الإنسان بوجوده، وإنما يبقى في مرحلةِ الظن، فقد يكون راجحًا، وقد يكون مرجوحًا، حسب توفر القرائن التي تميل به من كفة المرجوح إلى الراجح إلى اليقين، فالحكم للقرائن.

فإذا كانت القرينة قطعية، رفعت الخبر الظني إلى القطعي، وإذا كانت القرينة ظنية، أفادت الخبر صوابًا وقوةً، ولكنْ لا ترفعه إلى اليقين، ويبقى على الظن الغالب الذي هو تصديقٌ نسبي دون جزم، ويكون مفهومًا دافعًا الإنسان للعمل على صعيدِ الأحكامِ الجزئية، والحياة المعيشية، وإن كان خبرًا محله القلب، يفيدُ غلبة الظن؛ لاحتمالِ وقوع الخطأ والنسيان والوهم أو الكذب، فيحفظُ الإنسان عقله من أنْ يكونَ عرضة للتلاعب، ويحفظُ إيمانه من أنْ يكونَ يومًا ثابتًا، وآخر منقوضًا إذا ظهر كذب أو خطأ الراوي.

مفهوم التتابع بدل مصطلح التواتر

ليس كل اتباع مذموم

التواتر من وتر وتدل على الواحد أو خلاف الشفع. والتواتر يدل على تتابع الآحاد من الناس على شيء، والوتيرة هي تتابع الشيء على مستوى واحد مع انقطاع أو فاصل زمني يسير بين الحالتين.

فالتواتر لا يدل على الممارسة الجمعية المستمرة دون انقطاع، ولذلك ينبغي إبعاد مصطلح التواتر من الدراسة القرءانية، خاصة أن الكلمة غير مستخدمة فيه بهذا المعنى، ويترتب عليها إشكال كثير، وورد في القرءان كلمة الوتر بمعنى الفرد أو الواحد ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾[الفجر: 3] وهي مقابل الشفع، ولذلك ينبغي استبدال مصطلح التواتر بمفهوم التتابع، وهو مفهوم قرءاني من الاتباع.

بداية؛ مفهوم الاتباع للأكثرية أو الآبائية مجردًا دون علم ولا برهان ولا عن بصيرة هو مذموم في القرءان، وهذا أمر لا خلاف عليه وليس محل النقاش، فالآباء والأكثرية ليسا مصدرًا علميًّا أو دينيًّا تشريعيًّا ولا برهانًا على صواب شيء أو خطئه أو الحكم عليه، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170].

ولكن القرءان لم يذم اتباع الواحد عن علم وبينة وإثبات، ومن باب أولى اتباع الآباء أو الأكثرية عن علم وبينة وبرهان وليس اتباعًا شخصيًّا لقولهم فقط. لنقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:6].

من خلال مفهوم النص يدل على أن نبأ العدل والثقة يفيد الاتباع لنبئه بداية، أما إن كان فاسقًا يجب أن نتبين ونتثبت صدق نبئه من خلال البرهان والتأكد والمشاهدة والعلم بالشيء قبل أن نتخذ أي قرار متعلق بالقوم، وهذا العمل لا علاقة له بالتشريع أو العلم، وإنما هو متعلق بأمور الناس المعيشية والممكنة الحدوث في حياتهم، وليست مستحيلة ولا مخالفة لما هو ثابت ويقين.

والنبأ عن حصول شيء لا يتعلق بكيف حصل؛ لأن ذلك محله العلم وليس النبأ، كما أنه لا يتعلق بحكم هذا الشيء؛ لأن محل مصدر الحكم الدِّيني هو القرءان وليس الأخبار والأنباء والممارسات.

وهذا يعني أن النبأ هو متعلق بحصول الشيء فقط وفق المعقولات والممكنات دون مخالفة الثوابت، ولا علاقة له بالتشريع كحكم، ولا بالعلم كيف حصل الشيء، ونتعامل معه بداية على ثقة المخبر وصدقه على غلبة الظن.

هذا مع نبأ الواحد فما بالكم إن كان النبأ تتابع في المجتمع كظاهرة مستمرة سلوكًا في ممارسة عمل معين تحقق فيه الشروط التالية:

1. أن يكون وفق المعقولات والممكنات.
2. لا علاقة له بتشريع حكم في الدِّين.
3. لا علاقة له بكيف حصل الحدث كسنن وقوانين.
4. لا يتعلق بالمفاهيم والفكر.
5. إن كان متعلقًا بالدِّين، فينبغي أن يأتي حكمه في المصدر التشريعي أولًا الذي هو القرءان.
6. أن يتعلق بالأفعال وليس بالأقوال.
7. أن لا يخالف الأمر الثابت والحق.

إن تحققت هذه الشروط بممارسة معينة في المجتمع، وتتابعت كظاهرة اجتماعية يدل على ثبوتها قطعًا عمن بدأها، وهذا تحقق بممارسة الصلاة والحج في الدِّين الإسلامي.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 199].

لاحظوا الأمر القرءاني كيف يُحيلنا في ممارسة الإفاضة إلى حيث أفاض الناس، وهذا أمر باتباعهم في ذلك، وهذا الاتباع ليس مذمومًا.

فالصلاة ثبت حكمها في الدِّين بالمصدر القرءاني وأتى هيئتها العامة فيه، ومارسها النبي وقومه في مجتمعهم، وتتابع ذلك الفعل منهم وعنهم إلى المجتمع اللاحق دون انقطاع مما أفاد القطع بحصول الصلاة على الشكل الحالي المعروف، وبالتالي ليس من العلم والمنطق أن يأتي أحدهم ويرفضها بحجة عدم ثبوتها أو التشكيك بها أو جعلها من الاتباع للآباء المذموم.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]، فاتباع سبيل المؤمنين عن علم وبصيرة وبينة أمر مطلوب وحض عليه المشرع.

ومن هذا الوجه يظهر خطأ مقولة أحدهم: (إن التواتر للحدث له بداية، والبداية لا شك أنها من خبر آحاد الناس).

وخطأ هذه المقولة ناتج عن قصور فهم لمفهوم التتابع؛ لأن حصول الحدث ابتداء، ينبغي أن يكون بصورة جماعية مستمرة، يُحيل العقل تواطؤهم على الكذب، وهذا يعني في واقع الحال أن الجماعة الأولى الممارسة للحدث، مؤلفة من مختلف شرائح الناس، مع كثرتهم، وتفاوت ثقافاتهم، واختلاف عقائدهم، وانتفاء العلاقة بينهم،

وعدم وجود مصلحة تجمعهم، وتكرار الممارسة، مع عدم ثبوت نفيها بصورة علمية من أحد؛ لأن نفي الحدث، غير مسألة إنكاره، فالنفي مرتبط بالبرهان، أما الإنكار، فهو موقف شخصي.

وكذلك يظهر خطأ مقولة المحدثين: (إن هذه الأحاديث المتعلقة بنزول المسيح، أو المهدي، أو غير ذلك، تَبَيّن بعد الدراسة أنها متواترة!).

وخطأ هذه المقولة ناتج عن خلط ما بين تتابع ممارسة عمل معين، ورواية الأخبار المتعلقة بالألفاظ والأقوال، وقد بينا آنفًا، أن التتابع يتعلق بممارسة فعلية، دون الدخول في التفاصيل القولية، ودون الالتفات إلى اختلاف الألفاظ التي حملت الخبر بحصول الحدث، ولا يوجد تتابع لنقل ألفاظ وأحاديث صدرت من أي إنسان قط، غير أن التتابع في أسرة، أو قوم، أو مجتمع هو أمر معروف لديهم بالضرورة لا يحتاج إلى دراسة وتبيين، وبالتالي يظهر خطأ من يقول: إن هذه المسائل قد ظهر تتابعها بعد أن لم تكن كذلك. فهذا القول برهان على نفي حصولها ابتداء.

فالتتابع ليس رواية الآحاد ابتداء؛ لأنه ليس قولًا أو حديثًا،وإنما هو تتابع لممارسة جماعة حاضرة للحدث، يُحيل العقل تواطؤهم على الكذب، مع إفادة هذا التتابع صدق حصول الحدث ابتداء من جراء معطيات واقعية، ومفاهيم كلية وليس الحكم على صواب هذا الحدث.

وهذا الكلام يوصلنا إلى سؤال آخر يعرضونه، وهو (ما ضابط التواتر، وما الحد الأدنى لحصوله؟) وهذا القول، يرجع أيضًا إلى إغفال تعريف مفهوم التتابع وتعلقه، وذلك لأن من مقومات العقل الإنساني، قَبول حصول حدث تتابع ممارسة في المجتمع دون انقطاع، ويُحيل العقل كذبه، وذلك من خلال استحضار معطيات الواقع الذي حصل فيه الحدث، من إمكانية حصوله في الواقع المعني، وعدم تناقضه مع الثوابت الكونية (آفاقًا وأنفسًا).

لذا؛ لا يوجد عددًا معينًا من الناس يكونون حدًا أدنى لصدق التتابع، وإنما يوجد صفات له، وهي:

1. وجود مجموعة كبيرة من الناس مارست الحدث بصورة واعية ابتداء دون انقطاع.
2. تنوع ثقافتهم، وتفاوتهم بالعلم والمكانة الاجتماعية.
3. استمرار الممارسة وتتابعها في الجيل اللاحق دون انقطاع، وتأكيدها من قبلهم.
4. اشتهار الممارسة في زمنها وتتابعهم على فعلها في زمن حصولها؛ والقطع والصدق بها من قبل الأسرة، أو المجتمع الذي تتابع ممارسة هذا الحدث.
5. عدم تعلق الممارسة العملية بتفسير كيف حصل الحدث، وإنما بإثبات الحصول فقط.
6. وجود الإمكانية، والأدوات العلمية والمعرفية في المجتمع التي تسمح بحصول هذا الحدث.
7. عدم تناقض الحدث مع الثوابت الكونية (آفاقًا وأنفسًا).
8. عدم القيام بتقديم برهان على نفي حصول الحدث من أحد الذين زامنوا بداية الحصول.
9. إفادة الممارسة الجماعية وتتابعها الصدق حسب المعطيات، واستحالة كذبها.

وينبغي أن ننتبه إلى أن التتابع لممارسة فعل يتعلق بالأفعال فقط، وليس بنقل الأقوال؛ لأن الأقوال لا يمكن أن يتم استمرار تتابعها دون أن تتغير، أو تتبدل الألفاظ، مع تدخل الراوي في فهمه للرواية، واحتمال وقوع الخطأ والكذب، وهذا يدل على انتفاء وجود أحاديث للناس يتحقق بها التتابع ممارسة جماعية قط.

وقد يقول قائل: (أليس النص القرءاني أقوالًا وألفاظًا، وبالتالي ينطبق عليه

استحالة تتابعه؟) فنقول له: إن نزول النص القرءاني في ذلك الزمن كان حدثًا عظيمًا ارتبط بنهضة أمة، وهذه الأمة قامت بالاهتمام بحفظ لفظ النص حرفيًّا، ولم تتدخل بفهمها به، مع توثيقه كتابة، وتتابع حين نزوله بصورة اجتماعية، وتعهدت ذلك التتابع من خلال تلاوته في الصلوات ودراسته وتدبره والاعتناء به، وتتابع كذلك كممارسة دون انقطاع إلى الأجيال اللاحقة؛ مما أدَّى إلى الحكم بصدق نسبته إلى محمد بن عبد الله، دون تحريف أو تغيير، حتى أن الكفار لم يطعنوا بنسبته إليه، وإنما أنكروا مصدريته الربانية، وهذه مسألة أخرى، لا علاقة لها بتتابع النص القرءاني، وإنما تخضع للعلم والدراسة والتفكير.

فالتصديق بمسألة تتابع النص القرءاني في المجتمعات الإسلامية ثابت، لا شك فيه، وهذا التتابع للقرءان في الأمة غير موجود لأي كتاب آخر في كل الملل على مدار الزمن، أما التصديق بمصدريته الربانية، فتحتاج إلى تفكير، ودراسة من كل إنسان، ولا يلزم من حصول التصديق بتتابعه، والتصديق بمصدريته الربانية عملية الإيمان به؛ لأن الإيمان- إضافة للتصديق- انقياد وعمل، إذ لا يوجد إيمان دون عمل، كما أن الكفر لا يعني عدم التصديق؛ لأن الكفر هو تغطية وإنكار للشيء قولًا، أو فعلًا.

ومن الأمور التي تتابعت في الأمة الإسلامية، فعل الصلاة، وهي حدث، وليست أقوالًا، (صلوا كما رأيتموني أصلي)، لاحظوا كلمة (كما رأيتموني) وليس كما سمعتموني (وهذا الحديث ليس برهانًا هو للاستئناس والفهم)؛ مما يدل على صدق نسبتها إلى النبي، وأصحابه المتبعين له قطعًا، وإنكار فعل الصلاة، هو في الحقيقة طعن في صدق النبي، ونقض للعقل، إذ أنكر ما هو من مُسَلمات العقل والمنطق؛ لأن العقل يقَبل صدق حصول الحدث المتتابع ممارسة دون انقطاع.

فالنبي وأتباعه؛ قطعًا، قد أقاموا الصلاة بصورتها المعروفة، وتم تتابع ممارسة ذلك الفعل في مجتمعهم، وانتقل إلى المجتمعات الأخرى بصورة أفعال متصلة، لا تنقطع، وإنكارها مكابرة للعقل، وإغماض العين عن الواقع، والجري خلف السراب.

الخلاصـــة:

1. التتابع ممارسة أداة معرفية، وليس أداة علمية.
2. التتابع ممارسة يُفيد حصول الأمر، ولا يفيد في معرفة كيف حصل الحدث.
3. تصديق حصول الحدث المتتابع ممارسة ضرورة عقلية ومنطقية، وإنكاره اغتيال للعقل، ونقض للمنطق.
4. لا علاقة للتتابع ممارسة لفعل بمصطلح الحديث، ولو تم وضعه في كتب الاصطلاح.
5. لا يوجد للتتابع لممارسة فعلية سندًا (رواة) حتى يخضع للجرح والتعديل.
6. وجود الإشكاليات والشبهات، لا ينقض صدق تتابع حصول الحدث كممارسة؛ لأن اليقين لا يزول إلا بيقين مثله.
7. تتابع ممارسة جماعية دون انقطاع غير قابل للنفي، ولا يصح القول بتتابع فعل كممارسة لفعل شيء تاريخي بعد أن لم يكن كذلك.
8. النص القرءاني، حدث عظيم، تتابع كممارسة تلاوة في الصلاة، وتوثق خطًا، منذ بدء نزوله.
9. فعل إقامة الصلاة، تتابعت بصورة اجتماعية ابتداء، واستمر ذلك التتابع الفعلي.
10. ارتبط فعل الصلاة بالأمر بها في النص القرءاني، وتتابعا مع بعضهما.

حفظ النص القرءاني في مكة

إن النص القرءاني بدأ نزوله في مكة التي كانت موطنًا للعرب القائمة ثقافتهم على النظام النقلي من شعر وخطابة، وهما اللذان كانا بمثابة وسيلة الإعلام التي يتم من خلالها ذكر المآثر والملاحم والمدح والذم والتغني ونقل الأخبار... إلخ، حتى أنهم أقاموا في موسم الحج سوقًا عُرف باسم سوق عكاظ يأتي إليه التجار من كل حدب وصوب ليعرضوا بضائعهم ويشتروا غيرها، فيتم التبادل التجاري بينهم، وكل ذلك في مكة التي كان حكمها حقيقة خاضع للتجار الكبار فيها.

وبالتالي فهم المستفيدون أولًا وآخرًا من هذه التظاهرة التجارية، وكان يتخلل هذه التظاهرة بث إعلامي يعتمد على وسيلة الشعر والخطب، ومن خلالها يتم نشر الأخبار وذكر المناقب والأحداث ونشر الحكمة، وكون وسيلة الشعر والخطب هي الوحيدة للبث الإعلامي على صعيد القبيلة وعلى صعيد المجتمع العربي صار الشعر والخطب والروايات بمثابة الحافظة للذاكرة الشعبية للمجتمع العربي حينئذ.

وهذا أدَّى بدوره إلى نمو ذاكرة الحفظ عند معظم الأفراد إلى درجة كبيرة حتى صار معظمهم يحفظ ما يدور حوله من روايات وأشعار من المرة الأولى.

إذنْ؛ النظام الثقافي السائد في مكة حين نزول النص القرءاني كان نظامًا يعتمد على السماع والرواية، وهذا يقتضي الحفظ والاعتناء بالأخبار والشعر والخطب، ومن جراء ذلك غلب على النظام المعرفي عند العرب نظام النقل وساد بين الناس، وهم يتوارثونه جيلًا بعد جيل.

وفي هذه البيئة الثقافية بدأ نزول النص القرءاني بالسور ذات المقاطع الصغيرة، وكان الرسول فور انتهاء الوحي يقوم بتلاوة ما نزل عليه على مسامع الناس لدعوتهم وحوارهم بمفاهيم الدِّين الجديد، فيسمع الناس الحاضرون النص القرءاني، ويحفظونه مباشرة مثله مثل أي نص من الخطب أو الشعر ويتناقلونه فيما بينهم كخبر إعلامي مُهم إلى الآخرين الذين لم يسمعوه ناهيك عن تناوله من قبلهم جدالًا وحوارًا كون مادة النص موجهة إلى تغيير بنية المجتمع وإعادة تشكيله من جديد، أي: أن النص كانت بُنيته بُنية ثقافية اجتماعية، وسوف يتمخَّض عنه مشروع سياسي يقلب أمور المجتمع رأسًا على عقب.

والنص القرءاني ليس كأي نص أدبي، فهو نص حيوي مليء بالفعالية، كل ذلك أدَّى إلى رسوخ النص القرءاني حفظًا في الصدور من قبل مجتمع مكة على مختلف توجُّهاتهم، وإضافة لذلك بدأ يدخل في الدِّين الإسلامي شباب ورجال ونساء من مختلف الطبقات الاجتماعية قاموا بالاعتناء بالنص القرءاني حفظًا وتعليمًا بعضهم لبعض مع وجود أفراد منهم كانوا يقومون بكتابة النصوص القرءانية لأنفسهم.

واستمر نزول النص القرءاني في مكة حوالي ثلاث عشرة سنة مع استمرار الجدال والحوار مع المجتمع بشكل يومي يتم فيه تكرار تلاوة النصوص كونها هي مادة النقاش والدعوة. وكان هذا الأمر هو أكبر حدث اجتماعي ثقافي طوال هذه المدة، فأدى ذلك إلى أن يتتابع هذا الحدث يومًا بعد يوم وتكبر دائرته حتى تجاوزت مجتمع مكة إلى المجتمعات المجاورة، خاصة في موسم الحج.

ذلك كله وغيره جعل النص القرءاني معلومًا لدى المجتمع العربي وتتابع عندهم خبره، ولم يعد مقبولًا في زمنهم أي طعن موجَّه لمادة النص القرءاني من تحريف كمتن ونسبته للنبي محمد، وهذا يعني أن النص القرءاني ابتداء كان متجاوزًا إمكانية الاختراق له متنًا.

ومن الأمور التي زادت في ترسيخ النص القرءاني حفظًا هو أن الله عز وجل جعل تلاوة النص بحد ذاته تعبدًا فحض على ذلك، وهذا يقتضي من المؤمنين حفظه قطعًا، خاصة في مجتمع يغلب عليه نفي مهارة الخط أو تلاوة النص المخطوط.

وإضافة لذلك جعل المشرع تلاوة النص مندوبًا في الصلاة التي هي فرض عين خمس مرات يوميًّا؛ مما يعني أنه لا يوجد فرد مسلم إلا ويحفظ شيئًا من النص القرءاني مهما تضاءل هذا الحفظ، والصلاة قد شُرِّعت مع بدايات نزول النص القرءاني، إذنْ؛ ساهم في حفظ النص القرءاني في الصدور مجموعة من الأمور الموضوعية، وهي:

1. **قوة الذاكرة وحفظ أفراد المجتمع العربي حينئذ.**
2. **أهمية الحدث وعظمته.**
3. **الصراع المستمر بين الإيمان والكفر.**
4. **التحدي للخصوم بالإتيان بمثله بجانب الحكم عليهم سلفًا بالعجز.**
5. **تسفيه عقائدهم وطريقة تفكير المجتمع الجاهلي.**
6. **دخول جماعات من الناس في الدِّين الجديد فاعتنوا بالنص القرءاني حفظًا وتعليمًا وكتابة.**
7. **جعل المشرع تلاوة النص عبادة وحض على ذلك.**
8. **جعل المشرع تلاوة النص مندوبًا في الصلاة اليومية.**
9. **النص القرءاني مصدر للفكر والدعوة فكان محلًّا للدراسة والتدبر لا يستغنى عنه ولا بأي شكل؛ مما أدَّى إلى حضوره في عملية الجدال والحوار يقوده ويوجهه.**
10. **وجود الرسول نفسه حامل الرسالة والذي يقوم بتلاوتها وإبلاغها للناس بشكل مستمر.**

11. نزول النص القرءاني مفرقًا خلال مدة زمنية طويلة (23 عامًا).

12. ارتباط النص القرءاني غالبًا بالأحداث.

وبذلك صار النص القرءاني الحديث اليومي لمجتمع مكة، وهو أشهر من عَلَمٍ عند الناس جميعًا حتى الكفار منهم لو تجرد أحدهم من موقفه العنيد ضد الدعوة، وطُلِبَ منه تلاوة ما نزل من النص القرءاني لقام بفعل ذلك عن ظهر قلب دون أن يسقط منه حرفًا؛لأنه عاصر نزول النص وعاش أحداثه يومًا بعد يوم وسمعه عشرات المرات، بل مئات من جراء اهتمام المجتمع به خلال ثلاث عشرة عامًا، فكيف والمؤمنون يزدادون يومًا بعد يوم وكلهم معاصرون للرسول يسمعون منه مباشرة النص القرءاني ويهتمون به حفظًا وتلاوة وكتابة؟

وبذلك كان النص القرءاني ابتداء من نزوله يدخل في دائرة التتابع له رواية وتلاوة، ويتنامى ذلك ويتسع مع مرور الزمن ليعطي للنص القرءاني مناعة ضد أي عملية اختراق له متنًا.

توثيق النص القرءاني كتابة خطِّيّة في العهد المدني

عندما هاجر النبي إلى المدينة بدأ عهد جديد في التعامل مع النص القرءاني، ومرد ذلك راجع إلى أن الوضع في المدينة مختلف عن الوضع في مكة، إذ كان الوضع في مكة مجال عمله هو الدعوة والعمل لبناء مجتمع.

أما في المدينة فلقد استجابت القاعدة الشعبية لهذا الدِّين الجديد فصار الوضع هو تمثيل المجتمع والمضي به قدمًا نحو النهضة والرقي، وكون بنية المجتمع الثقافية قد تغيَّرت سوف يترتب على ذلك تغيير في كافة البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وهذا أدَّى بدوره إلى ميلاد الدولة الجديدة التي تمثل الكيان الاجتماعي الجديد كضرورة ثقافية اجتماعية، وبذلك صارت الدعوة من مهمة الدولة التي يرأسها النبي نفسه.

وبما أن النص القرءاني ما زال مستمرًا في النزول، فلقد أخذت الدولة على عاتقها حفظ النص القرءاني وتوثيقه كتابة خطِّيّة، فقام النبي بتكليف جماعة كبيرة ممن يتقنون الكتابة ليقوموا بكتابة النص القرءاني فور نزوله، واشتهر هؤلاء الكتبة باسم كتبة الوحي، وكان منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأُبَي بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم كثير، وورد أنه قد بلغ عدد كتبة الوحي أربعين كاتبًا[9].

9 راجع كتاب: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، ط. الأولى. نشر اللجنة الوطنية في بغداد تأليف غانم قدوري الحمد.

ولم تنحصر كتابة النص على هؤلاء، فلقد كان كثير من المسلمين ممن يتقنون الكتابة يكتبون لأنفسهم نصوصًا من القرءان أو كل ما ينزل من الوحي تباعًا لتكون عندهم نسخ خاصة بهم. لننظر إلى هذه الأحاديث التي تؤكد ما ذكرناه:

1. «لا تكتبوا القرءان إلا في شيء طاهر» مسند عمر بن عبد العزيز.

2. «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرءان فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليَّ» قال همام: أحسبه قال: «متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار». صحيح مسلم.

3. «لا يمس القرءان إلا طاهر» مالك في الموطأ.

4. «لا تسافروا بالقرءان فإني أخاف أن يناله العدو» مسند أحمد.

فهذه النصوص تؤكد بشكل جلي أن هناك من الصحابة غير كتبة الوحي كانوا يكتبون لأنفسهم النص القرءاني سواء بشكل جزئي أم كلي لمجموع النصوص التي تنزل تباعًا.

إذنْ؛ النص القرءاني في العهد المدني كان ابتداء منذ نزوله يدخل في دائرة التتابع له رواية من جراء تلاوة الرسول له على ملأ من الناس، ودائرة التوثيق له كتابة خطِّيّة من جراء كتابته بحضرة النبي، وذلك في نسخته الخاصة المحفوظة عنده في بيته إضافة لكتابته من قبل جماعة من الصحابة لأنفسهم. لننظر إلى هذا الحديث:

«كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا» الترمذي.

وواضح من الحديث أن الألواح أو الرقاع التي يُكتب عليها النص القرءاني تبقى عند النبي في بيته ولا يأخذ كتبة الوحي شيئًا منها، إذ لو حصل ذلك لتعذر وضع السورة في المكان الذي يدل عليه الرسول بالنسبة لكاتب آخر لا يوجد عنده أصلًا السور التي يذكرها الرسول، ويكون النص القرءاني المكتوب على الألواح والرقاع قد تفرق على كتبة الوحي وكل واحد منهم يحتفظ بما كتب.

وهذا الأمر يرفضه العقل وواقع الحال، والصواب أن كل نص قرءاني يكتب على لوح أو رقاع يتم حفظه عند النبي نفسه حتى إذا نزل نص آخر، ولم يكن كاتب الوحي السابق موجودًا يأتي أي كاتب آخر ممن هو موجود في تلك الساعة ليحل محله، ويكتب النص القرءاني الجديد ويضعه في مكانه من الألواح الموجودة عند الرسول في بيته، وقد دلَّ على ذلك الحديث التالي:

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ نُؤَلِّفُ القرءان مِنَ الرِّقَاعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «طوبى للشام فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها» سنن الترمذي.

وقول زيد صريح في أن الرقاع المكتوب عليها النص القرءاني موجودة عند الرسول نفسه في بيته،وكان يتعهدها بالحفظ والجمع مع بعضها ضمن طريقة معينة،خاصة الرقاع التي تحتوي على السورة الطويلة، فلا بُدَّ من ترتيبها حسب التسلسل لها،ويكون ذلك بتأليف الرقاع المعنية مع بعضها دون غيرها.

وهكذا يتم تأليف كل سورة طويلة مع بعضها حتى لا تختلط الرقاع ويتم تداخل السور الطويلة مع بعضها، وزيادة في التوثيق للنص القرءاني المخطوط كان الرسول عندما ينتهي من تلاوة النص وإملائه على الناسخ يأمره أن يعيد تلاوة المخطوط عليه والنبي يسمع، وذلك لضبط وتصحيح النص إذا وقع من الكاتب أي خطأ أو سهو. لننظر إلى هذا الحديث:

«كنت أكتب الوحي عند رسول الله وكان يشتد نفسه ويعرق عرقًا شديدًا مثل الجمان، ثم يسري عنه فأكتب وهو يملي علي فما أفرغ حتى يثقل فإذا فرغت قال اقرأ؟ فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه» المعجم الكبير سليمان بن أحمد[10].

واستمر توثيق النص القرءاني حفظًا وكتابة إلى أن تم اكتمال نزول النص القرءاني، وتوفِّي الرسول بعد ذلك تاركًا وراءه النص القرءاني مكتوبًا بشكل كامل على الرقاع في بيته مع وجود عدة نسخ للنص القرءاني مكتوبة بشكل كامل عند مجموعة من الصحابة، غير الكتابة المتفرقة للنص في مجموع مجتمع الصحابة.

ولننظر إلى هذا الحديث الذي يدل على نسخة النص القرءاني المكتوب في حضرة النبي إلى أين آلت بعد وفاة النبي.

«بعدما ارتحل النبي إلى الرفيق الأعلى جلس عليٌّ عليه السلام في بيته حتى جمع القرءان في مصحف على ترتيب النزول، ولم تمض ستة أشهر من وفاة الرسول إلا كان عليٌّ قد فرغ من عمل الجمع وحمله للناس على بعير»[11].

ولننظر للحديث التالي الذي يدل على وجود نسخ مكتوبة كاملة للنص القرءاني في زمن النبي غير نسخته المكتوبة بحضرته.

«مات النبي ولم يجمع القرءان غير أربعة أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد»، قال: «ونحن ورثناه» الجامع الصحيح المختصر. محمد بن إسماعيل البخاري.

وكلمة الجمع في الحديث لا يقصد بها الحفظ ضرورة، وذلك لوجهين:

الأول: أن الجمع للنص القرءاني حفظًا كان لعدد كبير جدًّا من الصحابة كما هو

10 أدب الكتّاب الصولي، المطبعة السلفية القاهرة ص165، نقلًا عن كتاب رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية لغانم قدوري الحمد، ط(1) اللجنة الوطنية في بغداد.

11 الإتقان للسيوطي، المصاحف لأبي داود.

معروف،وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة وأُبَيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهم كثير جدًّا.

الثاني: قول أنس في آخر الحديث: (ونحن ورثناه) وقطعًا الوراثة لا تكون للحفظ لاستحالة ذلك فضلًا عن انتشارها بين مئات من الصحابة ومن تبعهم مما يقتضي أن الوراثة كانت للنص القرءاني المكتوب على الرقاع.

أما حصر عملية الجمع للنص القرءاني كتابة في زمن النبي بأربعة فقط، فإن هذا حسب علم واطلاع أنس بن مالك والأمر لا يفيد الحصر لعدم وجود عملية إحصاء في مجتمع الصحابة؛ مما يعني احتمال وجود أكثر من أربع نسخ مكتوبة بشكل كامل للنص القرءاني، فمثلًا هناك نسخة النبوة التي آلت إلى علي بن أبي طالب بعد وفاة النبي.

إذنْ؛ توفِّي النبي والنص القرءاني بشكل كامل قد دخل في دائرة التتابع له حفظًا من مجتمع الصحابة ودائرة التوثيق له كتابة بشكل كامل في عدة نسخ غير وجوده مكتوبًا بشكل متفرق في مجتمع الصحابة.

نقل النص القرءاني
من الرقاع إلى الصحف في زمن أبي بكر

بعد أن توفِّي النبي واستلم بعده زمام أمور الحكم أبو بكر الصديق ارتدت كثير من القبائل العربية[12] لأسباب لسنا في صدد دراستها قام أبو بكر بمحاربتها محاولًا إرجاعها إلى الولاء للدولة الجديدة، وعُرفت الحروب باسم حروب الردة، وانخرط في هذه الحرب معظم الصحابة الأقوياء الأشداء ليمارسوا دورهم في حفظ هيبة الدِّين وسلطة الدولة، ومن بينهم كان عدد ضخم جدًّا من حفظة القرءان وخلال المعارك استشهد منهم الكثير.

فتنبه لذلك عمر بن الخطاب واقترح على أبي بكر أن يقوم بجمع النصوص القرءانية في مصحف خشية ضياعه من أثر موت الحفظة وسرعان ما استجاب أبو بكر لذلك بعد أن تردد قليلًا وعلم أن الأمر فيه الخير للمسلمين، ولقد أورد البخاري القصة كاملة في صحيحه، إذ قال:

أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ، وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ في الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْءانِ، إِلاَّ أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْءانَ.

---

12 اسم حروب الردة هو تسمية خطأ والصواب حروب المعارضة، والحرب كانت سياسية لحفظ هيبة الدولة وتماسكها وليست دينية.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ. فَقَالَ أَبُو بَكْر: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلا نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ فَتَتَبَّعِ القرءان فَاجْمَعْهُ.

فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرءانِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْءانَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِهِمَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْءانُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ. البخاري.

قبل شرح عملية جمع النص القرءاني في مصحف في زمن أبي بكر لا بُدَّ أن نذكر ما مرَّ معنا من جمع القرءان في زمن النبي.

فلقد ثبت لدينا أن النص القرءاني في زمن النبي كان محفوظًا تلاوة لفظية في صدور المؤمنين كظاهرة ثقافية اجتماعية متتابعة في المجتمع، ومكتوبًا خطًّا كله على الرقاع وموجودًا في مكان واحد إضافة لعدة نسخ كاملة موجودة عند بعض الصحابة، وعلى رأسهم زيد بن ثابت، كما في الحديث السابق «لم يجمع القرءان إلا أربع».

ولما توفِّي النبي انتقلت نسخة القرءان المكتوبة بإملائه إلى علي بن أبي طالب بحكم القرابة، إذ كان ابن عمه وزوج ابنته وهو من باشر أمور وفاته، وقد قام علي بترتيبها

حسب تاريخ النزول وحملها على بعير وأظهرها للناس بعد بضعة أشهر من وفاة النبي، ولم تتبنَّ الدولة حينئذ عمل علي، وذلك لعدم شعورهم بالحاجة إلى هذه النسخة كون النص القرءاني متتابعًا بين الصحابة رواية وحفظًا، فضلًا عن كتابته في عدة نسخ عند بعض الصحابة مع وجود المانع السياسي الذي نتج عنه تغييب علي من الظهور في الأمور المهمة حتى لا يتسلط عليه الضوء، فاحتفظ علي بالنسخة عنده.

إذنْ؛ يجب تقرير الأمر التالي أن أول من جمع النص القرءاني كتابة هو النبي نفسه، كما ذكر ذلك الحديث السابق «كنا نؤلف القرءان من الرقاع عند الرسول»، وحديث زيد بن ثابت إذ قال: «كنت أكتب الوحي عند رسول الله وهو يُملي عَلَيَّ، فإذا فرغت قال: اقرأه؟ فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه».

وبناء على ما ذكرنا آنفًا، نأتي لعملية جمع أبي بكر للنص القرءاني في الصحف، فالملاحظ أن العملية هي تغيير في وسيلة الجمع للنص القرءاني من الألواح والرقاع إلى وسيلة أخرى أسهل من الأولى في عملية نقلها وحفظها وهي الصحف، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت بنقل النص القرءاني إلى الصحف معتمدًا على وسيلتين:

الأولى: النص المحفوظ بالصدور بشكل متتابع، الثانية: المكتوب على الرقاع، بحيث لا يُثبت آية إلا إذا توافر فيها شرطان: التتابع الحفظي، والتوثيق الكتابي، والوسيلتان كلتاهما متوافرتان في مجتمع الصحابة، ويكفي أن نعلم أن زيدًا هو أحد الحفظة، ويملك نسخة مكتوبة للنص القرءاني خاصة له.

ومع ذلك لم يعتمد على حفظه فقط، ولا على نسخته كونها خاصة له وليس لها مصداقية بشكلها المنفرد، وكل ذلك لدقة التوثيق للنص القرءاني المكتوب، فأخذ يجمع النص القرءاني من الصدور بشكل سماعي تلاوة صوتية، ومما هو مكتوب، ويقارنه بحفظه ونسخته، ويُثبت ذلك بعد التدقيق.

وفي نهاية العمل حصل على نسخة مُوَثَّقة ومُصَدَّقة من قبل مجتمع الصحابة، وهي

صورة طبق الأصل عن المحفوظ في الصدور بشكل متتابع، والمكتوب على الرقاع، أي: **أن مصحف أبي بكر حصل على أعلى درجة في التوثيق والتصديق، إذ تحقق فيه التتابع له سماعًا، والاتفاق من قبل مجتمع الصحابة على صحة المكتوب، وأنه وفق المحفوظ تتابعًا.**

أما ما جاء في الحديث أنه وجد آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة ولم يجدها مع أحد غيره فلقد قصد بذلك الكتابة لها وليس العلم بها وحفظها؛ لأن حفظها في الصدور متتابع بين الصحابة، وما زال الكثير منهم على قيد الحياة نحو أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد نفسه.

فكل هؤلاء من الحفظة وكتبة الوحي، فضلًا أن قوله: «لم أجدها مع أحد غيره» ليس دقيقًا من الناحية العلمية؛ لأنها موجودة بنسخته الخاصة ونسخ الذين جمعوا القرءان كاملًا في حياة النبي ونسخة النبوة نفسها كون كل آية تنزل كانت تتم كتابتها فور نزولها، فقطعًا هذه الآية موجودة في نسخة النبوة التي آلت إلى علي.

ويبدو أنه بحث عنها كتابة في غير نسخته وغير نسخة علي بن أبي طالب فلم يجدها لدى من بحث عندهم حتى وجدها عند خزيمة، وعندما وجدها توقف عن البحث لحصول التوثيق كونها محفوظة في الصدور ومعلومة بشكل متتابع، وموجودة في نسخته الخاصة فاكتفى بذلك وأثبتها، أما غياب نسخة النبوة التي آلت إلى علي بن أبي طالب من عملية النقل عنها فقد ذكرنا الاحتمالات التي كانت سببًا لذلك.

وبعد أن فرغ زيد بن ثابت من عملية جمع النص القرءاني في مصحف فإن واقع الحال في مثل هذا الموقف يقتضي من صاحب العمل أن يقوم بمراجعته وتدقيقه قبل تسليمه إلى رئيسه، وعندما يتم تسليم العمل، خاصة إذا كان على درجة من الأهمية والعظمة كهذا الأمر.

فإن الرئيس نفسه يقوم بالإشراف على استلامه والتأكد من صحته، خاصة أن

الرئيس هو من علماء الصحابة، ومن حفظة النص القرءاني، ومن كتبة الوحي، وهو مَنْ هو عظمة وفضلًا، ويكفي أنه (الصدِّيق)، فقطعًا قام بتدقيق النص المكتوب وأعطاه صفة التوثيق له والمصداقية كونه رئيسًا للدولة، وكان معه في كل خطوة وزيره عمر بن الخطاب صاحب الفكرة أساسًا.

وبذلك أخذ النص القرءاني المكتوب في زمن أبي بكر توثيق ومصداقية دولته أضيف لتتابع حفظ النص المكتوب والاتفاق على صحة ما كُتِب بالتمام والكمال، فوصل النص القرءاني إلى درجة التوثيق والصواب القطعي لا يناقش بذلك إلا مكابر يغمض عينيه عن الحقيقة.

ولما توفِّي أبو بكر انتقلت الصحف إلى عهدة عمر بن الخطاب الفاروق وبقيت بعنايته وحفظه وكانت هي الإمام والمرجع إذا حصل أي خلاف في النص القرءاني، ولكن في واقع الحال لم يحصل ذلك أبدًا ومَرَدُّ ذلك راجع إلى تتابع النص القرءاني في مجتمع الصحابة، وبعد أن توفِّي عمر بن الخطاب انتقلت الصحف إلى حفصة بنت الخطاب كونها زوج النبي وأم المؤمنين وابنة الحاكم، وبقيت عندها بالحفظ والصون.

توحيد التلاوات
والرسم للنص القرءاني في زمن عثمان

لنرَ عمل عثمان في المصاحف من خلال ذكر الخبر التاريخي كاملًا كما جاء في الجامع الصحيح المختصر.

حدثنا موسى حدثنا إبراهيم حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرءان فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرءان في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. البخاري.

الملاحظ من الرواية أن الموضوع متعلق بالتلاوات المختلفة للنص القرءاني بين المسلمين البعيدين عن مركز الدولة، فسرعان ما شعر الحاكم بخطر الأمر.

فطلب عثمان مصحف أبي بكر (الذي تم تتابعه حفظًا، والاتفاق على صحة

المكتوب فيه من قبل مجتمع الصحابة حينئذ، والموثق من دولة أبي بكر، ودولة عمر بن الخطاب) من حفصة، وشَكَّلَ لجنة برئاسة زيد بن ثابت، وأمرهم بنسخ بضع نسخ عن النسخة الأصلية صورة طبق الأصل، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في رسم شيء من القرءان فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم ففعلوا ذلك، ولم يرد أنهم اختلفوا إلا في رسم كلمة واحدة وهي: [التابوت] فلقد قال زيد: تكتب [تابوة].

فلم توافقه اللجنة، وقالوا: بل تكتب [تابوت]، ورفعوا ذلك إلى عثمان كونه الحاكم وأحد الحفظة وأحد كتبة الوحي، ومن كبار قريش فقال: اكتبوها[تابوت] فإنها نزلت بلسان قريش.

وبعد ذلك تم تسليم النسخ المكتوبة للدولة، ومن الطبيعي أن يقوم الحاكم بمراجعة وتدقيق ما طلب فعله للتأكد من صحته، وبعد ذلك التأكد والمقارنة مع الأصل أرجع المصحف إلى حفصة كما وعدها، وأمر بتوزيع النسخ المكتوبة في الأمصار واحتفظ بواحدة عنده، وأصدر قرارًا يقضي بإحراق كل المصاحف القديمة بأية وسيلة كانت مجموعة وعلى أية تلاوة.

وفعلًا استجاب الصحابة طوعًا أو كُرهًا لهذا الأمر، وقاموا بإحراق ما لديهم من المصاحف، وبعملهم هذا أعطوا لعمل عثمان المصداقية من الأمة والرضا عن عمله، وكان علي واحدًا منهم، فأحرق النسخة التي بحوزته - نسخة النبوة -[13]، وذلك طاعة للحاكم ولعدم جدواها في واقع الحال، كون النص القرءاني توثق في المصاحف.

وبعمله ذلك يكون قد أقر عمل عثمان وأعطاه المصداقية على عمله، بل تبنى عمل عثمان ودافع عنه ممن حاول الغمز به، ولننظر إلى هذا الموقف من علي بن أبي طالب.

1. «لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل إلا على ملأ منا» فتح الباري.

13 أثبتنا ذلك من جراء معرفة مدى التزام علي بن أبي طالب ببيعته للحاكم على السمع والطاعة، وفقدان هذه النسخة وعدم ظهورها أبدًا، خاصة عندما استلم الحكم علي بن أبي طالب ولو كانت موجودة لأظهرها.

2. عن علي رضي الله تعالى عنه قال: «لو وليت مثل الذي وُلِّيَ لصنعت مثل الذي صنع» سنن البيهقي الكبرى.

ومن المعلوم أن الإمام علي من المعارضين السلميين لسياسة عثمان في المال والحكم،فلو أن عثمان وقع بأي غلط في عملية توحيد الرسم والتلاوات للنص القرءاني لكانت فرصة مناسبة لعلي ومن معه في الخروج عليه، وتأليب المجتمع ضده، والظروف مناسبة جدًّا لهذا العمل، بينما نلاحظ أن الإمام علي سكت إقرارًا وتصديقًا، ودافع عن عثمان وتبنى موقفه، وصرح لو أنه مكانه لفعل مثل ما فعل حفظًا على وحدة المسلمين في تلاوة كتاب ربهم.

وعندما استلم علي الحكم بعد عثمان استمرت عملية التصديق والإقرار لفعل عثمان بالمصاحف ولم يغير شيئًا، بل أعطاه حكم الصواب بدفاعه عنه وتبنيه له، وهذا يعني أنه قام بتوثيق عمل الحاكم السابق، **وبهذا العمل صارت نسخة القرءان المكتوبة قد توثقت من النبي نفسه ومن بعده من الخلفاء الراشدين الأربعة واحدًا تلو الآخر والأمة معهم رقيب عتيد.**

وعندما قام عثمان بإرسال النسخ الموثقة إلى مختلف الأمصار الإسلامية كانت مجرد أن تصل إلى هناك يقوم الوالي بالنسخ عنها عشرات النسخ، وهكذا تم في كل بلد وصلت إليه نسخة عثمان، مما يعني انتشار النص القرءاني المكتوب الموثق في مشارق الأرض ومغاربها سواء في البلاد العربية أو غير العربية في وقت مبكر لم يتجاوز عشرين عامًا على وفاة النبي؛ مما يعني أن النص القرءاني خرج من دائرة التتابع له كتابة خطِّيّة عند العرب إلى الأقوام الأخرى وصار نصًّا مخطوطًا عالميًّا متتابعًا تلاوة لفظية، وتجاوز إمكانية الاختراق له زيادة أو نقصانًا.

ونعود للنص المعني بالشرح لإتمام نقاشه:

نلاحظ أن عثمان بن عفان قد عيَّن لهذه المهمة زيد بن ثابت، وهذا لعلمه أن زيدًا

هو من الحفظة وأحد كتبة الوحي ومن الذين شاركوا في تأليف القرءان من الرقاع بحضرة النبي، ومن الجامعين له كتابة بنسخة خاصة له، وهو الذي قام بجمع النص القرءاني بالمصحف في زمن أبي بكر، أي: أن زيد بن ثابت هو في مقام الخبير بالنص القرءاني.

وبالتالي فهو أصلح الموجودين للقيام بهذه المهمة، فتم تكليفه دون غيره، ولم يكن القصد من عثمان الطعن أو الإنقاص من قيمة الآخرين، وإنما اختار الرجل المناسب للمكان المناسب وكان اختيارًا موفقًا، ولاقى قَبولًا عند أغلب الصحابة.

أما ما جاء في نهاية الرواية من فقدان آية من سورة الأحزاب، فهذا خطأ واضح، وذلك لأن **الجمع لمادة النص القرءاني كتابة خطِّيّة موجودة منذ زمن النبي، وتم جمعه خطًّا مرة ثانية بزمن أبي بكر في مصحفه الذي وصل إلى أعلى درجة من التوثيق، وكلا الجمعين كانا وفق النص القرءاني المتتابع والمحفوظ بالصدور تلاوة.**

أما في زمن عثمان فلم يتم جمع مادة النص القرءاني؛ لأنها مادة مجموعة خالصة جاهزة وموثقة، ولذلك طلب المصحف من حفصة ليتم النقل عنه صورة طبق الأصل لا زيادة عليها ولا نقصان.

وهذا يدل على أن هذه الحادثة ذكرها زيد عن عمله الأول الذي قام به في زمن أبي بكر، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أعاد القصة رواية في زمن عثمان، ومن ثم تم إدراجها بنفس القصة من أحد الرواة فظن بعض العلماء أن ذلك حدث في زمن عثمان، وهذا غلط فاحش يجب التنبه له.

أما النسخة الأصلية – البكرية – التي أرجعها عثمان إلى حفصة فإنها بقيت عندها إلى أن توفيت فانتقلت إلى أخيها عبد الله بن عمر، فطلبها منه مروان بن الحكم وكان والي المدينة حينئذ، وأمر بإحراقها خشية أن تقع في يد أحد فيقوم بتحريفها مما يؤدِّي إلى نقض كل المصاحف التي نُقلت عنها كونها هي الأصل.

وفعلًا تم إحراقها وبهذا العمل صارت جميع النسخ المنسوخة عنها بشكل مباشر هي أصل بحد ذاتها كونها موثقة ومصدقة من الدولة بعهد أربعة حكام حكموا حوالي ثلاثين عامًا.

اقرؤوا هذا الخبر التاريخي

لَما تولَّى مروان بن الحكم إمرة المدينة في خلافة معاوية، طلب الصحف من حفصة ليحرقها؛ **حتى لا يرتاب في شأنِها أحدٌ، فيظن أن فيها ما يُخالف المصحف الذي استقرَّ عليه الأمر، أو يظن أنَّ فيها ما لم يكتبه عثمان في المصاحف**، فأبت حفصة أن تعطيها إياها، فبقيت تلك الصحف عندها إلى وفاتِها، فلَمَّا توفيت حضر مروان جنازتَها، ثم أرسل إلى عبد الله بن عمر بالعزيـمة أن يرسل الصحف إليه، **فنشرها بين الناس وأحرقها، ليعلم الجميع بذلك، ولا تتشوَّف نفس أحد إلى ما فيها ظنًّا أنَّها تَختلف عن مصاحف عثمان** [14].

وهذا النص هو جواب لمن يسأل عن أين اختفت نسخة المصحف التي جمعها أبو بكر!، وجواب أن الحرق لها لم يكن لإخفاء نصوص فيها أو تحريف النسخ الحديثة، خاصة أن الحرق لها قد تم بعد انتشار نسخ عثمان بفترة طويلة في الأمصار غير أن النص القرءاني محفوظ في الصدور تلاوة بصورة متتابعة في الأمة.

الخلاصة:

1. تتابع النص القرءاني تلاوة وحفظًا وتَوَثَّقَ كتابة خطِّيّة في عهد النبي نفسه وبإشرافه على الرقاع والألواح.
2. أضاف أبو بكر لما سبق التتابع التوثيقي المخطوط لنص القرءان، وتم اتفاق المجتمع وإقراره لذلك بزمنه، وانتقل الجمع من الرقاع والألواح إلى الصحف، وظهر اسم المصحف.

14 رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان المصاحف ص 32، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد (7/ 159)، وقال ابن كثير: إسنادٌ صحيح. فضائل القرءان ص 46.

3. اختفاء المخطوط الأول للنص القرءاني الذي كتب في زمن النبي كان نتيجة تتابع النص القرءاني في مجتمع الصحابة تلاوة صوتية وعدم الشعور بحاجة للمخطوط، فتم إهماله، وحرقه في زمن عثمان طاعة له.

4. اختفاء مخطوط أبي بكر كان بأمر من مروان بن الحكم بحرقه بعد أن نشر صحفه على الناس ومشاهدة أنها طبق الأصل لما يحفظون من النص القرءاني وطبق الأصل للنسخ التي نقلت عنها،خاصة أنها منتشرة قبل الأمر بحرق النسخة بفترة زمنية طويلة.

5. اختفاء المخطوطات الخاصة للنص القرءاني التي كتبت مبكرًا بين الناس طاعة لأمر عثمان بحرقها.

6. توثيق النص القرءاني كمخطوط من قبل الدولة ظهر مُبكِّرًا في فترة زمنية لا تتجاوز عام بعد وفاة النبي.

7. قام عثمان بنقل التوثيق الخطي للنص القرءاني وتوسيع دائرته من مجتمع العرب إلى خارج العرب، وذلك من جراء توحيد رسم وتلاوات النص القرءاني، وتوزيع النسخ على الأمصار، وأمر الوالي بنسخها نسخًا متعددة حين وصولها وتمكين الأمة منها ونشرها بينهم.

واستمر ذلك في المجتمعات إلى يومنا المعاصر والنص القرءاني يزداد توثيقًا وحفظًا ببُعديه التلاوة الصوتية، والكتابة الخطِّيّة في الصحف، مما أدَّى إلى استحالة اختراق النص القرءاني كلما تقادم الزمن عليه، وصار أصح وثيقة تاريخية في زمننا المعاصر، بل دخل دائرة الحق، وصار من المسلمات العلمية في صحة متنه وعدم تعرضه لأي اختراق زيادة أو نقصان كنص تاريخي.

التلاوات سنة متبعة وليست مبتكرة

إن التلاوات للنص القرءاني كانت تعتمد في الدرجة الأولى على السماع والتلقي من مجتمع الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار على أثر الفتوحات الإسلامية؛ مما أدَّى إلى انتشار تلاوة في مكان بحسب الصحابة الذين يتلونها وانتشار تلاوة أخرى في مكان آخر حسب الصحابة الموجودين في ذلك المكان، مع العلم أن هذه التلاوات كانت محل تتابع ورضا من قبل مجتمع الصحابة، والذي جرى أن كل مجموعة غير معينة ارتضت تلاوة ألزمت نفسها بها وأخذت تتلوها على الناس شفاهًا، وسمعها الناس وحفظوها في الصدور كما سمعوها.

وهكذا تم تداول التلاوة من مجتمع إلى آخر بشكل متتابع في الزمن الواحد، وكان يتصدر لتعليم الناس التلاوة للنص القرءاني رجال قد حازوا رضا علماء زمانهم بالنسبة للحكم على صحة تلاوتهم فضلًا عن قبولها من مجتمعهم دون نكير؛ مما أدَّى مع الزمن إلى إعزاء كل تلاوة لأشهر من يقوم بتعليمها واشتهرت نسبة له من هذا الوجه ليس إلا، ولا يعني هذا أن التلاوة غير معروفة قبل هذا الشيخ، بل هي معروفة ومتتابعة قبله بين الناس.

وهو عندما قام بتلاوتها لم يأت بجديد لا يعرفه الناس، وإنما قام بتلاوة النص القرءاني كما يتلوه المجتمع الذي ينتمي إليه هو، ولكنه لقيامه بعملية التدريس والإلقاء وتواصل المجتمعات الإسلامية مع بعضها أدَّى إلى إعزاء كل تلاوة لأشهر من يقوم بتعليمها مع وجود غيره يقوم بالعمل ذاته.

وكل ذلك لتمييز التلاوات عن بعضها مع العلم أنه يوجد بعض من رجال الكوفة وضعوا تلاوات حسب الرسم للنص القرءاني غير المنقط، فتلقف المستشرقون ذلك، وعنهم أخذ بعض الباحثين العرب وقاموا بجعجعة وصالوا وجالوا وملؤوا الدنيا صراخًا وضجيجًا بأبحاثهم يحاولون الطعن في حفظ النص القرءاني من خلال هذه الثغرة، رغم أن الباحث الموضوعي يدرك تهافت هذا الرأي وبطلانه من عدة أوجه هي محل تسليم عند العلماء والأمة جميعًا منها:

1. التلاوات للنص القرءاني كانت موجودة ومتداولة قبل رسم النص القرءاني في زمن عثمان مما يدل على انتفاء سببيته في ولادة التلاوات.

2. ظهور التلاوات للنص كان متزامنًا مع استمرار نزول القرءان ذاته في مجتمع الصحابة.

3. التلاوة للنص القرءاني كانت متتابعة في كل مجتمع بعد مجتمع الصحابة.

4. التلاوات كانت تعتمد أصلًا على التلقي والسماع، وليس على الرسم المكتوب.

5. جميع من كان يتصدر تعليم الناس التلاوات إنما تلقى النص القرءاني عمن قبله سماعًا إلى مجتمع الصحابة، وكان علماء التلاوات يُعطون إجازات في التعليم لتلاميذهم على مرأى ومسمع من المجتمع.

6. لو كان اختلاف التلاوات نتيجة احتمال رسم النص القرءاني غير المنقط لعدة أوجه من الدلالات التي يحتملها السياق اللساني لوجب أن يشمل ذلك مجموع مادة النص القرءاني لجريان الأمر ذاته عليها من حيث احتمال الرسم لأوجه من الدلالات يحتملها السياق واللسان.

بينما نلاحظ أن اختلاف التلاوات كان لمجموعة محددة من الكلمات دون غيرها، وقد تم الاعتناء بها وحفظها من قبل العلماء وإقراؤها للناس على هذا الوجه، **وهذا**

يدل على أن التلاوة سنة متبعة بشكل تلقي من مجتمع إلى من سبقه إلى مجتمع الصحابة إلى النبي عن الوحي.

فاختلاف التلاوات لا يمكن أن يكون اختلاف تناقض أو تضاد، وإنما اختلاف تنوع، وهذا الاختلاف يُعطي للنص بُعدًا آخر غير الوجه الذي أظهرته التلاوة الأخرى مما يزيد في مساحة فضاء الدلالات الكامنة في النص.

ولقد وضع العلماء شروطًا لقَبول التلاوة واعتمادها كنص قرءاني منزل، وهي:

1. تتابع التلاوة سماعًا واستمرارها في المجتمعات دون انقطاع. وهذا الشرط هو الأصل والأساس، وتصحح أي مخطوطة تظهر للنص القرءاني على موجب التلاوة المتتابعة، وما سوى هذا الشرط إنما هو لضبط وتوثيق التلاوة.

2. موافقة التلاوة للرسم العثماني، كون النص القرءاني المكتوب في زمن عثمان أخذ صفة التوثيق والتتابع له كتابة من قبل مجتمع الصحابة، بخلاف التلاوة الخارجة عن الرسم العثماني فقد توقف تتابعها وتقلصت إلى درجة الانقراض نتيجة أمر عثمان بحرق كل المصاحف القديمة وإلزام الأمة برسمه فقط والتلاوات التي تضمنها رسمه.

3. موافقة التلاوة للسياق اللساني ودلالته.

لننظر إلى قوله تعالى من سورة الأنعام رقم (57):

أ – ﴿ إنِ الحكمُ إلاّ للهِ يَقُصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين ﴾.

رواية عاصم ونافع وابن كثير وأبي جعفر.

ب – ﴿ إنِ الحكمُ إلاّ للهِ يَقْضِ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين ﴾.

رواية باقي العشرة.

فكلمتا (يقض) و(يقص) دون تنقيط تصير تحتمل أكثر من وجه للتلاوة، ويظن الإنسان أن ذلك الاختلاف في التلاوة مرده احتمال الرسم للوجهين، وقد بينَّا آنفًا تهافت هذا الرأي، فيوجد شرط أساسي قبل موافقة التلاوة للرسم هو التلقي للفظ سماعًا، وقد كان ذلك موجودًا ومتداولًا قبل التنقيط بزمن ليس بالقليل.

لننظر أيضًا قوله تعالى من سورة الزخرف (19):

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾. رواية حفص عن عاصم، بوجود ألف فوق حرف الباء لتصير لفظًا (عباد).

﴿وجعلوا الملائكةَ الذين هم عِنْدَ الرحمنِ إناثًا﴾ رواية ورش عن نافع.

وقوله من سورة الفاتحة(4):

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (مالك) رواية حفص عن عاصم.

﴿ مَلِكِ يومِ الدِّين﴾ (دون ألف لكلمة ملك) رواية ورش عن نافع.

وقوله من سورة البقرة (259):

﴿وانظرْ إلى العظامِ كيفَ نُنْشُرُها ثم نَكْسوها لحمًا﴾.

نافع، ابن كثير، أبو عمرو، أبو جعفر، يعقوب (ورقّقَ ورش راءه).

﴿وانظرْ إلى العظامِ كيفَ نُنْشِزُها ثم نَكْسوها لحمًا﴾ الباقون.

ومن خلال الأمثلة السابقة ظهر لنا ضبط التلاوة على الرسم العثماني وموافقتها للسان بعد أن تحقق بها الشرط الأساسي الذي هو تتابع التلاوة سماعًا وتلقيًا.

ومن الأدلة على أن سماع التلاوة هي الأصل وليس الرسم، طريقة تلاوة الأحرف في بداية السور، مثل (كهيعص) لم يتلوها أحد كلمة واحدة، ولم يلفظ أحد صوت الحرف فقط أي: ك، هـ، ي، ع، ص، وإنما اتفق الجميع على أن طريقة لفظها هي بأسماء الأحرف، أي: كاف، هاء، ياء، عين، صاد، وذلك لتلقيها سماعيًّا بشكل متتابع في الأمة.

وظهر لنا أيضًا أن اختلاف التلاوات ليس هو اختلاف تضاد أو تناقض إنما هو اختلاف تنوع وتغاير يُعطي للنص بُعْدًا جديدًا كامنًا في التلاوة الأخرى مع إمكانية الاستغناء عنه دون أن تتأثر التلاوة الأولى بشيء.

شروط صحة تعدد التلاوات للخطاب القرءاني

نزل القرءان ذكر صوتي على قلب الرسول محمد، وتلاه الرسول على الناس فور نزوله حينئذ، وتتابع في الأمة تلاوة وتعبدًا ودراسة دون انقطاع واستمر كذلك، وهو الحجة والبرهان وليس الرسم والخط، وتصوب أي مخطوطة مهما تقادم زمنها على موجب التلاوة الصوتية المتتابعة، وظهر اختلاف التلاوات من مراجعة الوحي للنص القرءاني مع الرسول المستمر والمكرر طوال أعوام نزول النص.

وتعدد التلاوات واختلافها يقوم على عدة أمور لازمة:

1. الاتفاق بالأحكام ونفي الاختلاف.
2. الاتفاق بإثبات الأخبار والأحداث وعدم تناقضها.
3. الاتفاق بالمفاهيم الإيمانية ونفي تناقضها.
4. صواب مضمون النص مع الحالة العلمية مع الواقع.
5. أن يكون الخطاب بلسان عربي مبين.

6. تتابع التلاوة في الأمة دون انقطاع.

هذه الأمور الستة ينبغي أن تتحقق بأي تلاوة للقرءان ليعتد بها، وهذا يعني أن الاختلاف بين التلاوات لا يتجاوز اختلاف تنوع لبعض الألفاظ التي لا تؤثر على ما مر ذكره، وتكون من نوع تسليط الضوء على زاوية مختلفة من الحدث أو الأمر عن زاوية التلاوة الأخرى، وكل تلاوة كامن فيها ما ظهر بالتلاوة الأخرى.

ولذلك كل تلاوة كافية وشافية وحجة بذاتها وللدارس أن يعتمد على أي تلاوة ثابتة متتابعة شاء ويلزم نفسه بها.

كيف نشأت التلاوات؟

بعد ما علمنا أن التلاوات سنة متبعة وليست مبتكرة، يظهر تساؤل وإشكال:

هل تَعَدَّدَ نزول النص القرءاني الواحد بعدد أوجه التلاوات المتعلقة به؟

والجواب عن ذلك هو:

إن النص القرءاني كما هو ثابت في التاريخ قد نزل متفرقًا خلال ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا ﴿وَقرءانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء:106]، وكان النص ذو المتن الصغير ينزل كاملًا على الأغلب، بخلاف النص ذي المتن الكبير فقد كان ينزل على دفعات، ومن يقوم بدراسة كيف نزل النص القرءاني يجد أن النصوص التي نزلت سابقًا كان يُعاد مراجعتها من قبل الوحي مع النبي في العام مرة واحدة.

أما بالنسبة للسور الطويلة فكان عندما يتم نزول بقية الآيات كان الوحي إمَّا أن يُعيد تلاوة النص السابق حتى يصل لمحل الآيات الجديدة فيتلوها بمكانها، أو يُعيد بضع آيات فقط، ثم يتلو الآيات الجديدة على أثرها ليتم ربط الآيات ببعضها وإظهار محلها من السورة.

وهذا ما كان يفعله النبي بعد انتهاء الوحي فقد كان يطلب أحد كتبة الوحي الموجودين حينئذ، ويأمره أن يضع هذه الآيات الجديدة بين آية كذا وآية كذا من سورة كذا، واستمر نزول النص القرءاني على هذا النمط مع استمرار مراجعة كل ما نزل سابقًا من قبل الوحي، وتعهده بالحفظ حتى كان العام الأخير الذي توفِّي فيه النبي، فقد تمت مراجعة النص القرءاني كاملًا مرتين، كما ورد في الخبر التاريخي،

وذلك لضبط وتوثيق النص كاملًا، وهذه التي يُسميها العلماء العرضة الأخيرة للنص القرءاني على النبي.

عن ابن عبّاسٍ، قال: « كان رسول الله أجود النّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، **وكان جبريل يلقاه في كلّ ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرءان**». (البخاري ومسلم).

عن أنس ، عن عائشة، عن فاطمة قالت: قال لي رسول الله : «يَا فَاطِمَةُ، كَانَ جِبْرِيلُ يَأْتِينِي **فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً يُعَارِضُنِي بِالْقُرْءانِ، وَقَدْ أَتَانِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ** ، وَلا أَرَانِي إِلا أُفَارِقُ الدُّنْيَا». فضائل القرءان وتلاوته للرازي.

عن قتادة، عن الحسن: عن سمرة، عن النبي قال: (**عُرض علي القرءان ثلاث عرضات)**. فضائل القرءان وتلاوته للرازي.

فالنص القرءاني لم ينزل مرتين، وإنما نزل مرة واحدة، ولكن عرضه ومراجعته مع النبي تَمَّ مرات ومرات طوال فترة نزول النص، وهذا الأمر يفسر نشوء اختلاف التلاوات، فلقد حصل ذلك أثناء العرض والمراجعة من قبل الوحي، وليس في بدء نزول النص فالتلاوات نشأت في العهد المدني، ولم يكن لها وجود في العهد المكي، وهذا يفسر أيضًا سبب علم مجموعة من الصحابة بتلاوة، ومجموعة أخرى بتلاوة ثانية، لنقرأ:

عن أبي بن كعب أنه قال: « سمعت رجلًا يقرأ في سورة النحل قراءة تخالف قراءتي، ثم سمعت آخر يقرؤها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله فقلت: إني سمعت هذين يقرأان في سورة النحل، فسألتهما من أقرأهما؟ فقالا: رسول الله، فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله إذ خالفتما ما أقرءني رسول الله.

فقال رسول الله لأحدهما: اقرأ؟ فقرأ، فقال النبي: أحسنت، ثم قال للآخر:

اقرأ؟ فقرأ، فقال: أحسنت، قال أُبَي: فوجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى احمَرَّ وجهي، فعرف ذلك رسول الله في وجهي، فضرب يده في صدري، ثم قال: اللهم أخسئ الشيطان عنه، يا أُبَي! أتاني آت من ربي فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرءان على حرف واحد، فقلت: رب خفف عن أمتي، ثم أتاني الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرءان على حرفين، فقلت: رب خفف عن أمتي ثم أتاني الثالثة، فقال مثل ذلك، وقلت مثل ذلك، ثم أتاني الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرءان على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقال : يا رب اللهم اغفر لأمتي يا رب اغفر لأمتي، واخْتَبَأْت الثالثة شفاعة لأمتي يوم القيامة ».

هذا الإسناد نقله ابن كثير في الفضائل: 56–57، وقال: «إسناد صحيح». وأشار إليه الحافظ ابن حجر في الفتح 9: 21.

ومفهوم الأحرف السبعة يُقصد بها تنوع في تلاوة مجموعة من الكلمات، وليس له أي مفهوم باطني، وعرضنا للروايات التاريخية ليس كمصدر ديني أو علمي، وإنما هو من باب الاستشهاد والاستعانة بها لفهم حدث ثابت وهو تعدد التلاوات، ولولا ثبوتها لما تعاملنا مع تلك الروايات، فالواقع هو الذي يحكم تفكيرنا ويوجهه.

ومرد تعدد أو تنوع التلاوات راجع إلى مسألة مراجعة ومدارسة النص القرءاني المتكررة من قبل الوحي، ونتج عن ذلك تتابع كل تلاوة في مجتمع الصحابة. وكون النص القرءاني كان يُكتب فور نزوله فمن الطبيعي أن لا يُكتب أثناء المراجعة والمدارسة له، وهذا يدل على أن الرسم للنص القرءاني لا يحتوي أوجه التلاوات.

وبالتالي بقيت التلاوات وسيلتها الوحيدة والأساسية للنقل هي التلقي سماعًا وحفظ ذلك في الصدور، وبناء على ذلك لم يحتو الرسم العثماني كل أوجه التلاوات التي تم استخدامها في مجتمع النبوة، وإنما احتوى مجموعة منها، وكون هذا الرسم قد تبنته الدولة وقامت بنشره وحفظه وأمرت بإلغاء الأوجه الأخرى للتلاوات

للمصلحة العامة تقلصت التلاوات الأخرى من المجتمع ومنع من تداولها فبقيت تلاوة شخصية لصاحبها؛ مما أدَّى مع الزمن إلى انقراضها أو نقلها عن طريق الآحاد وبقيت التلاوات التي تضمنها الرسم العثماني.

ولذلك وضع العلماء من أحد شروط التلاوة موافقة هذه التلاوة للرسم العثماني؛ لأن الرسم العثماني أخذ صفة التوثيق من الدولة والمجتمع الإسلامي حينئذ، أما التلاوات الأخرى فلقد انقطع تتابعها ولا يمكن إثباتها، فمن هذا الوجه ظهرت التلاوات الآحاد الصحيحة السند والتلاوات الشاذة، ولم يعدها العلماء نصًّا قرءانيًّا، وبالتالي لا يتعاملون معها كذلك، وإنما سمحوا بالتعامل معها كخبر ظني غير مُلزم يُساعد في التفسير والفهم ليس إلا.

اختلاف التلاوات لا يؤثر على الأحكام

أنزل الله عز وجل رسالة واحدة للناس جميعًا دون محاباة لأحد، وبالتالي فهي إنسانية في توجهها، عالمية في حركتها، دائمة في سيرورتها، متطورة في صيرورتها. ولأن القرءان متصف بهذه الصفات فلا شك أن خطابه التشريعي موجه للناس على المستوى نفسه مهما اختلفت التلاوات وتنوعت، فالحكم الشرعي لا يتغيَّر بحق الناس من تلاوة إلى أخرى، خاصة أن كل تلاوة متتابعة للنص القرءاني جامعة مانعة قائمة بذاتها، وهي حجة ملزمة على من ألزم نفسه بها لا يحتاج إلى أية تلاوة أخرى. فما الجديد الذي يُعطيه اختلاف التلاوات وتنوعها في هذا الصدد؟

ولشرح ذلك نضرب مثلًا لتقريب الفكرة: إذا افترضنا أن هذا الوجود (الآفاق والأنفس) لوحة فنية مجسمة في الواقع، وجاء مبدع هذه اللوحة ليتكلم عنها ويصفها وقام بهذا العمل عدة مرات واستخدم في كل مرة أسلوبًا للكلام، فالسامع له في المرة الأولى أخذ حاجته واكتفى، والسامع في المرة الثانية أخذ حاجته واكتفى، وهكذا بالنسبة لكل سامع.

فلو التقى هؤلاء السامعون مع بعضهم وقام كل منهم بإعادة الحديث الذي سمعه من مبدع اللوحة لوجدنا أن اختلاف حديثهم عن بعضهم لا يكون اختلاف تناقض أو تضاد أبدًا؛ لأن المتحدث واحد، ومحل الحديث - اللوحة - واحد، ونجد الاختلاف يكون في عملية تسليط الضوء على أمر مع جعل ظلال على آخر.

وهكذا في الحديث الآخر يتم تسليط الضوء على ما كان تحت الظل وجعل الأمر السابق المسلط عليه الضوء تحت الظل، وفي الحديثين كليهما نجد أن كلًّا منهما يكمن

في مضمونه ما هو ظاهر وصريح في الحديث الآخر، والأمر يحتاج من الباحث لجهد عقلي ليدركه من جراء النظر والتدبر في النص ومحله من الواقع - آفاقًا وأنفسًا -.

إذنْ؛ اختلاف التلاوات لا يؤثر على التفسير أبدًا، وإنما الذي أثر في اختلاف التفسير هو القصور من الباحث على جانب من أبعاد دلالة النص اكتفى به دون دراسة ما تحت الظل الذي جاءت به تلاوة أخرى وسلطت عليه الضوء دون غيره من أبعاد دلالة النص، فاختلاف التلاوات هي عملية لتغطية كامل أبعاد النص وتسليط الضوء على أجزائه.

وما ذكرناه آنفًا ينطبق على آيات التشريع تمامًا، فالحكم الشرعي هو واحد، وكل تلاوة متتابعة للنص القرءاني كامن فيها ما جاء بتلاوة أخرى بشكل صريح وواضح، لذلك كل تلاوة كافية شافية، والأمر يحتاج من الباحث أن ينظر إلى كامل اللوحة ويدرك ما تحت الظلال، مع العلم أن الاختلاف في تلاوة آيات التشريع قليل جدًّا، ولنرَ على ذلك مثلًا:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].

فكلمة (أرجلَكم) تُليت بالنصب، وتُليت بالجر وكلاهما متتابعة. فلو أخذنا حالة النصب فقط كما هي في رواية حفص عن عاصم (وهذه التلاوة يتلو بها معظم البلاد الإسلامية) فلقد ذكر العلماء أن كلمة (أرجلَكم) بالنصب تكون معطوفة على كلمة (أيديَكم)، وبالتالي أخذت حكمها من حيث الغسل، وهذا الأمر واضح وصريح من دلالة النص، أما الدلالة الكامنة في النص فهي مجيء كلمة (أرجلكم) معطوفة بعد

فعل المسح، فلو كان المراد هو الغسل فقط لجاءت بعد فعل الغسل وكونها جاءت بعد فعل المسح؛ مما يدل على تناول فعل المسح للرجلين إضافة لفعل الغسل.

بينما تلاوة الجر لكلمة (أرجلِكم) فقد أرجعها العلماء عطفًا على كلمة (برؤوسِكم) والمعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه، وبالتالي تكون دلالة النص الظاهرة هو مسح الأرجل، أما الدلالة الكامنة في النص فهي أن جملة (وأرجلكم إلى الكعبين) سواء أكانت بالنصب أم بالجر فهي على نمط جملة (وأيديكم إلى المرافق) من حيث تحديدها لمكان الوضوء.

فنلاحظ أن كل تلاوة منهما كافية شافية، وأن كلًّا منهما يكمن فيها ما جاء بالأخرى في الظل، فالحكم عند الدراسة الوافية للموضوع سواء تمَّ الاعتماد على تلاوة النصب أم الجر لكلمة (أرجلكم) يكون واحدًا لا خلاف بينهما أبدًا، وإذا حصل خلاف فمرده إلى قصور الباحث وعدم إمكانية رؤية أبعاد دلالة النص كاملًا.

ولنرَ مثلًا آخر: قال تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ..﴾ [البقرة: 222].

بتسكين الطاء. تلاوة عاصم ونافع وغيرهم.

وفي تلاوة أخرى (يَطَّهَرْنَ) بتشديد الطاء. قراءة حمزة و الكسائي وغيرهم.

وتتمة الآية ﴿... فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].

فالنص واضح وصريح وكل تلاوة منهما كافية شافية، كما قال النبي: «نزل القرءان على سبعة أحرف، كلّها شاف كاف، فاقرؤوا كيف شئتم» (أخرجه أحمد والهيثمي وصححه الألباني)، فالمقصد مسلط عليه الضوء في تتمة النص، وذلك بقوله تعالى:

(فإذا تطهرن)، والفعل راجع إلى المرأة ذاتها فلا يمكن أن تعرف المرأة أنها طَهُرَتْ إلا إذا تتبعت أثر الدم بخرقة أو نحوها وتغسل مكانه أو تمسحه.

وهذا هو الحد الأدنى لعملية التطهير من الحيض، فإذا تمَّ التأكد من الطهارة أبيح للرجل ما نُهِيَ عنه سابقًا. وهذا المعنى كامن في النص بالتلاوتين كلتيهما.

وهكذا نتعامل مع كل نصوص التشريع التي لها أكثر من تلاوة، ومن هذا الوجه وصف النبي الأعظم التلاوات بأن كل تلاوة وحدها كافية شافية قائمة بنفسها مستغنية عن غيرها من التلاوات، والحفظ الإلهي مستمر للنص القرءاني[15] يظهر في كل زمن بأرقى ما فيه من تقنية وأدوات معرفية حتى وصل في زمننا إلى درجة عظيمة لم تكن تخطر ببال إنسان في السابق.

فقد أصبح النص القرءاني محفوظًا في الأثير بواسطة الأتمتة الإلكترونية التي وصل إليها الإنسان، والحفظ ما زال مستمرًا يومًا بعد يوم، لذلك ذكرنا سابقًا أن النص القرءاني فوق النقد والنقض، وقد تجاوز منذ زمن نزوله أية محاولة لاختراقه، والاستحالة مستمرة مع الزمن تتناسب طردًا مع الأدوات المعرفية لكل مجتمع.

وتتمة الآية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

15 الحفظ الإلهي للنص القرءاني يتحقق في الواقع كحد أدنى بحفظ تلاوة واحدة للنص القرءاني؛ لأنَّ كل تلاوة كافية شافية، فما بالك بعشرة أوجه للتلاوات!

رد على أسئلة تتعلق باختلاف التلاوات ومشروعيتها

كتب صديقي «كمال أحمد» منشورًا يتضمن مجموعة أسئلة مشروعة في موضوع التلاوات واختلافها ومشروعية وجودها من الأصل.

وسوف أقوم بالرد عليها تحت كل سؤال وأضع حرف جيم للدلالة على الجواب.

كمال أحمد:

إن مسألة القراءات أو التلاوات كما يحلو للبعض تسميتها من أهم المسائل التي تؤرق الباحث في علوم القرءان الكريم وهي منطقة تسبب للكثير الارتباك وأنا شخصيًّا منهم .

والقرءان قد انفرد بتلك الخاصية خلافًا لكل الكتب المقدسة الأخرى، فلن تجد عدة نسخ مختلفة من التوراة أو الدامابادا أو المهابهارتا أو غيرهم على حد علمي.

ويوجد العديد من الأسئلة التي تلوح في الأفق عند الخوض في تلك المسألة الشائكة. ونود طرح تلك الأسئلة هنا في المنتدى للرد عليها.

ج- قولك: (والقرءان قد انفرد بتلك الخاصية خلافًا لكل الكتب المقدسة الأخرى، فلن تجد عدة نسخ مختلفة من التوراة أو الدامابادا أو المهابهارتا أو غيرهم على حد علمي).

هذا كلام غير صواب، فمعروف اختلاف نسخ الإنجيل عن بعضها وعددها المهول، غير النسخ المستبعدة، وكذلك الاختلاف في نسخ التوراة، والاختلاف بينها تجاوز تعدد التلاوات إلى تغيُّر المواضيع والمضمون لدرجة التناقض.

واعلم يا صديقي

أن الكتب السابقة لم تصغ بلسان عربي مبين، ولم يتم حفظ المبنى لها كنص لساني، بينما القرءان تميز عن كل الكتب السابقة المنسوبة للسماء بأنه تم صياغته بلسان عربي مبين، وتم الاعتناء بحفظ المبنى وطريقة تلاوته، وتتابع ذلك في الأمة كظاهرة ثقافية اجتماعية دينية، ولا يوجد تعدد في نسخه قط، إنما هو نسخة واحدة محل اتفاق بين الجميع عليها مع اختلاف جزئي في مجموعة تلاوة بعض الكلمات أو صياغتها لسانيًّا أو طريقة تشكيلها أو وجود بعض الضمائر في تلاوة وغيابها في تلاوة أخرى.

وكل هذا لا يؤثر في مفاهيم القرءان الدِّينية أو أحكامه أو أخبار قصصه أو النصوص الكونية، فلا يوجد بين التلاوات أي تناقض أو تضاد، وإنما تجد تنوع في تسليط الضوء على بعض الزوايا من الحدث في تلاوة بينما تجد في تلاوة أخرى تسلط الضوء على زاوية أخرى، وكل الزوايا كامنة في النصوص لمن يقرأ بوعي وتدبر.

1- ما هي القراءات ولماذا وُجدت بالأساس وكيف وما هي التسمية الأصح (القراءات أم التلاوات)؟

ج- الاسم الصواب هو التلاوات، وليس القراءات رغم شيوعه، وذلك للفرق بين فعل (تلا) الذي يدل على التتالي للأمور وراء بعضها، وفعل (قرأ) الذي يدل على التفكير والتحليل والتركيب والتدبر، ولا يشترط للقراءة أن تكون من الصحف، فيمكن أن تتعلق بالكون ذاته أو أي جزء منه.

- التلاوات هي وجود اختلاف في نقل تلاوة مجموعة من الكلمات أو الضمائر أو

طريقة التشكيل بشكل محدد ومحصور في النص القرءاني ذاته، ولا يوجد تعدد نسخ للنص القرءاني.

- وجود هذه التلاوات المحددة والمعروفة كان من طريقة النقل والثبوت لها تلاوة صوتية إلى النبي متتابعة في الأمة كظاهرة ثقافية دينية، ووجود الشيء وثبوته قطعًا هو برهان على صواب وجوده كمادة أو حدث، فالتلاوات ليست اجتهادًا إنسانيًّا ولا نتيجة اختلاف اللهجات، أو ظهرت من احتمال تلاوة الكلمات في النص المخطوط دون تنقيط؛ لأن اختلاف التلاوات تم نقله تلاوة صوتية وتتابع كذلك، ولم تظهر التلاوات من الخط واحتماله، ولذلك ينبغي أن يُصحح أي مخطوط على موجب التلاوة الصوتية المتتابعة في الأمة.

- وطالما التلاوات ثابتة في ذاكرة الأمة الحفظية وتمارسها تلاوة صوتية في ثقافتها وعبادتها بشكل متتابع دون انقطاع، فهذا يدل على صواب نسبة التلاوات للنبي ذاته وهو الذي تلاها على الناس في زمنه ومجتمعه وعنه تتابعت وانتقلت، وهذا يدل على أن مسألة ثبوت التلاوات أمر لا يمكن نفيه لحصوله بشكل قطعي في تاريخ الأمة.

- وكل تلاوة منها كاف وشاف وحجة بذاتها ومحفوظة، وتُغني عن غيرها لانتفاء وجود التناقض أو التضاد بينها، ونشأت التلاوات حسب طريقة نزول النص القرءاني مفرقًا خلال ثلاثة وعشرين عامًا، وكلما كان ينزل سورة أو مجموعة من الآيات يتم إعادة تلاوة جزء سابق من النص القرءاني من قبل الوحي حتى يتم ربط اللاحق بالسابق وترتب النصوص ضمن السورة الواحدة، خاصة إن كانت من السور الطوال، غير مراجعة الوحي للنص القرءاني تلاوة مع النبي لما نزل سابقًا خلال العام كله.

فبهذه الأحداث كان يتم نزول اختلاف تلاوة بعض الكلمات اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد أو تناقض، وبسبب هذا الحدث كان يوجد مجموعة من الصحابة

يسمعون التلاوة التي نزلت بداية، ويوجد مجموعة أخرى يسمعون التلاوة الجديدة لبعض الكلمات وتتابعت في المجتمع كذلك مع إقرار النبي لها، ولا يوجد تلاوة أشد ثبوتًا من أخرى، فكل التلاوات الثابتة متتابعة في الأمة وانتشرت في الأمصار، وربما انتشرت تلاوة أكثر من أخرى حسب اختلاف المهتمين بها في بلادهم، ونسبت مع الزمن كاسم لمن يقوم بتعليم الناس التلاوة للتميز بين التلاوات.

- سبب وجود التلاوات هو لتسليط الضوء على أمر كامن في الظل في تلاوة أخرى والعكس، ويستطيع المتدبر والذي ينظر للأمر من عدة زوايا ويوسع رؤيته أن يعلم الأمر في التلاوة الأخرى الموجود في الظل، والأمر أشبه بمسرح يُسلط الضوء على جزء منه مع عدم انتفاء الأجزاء الأخرى، والمشاهد الذكي يدرك وجود الأجزاء الأخرى في الظل، ولذلك كل تلاوة كافية وشافية وقائمة بذاتها لا تحتاج إلى غيرها.

2- كم عدد تلك القراءات.؟

ج- عدد التلاوات الثابتة في الأمة قد تصل إلى أربع عشرة تلاوة، وحفظ النص القرءاني يتم بالحد الأدنى بحفظ تلاوة واحدة، ويستطيع المسلم والباحث أن يعتمد في أمور دينه أو دراسته على أي تلاوة ثابتة متتابعة في الأمة ويُلزم نفسه بها دون نكير على غيره في حال اختار تلاوة أخرى.

3- هل الاختلافات بين هذه القراءات اختلاف جذري يغيِّر في بنية الآيات وهدفها وغايتها.؟

ج- الاختلاف بين التلاوات هو شيء يسير جدًّا لدرجة أنه قد لا ينتبه له القارئ العادي، وهو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد أو تناقض، فالحرام حرام في كل التلاوات، والحلال كذلك، والخبر المنفي منفي في كل التلاوات، والثابت ثابت في جميعها.

4-هل هناك قراءة واحد أصح وما هو المعيار الذي نحدد من خلاله تلك المسألة؟

ج- لا يوجد تلاوة ثابتة ومتتابعة في الأمة هي أصح من غيرها، فلو كان الأمر كذلك لكانت التلاوة الأخرى درجة ثانية وينتفي عنها المصدرية الربانية، واختيار تلاوة حفص ممن يهتم بالدراسات العددية دون غيرها إنما هو لقبولها نظريتهم العددية، وعدم قبول النظرية العددية في التلاوات الأخرى لا ينفي صحتها أو قوة ثبوتها.

5- قال الإمام ابن الجزري: يرجع اختلاف القراءات إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها، ثم ذكر الخلافات فقال:

1. إما في الحركات بلا تغيُّر في المعنى والصورة: مثل (البُخْل)، و(البَخَل).
2. أو بتغير في المعنى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: 37].
(فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ)
3. وإما في الحروف بتغيُّر المعنى لا الصورة مثل: (تبلوا)، و(تتلوا).
4. وإما في الحروف بتغير الصورة لا المعنى مثل: (بسطة)، و(بصطة) و(السراط) و(الصراط).
5. أو بتغيُّرهما نحو: (أشد منكم)، و(منهم) و(يأْتَلِ) و(يَتَأَلَّ).
6. وإما في التقديم والتأخير، نحو ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:111]، أو (فيُقْتَلُونَ ويَقْتُلُونَ).
7. أو في الزيادة والنقصان، نحو: (أوصى) و(وصى)..

« فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها، وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام، والروم والإشمام، والتفخيم والترقيق، والمد والقصر، والإمالة والفتح، والتحقيق والتسهيل، والإبدال والنقل مما يعبر عنه بالأصول، فهذا ليس من الاختلاف الذي

يتنوع فيه اللفظ والمعنى؛ لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظًا واحدًا...» ا.هـ (النشر: 1 / 32).

ج- قول الإمام ابن الجزري صواب في عمومه، وهذا يدل على أن الاختلاف بين التلاوات هو اختلاف تنوع وجزئي وليس تضادًا ولا تناقضًا ولا كُليًّا، ولا يوجد تعدد في النص القرءاني، وإنما هو نص واحد متماسك منسجم مع بعضه حتى باختلاف تلاوة مجموعة الأجزاء المحدودة، فهذا لا يجعلها نصًّا آخر غير النص القرءاني ذاته.

- **يتابع صديقي كمال أحمد، ويقول:**

أليس فيما سبق إشكال ما، وسأذكر مثال على ذلك.

بعد مقتل عثمان امتنع أهل الشام عن مبايعة علي بن أبي طالب كخليفة وطالب معاوية بن أبي سفيان والي الشام بالقصاص من قتلة عثمان بصفته سيد بني أمية، فهو ولي المقتول وله المطالبة بدمه وطالبه بتسليم قتلة عثمان من الموالين لعلي مثل عمرو بن الحمق الخزاعي ومحمد بن أبي بكر والأشتر النخعي.. ورفض علي طلبه وطالبه بالبيعة أولًا، ثم لاحقًا تحرك فريق من أهل المدينة ضد علي مطالبين بدم عثمان بقيادة طلحة والزبير وعائشة بعد تأخر علي في تنفيذ القصاص وتمكن القتلة في مواقع القيادة في جيش علي ودارت معركة الجمل، ثم صفين.

وقد كان الذي يحتكم إليه معاوية الآية 33 في سورة الإسراء: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء:33]، ويعني: أن ولي المقتول له سلطة الأخذ بقصاص المقتول دمًا بدم دون المبالغة في القتل، فلا يتمادى بقتل أكثر من لم يشارك باليد في القتل، ولا يقتل الواحد باثنين وأكثر على سبيل المبالغة، وهو ظاهر معنى «فلا يُسرف» أن تنفيذ القتل بيد ولي الدم، وهي قراءة الجمهور من أهل الحجاز والشام والبصرة.

أما أهل الكوفة مقر حكم علي ومعقل الموالين له، وبسبب هذه الآية فقد انفردوا بقراءتها على نحو آخر، فقرؤوها «فلا تُسرف» وهي قراءة عامة قراء الكوفة حمزة والكسائي وخلف والأعمش عدا عاصم فيقرؤها مثل الجمهور.. ووجه الاختلاف عن قراءة الجمهور أنها بتاء المخاطب فتجعل الخطاب للرسول بصفته الحاكم وتجعل له سلطة القتل وتجعل سلطة ولي الدم في المطالبة فقط، وهو ما يعني صحة موقف علي في مقابل دعوى معاوية وأصحاب الجمل.

والخلاصة:

إن الخلاف بين أهل الكوفة والجمهور في قراءة «يُسرف»، و«تُسرف» هي انعكاس لدعاوى الصراع بين علي وأهل الجمل وصفين.

حيث إن قراءة «يُسرف» تجعل لمعاوية المطالبة بدم عثمان وسلطة تنفيذ القتل مباشرة.

وعلى قراءة أهل الكوفة «تُسرف» يكون لولي الدم سلطة المطالبة فقط، أما التنفيذ بيد ولي الأمر وهو علي بن أبي طالب.

وهكذا تكون لعبت السياسة دور في اختيار القراءة وتطويعها للمصلحة الطائفية. وهناك أمثلة أخرى لا تخلو كذلك من هذا التلاعب.

ج- صديقي كمال المحترم

ثبوت التلاوات أمر مفروغ منه قبل نشوء النزاع بين علي ومعاوية، ولا علاقة لهما بالتلاوات، والنزاع سياسي بينهما كما هو معروف وبصرف النظر عن صاحب الحق منهما، ألا تلاحظ يا صديقي أن النص الأول: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾[الإسراء: 33]، كلمة (لا يسرف في القتل) لا تعني أن ولي أمر المقتول له

سلطة تنفيذية في القتل، وإنما تعني أن لا يطالب بقتل غير القاتل، وذلك لأن الشرع جعل له سلطان بمعنى قانون حق يقوم بالمطالبة من خلاله بتنفيذ عقوبة القتل من قبل السلطة القضائية، ولا يعني ولا بأي شكل أن يملك ولي أمر المقتول سلطة تنفذ عقوبة القتل بالقاتل من تلقاء نفسه.

أما النص الآخر بالتلاوة المختلفة في التشكيل (ولا تُسرف) فهي واضحة في خطابها للحاكم (القاضي) أن لا يقتل إلا من ثبت عليه القتل ولا يأخذ أحد بجريرة غيره، وهذا يعني أن القتل لا ينفذه ولي أمر المقتول وإنما يُنفذ القتل بحكم القاضي فقط.

ألا ترى أن المعنى في تلاوة (لا يسرف) تخاطب ولي أمر المقتول وأن يتقيد بحكم القاضي والحجة معه بقوة القانون وسوف ينصره، وهذا المعنى كامن في تلاوة (لا تُسرف) الذي هو خطاب للقاضي نفسه بأن يتقيد بالقانون ولا يقتل إلا القاتل؟

هذا المثل والفهم هو دلالة كلمة اختلاف تنوُّع، وليس اختلاف تضاد ولا تناقض، وكل تلاوة حجة بذاتها ومستغنية عن غيرها، ولا يصح عد هذا الاختلاف في تلاوة الكلمتين تحريف أو تناقض أو تضاد، وبشرط أن تكون التلاوة متتابعة في الأمة، وليس من استنتاج الناس الاحتمالي.

واعلم يا صديقي

أن ما سبق ذكره من تتابع التلاوات في الأمة هو برهان على ثبوت التلاوة للنبي نفسه وليس لله، يعني: ثبوت تاريخي وليس ثبوت مصدرية النص القرءاني لله، فهذا أمر آخر، وله طريقة في الدراسة لا علاقة لها بالتاريخ، ومطلوب من كل مجتمع أن يتفاعل مع النص القرءاني، ويؤمن به بنفسه وفق علمه ومعطيات زمنه.

الرد على من قال: إن السريانية أصل لدراسة القرءان

يمارس بعضهم دجل وتحريف وخداع البسطاء بحجة أن فلان الدكتور الباحث البروفسور المستشرق الألماني (لوكسمبرغ) في كتابه (القراءة الآرامية السريانية للقرءان) قال:

الحور العين كلمة أصلها سرياني وليس عربي، ومعناها (العنب الأبيض). في المسيحية تقول: (و روّحناهم بحور عين) أي: أعطيناهم العنب الأبيض لإراحة أنفسهم، لكن كانت الكلمات غير مُنقطة، وعندما أدخلت النقط، وضع المسلمون عليها نقطة وصاروا يقرؤونها (و زوجناهم بحور عين).

والسؤال للبروفسور ومن يتبعه من المصفقين المسلمين وغيرهم:

كيف كان النبي يتلوها في حياته على الناس؟ وكيف تلاها المجتمع الأول من الصحابة وانتقلت عنهم تتابعًا تلاوة ودراسة وحفظًا وتعبدًا قبل التنقيط؟

نزل القرءان بلسان عربي مبين ذكر صوتي على قلب الرسول محمد وقام هو بتلاوته على الناس بصوته وحفظوه تلاوة ونقلوه كما سمعوه ذكرًا صوتيًّا، فالحجة بالنقل الصوتي للتلاوة وليس بالرسم والخط الاصطلاحي الاعتباطي، ويُصحح أي مخطوط مهما تقادم في زمنه ولو وصل إلى زمن النبي نفسه بناء على التلاوة الصوتية المعتبرة والمتتابعة في الأمة.

ولم ينزل القرءان بلسان آرامي أو سرياني أو عبراني...!

ولا يوجد في القرءان أي كلمة غير عربية ولو كانت مستخدمة في أي لسان فهذا يدل على عربيتها وليس العكس.

واعلم أن هذه الألسنة أو اللهجات (الآرامية والسريانية والعبرانية والكلدانية..) هي نواة للسان العربي نما في رحمها وتطور وصار عربيًّا، وعندما نزل القرءان استخدم اللسان العربي ولكن بشكل مبين، فانفرد عن جميع الألسن بنظامه حتى عن اللسان العربي السائد، فصار له لسانه الخاص ونظامه، وهذا يعني أن مفاتيح دراسته وفهمه تكمن في داخله وفي محل تعلق الخطاب من الواقع فهو القاموس له.

والأصوات العربية لها مفهوم فيزيائي كوني وليس معاني، ويظهر معناها حين تركيبها مع أصوات أخرى فيظهر المعنى بالكلمة ويحدد من خلال الاستخدام لها في جملة تامة المعنى.

لذلك؛ لا يصح جعل اللسان السرياني أو غيره أصل ومرجع لدراسة اللسان القرءاني، لأن هذا انتكاس من الأعلى إلى الأدنى.

والقاعدة هي:

الكلمة في اللسان العربي لها مفهوم واحد فيزيائي ثابت يحكم تحرك المعنى للكلمة حين الاستخدام وتعلقها بالواقع.

وأصوات اللسان العربي هي 28 صوتًا مع صوت الألف بنوعيها الهمزة والهمزة الممدودة (أ – آ)، وهي موجودة قبل رسمها وخطها بفترة طويلة جدًّا، لذلك لا قيمة علمية لقول أحدهم: إن السين والشين هما حرف واحد قبل التنقيط، وكذلك الفاء والقاف، فالقيمة والذي عليه الاعتماد هو الصوت وليس الخط، وأكيد صوت السين غير صوت الشين [16]!

16 يرجى مراجعة كتابي (علمية اللسان العربي) للتوسع في هذا الموضوع.

وجمع النص القرءاني كتابة بشكل مخطوط في زمن النبي بحضرته في حجرته على ألواح ورقاع، ولكن هذه النسخة المخطوطة لم يعتد بها في زمن أبي بكر لانتشار النص القرءاني في الأمة واستغنائهم عنها، إضافة لعوامل سياسية وخلاف بين علي وأبي بكر على الرئاسة، وبقيت النسخة عند علي وحرقها في زمن عثمان طاعة له.

فأول نسخة مخطوطة بشكل رسمي موثق من قبل الدولة هي نسخة أبي بكر التي كتبت باقتراح من عمر، وجمعت من الأمة بعد وفاة النبي بعام تقريبًا، وحصل عليها اتفاق أو لم يعرف أنه أنكرها أحد أو رفض منها شيئًا، وبقيت في عهدة أبي بكر وانتقلت بعد وفاته إلى دولة عمر، واحتفظ بها إلى أن توفِّي وانتقلت إلى ابنته حفصة وبقيت عندها لزمن عثمان وطلبها منها لينقل عنها النسخ التي كتبها ووزعها بالأمصار.

فصارت النسخة الأولى عدة نسخ موثقة من قبل ثلاثة رؤساء، وعند وصولها إلى الأمصار تم نسخها عشرات النسخ وإنزالها للأمة في كل مصر وصلت إليه، فصارت نسخة الدولة نسخة شعبية انتشرت بين الأمة، وأرجع عثمان النسخة البكرية لحفصة، واحتفظت بها إلى عهد مروان بن الحكم، وكان واليًا على المدينة في زمن معاوية، فطلب النسخة منها، فرفضت أن تعطيه النسخة.

وعندما توفيت طلبها مروان من أخيها عبد الله فأعطاه النسخة فنشر صحفها على الناس ليروها، ويتأكدوا أنها طبق الـأصل عن النسخ التي بين أيديهم ومطابقة لما يحفظون، وحرقها ليجعل كل النسخ التي نُقلت عنها أصلية كما ورد في الرواية التاريخية، وبالتالي لا يصل أحد إلى النسخة الأولى فيحرفها ويطعن بكل ما نسخ عنها فيما بعد.

وكل هذا إضافة للحفظ في الصدور المتتابع الذي لم ينقطع في الأمة، فوصل النص القرءاني إلى درجة توثيقية عالية جدًّا استحال معها تحريف النص كمبنى، وصار أصح وثيقة تاريخية، ولا يجادل بذلك إلَّا كل جاهل أو مكابر أو ضال.

موقف المسلم من النص القرءاني

عندما يتعامل الإنسان مع الوجود فهو أمام ثلاثة مواقف لا رابع لها:

الأول: أن يقف موقف المتفرج ويستسلم للحدث.

الثاني: يلجأ إلى الآباء والكهنة والخرافة ليفسروا له سبب حصول الحدث ويسلم لهم بذلك.

الثالث: يدرس الحدث وسيرورته وصيرورته، ويحاول أن يكتشف كيف حصل، وما هي السنن التي تحكم حركته ليسخره ويفهم الوجود على موجبه.

وهذا الموقف الثالث يقوم على محور الثابت والمتغيِّر، ويتنامى بشكل دائم ويُحَدِّث ذاته وفق المعطيات والتطور الأدواتي العلمي، ويكون أغلب معلوماته ظنية نسبية قريبة للصواب قابلة للتعديل والتحديث.

ولا يخرج إنسان أو قوم من هذه المواقف الثلاثة، مثلًا، لنرَ موقف الناس من مرض السرطان:

الصنف الأول يقف موقف العاجز ويستسلم للمرض والموت لاحقًا.

الصنف الثاني: يلجأ إلى الكهنة والآباء والخرافة لخوفه وشعوره بالمرض والخطر ويريد النجاة، والنتيجة هي الضلال والضياع والهلاك أيضًا، وخسارة المال والجهد والحياة.

الصنف الثالث: يتجه نحو العلم ويبحث عن العلاج المُجدي رغم علمه أن الدواء هو ظني وليس قطعيًّا، ومع ذلك يثق به ويتعامل معه، وقد ينجح حالات

كثيرة في الشفاء، وما يزال العلم يتقدم ويتنامى ويُحدِّث دراسته وفهمه.

فالمريض أمام ثلاثة مواقف: إما العجز والاستسلام له، أو اللجوء للكهنة والتراث والخرافة، أو اللجوء إلى العلم ولو كان نسبيًّا وظنيًّا. والعاقل الراشد يلجأ إلى العلم لا مفر له؛ لأنه الموقف الوحيد الصواب ولا خيار له إلا ذلك أو العجز والخرافة.

وكذلك من يريد دراسة القرءان فهو أمام ثلاثة مواقف:

الأول: يقف من النصوص موقف سطحي على ظاهرها، ويبقى يكرر لفظها تلاوة ويرفض أي محاولة لفهمها تخالف السطحية والشائع.

الثاني: يرجع للتراث والآباء ويتبنى موقفهم وتفسيرهم دون دراسة ويحارب به ويرفض أي فهم ودراسة جديدة خلاف المألوف والمعروف تراثًا، فهو من حيث النتيجة مثل الموقف الأول.

الثالث: يتفاعل مع النص القرءاني ويحاول أن يفهمه وفق منهج قرءاني علمي واقعي ويخرج بنتيجة ظنية قريبة للصواب من حيث الواقع والمفهوم المنطقي واللساني، وهو فهم قابل للتحديث والتطوير ويصلح نقطة ارتكاز للدراسة، ولا يوجد أمام الباحث القرءاني إلا تبني الموقف الثالث، ولو يقوم على غلبة الظن، ولكن يصلح للدراسة والتطور والتحديث والاعتماد عليه بخلاف الموقفين السابقين فهما موقف العجز والخرافة والآبائية، ولا يصلحان للبناء عليهما وتطويرهما قط.

فاختر حضرتك الموقف الذي تشاء وتتبناه، ولكن إن اخترت الموقفين الأولين، فلا تناقش أحد ولا تعترض على أي دراسة، واحتفظ بموقفك لنفسك لعدم صلاحية الرأيين للنقاش والدراسة، وغياب العقل والعلم عن موقفك!

مدخل لفهم القرءان الكريم

نزل القرءان بلسان عربي مبين ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[النحل: 103]، ونزل ذكرًا صوتيًّا على قلب الرسول محمد، وقام هو بتلاوته على الناس بصوته وحفظوه تلاوة ونقلوه كما سمعوه ذكرًا صوتيًا، ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة:97].

فالحجة بالنقل الصوتي للتلاوة وليس بالرسم والخط الاصطلاحي الاعتباطي، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:151]، ويُصَحَّح أي مخطوط مهما تقادم في زمنه، ولو وصل إلى زمن النبي نفسه بناء على التلاوة الصوتية المعتبرة والمتتابعة في الأمة.

والنبي قارئ وكاتب، ولكن لا يُحسن تلاوة الخط ولا يخطه﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48].

وقام النبي بتلاوة الكتاب الإلهي الذي نزل عليه من قلبه على مسمع الناس وحفظوه، ونزل الأمر به بفعل (اقرأ) وهو تحت متناول كل الناس﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق:1]، والقراءة فعل يتعلق بالدراسة والتفكير في صفحات الكون وكلماته، ويكون ذلك من خلال السير في الأرض، والنظر كيف بدأ الخلق﴿قُلْ

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[العنكبوت:20]، وفعل القراءة يستجلب الزيادة والسعة والرحمة والتسخير﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾[العلق:3]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ القرءان فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:204].

وتدبر الفكرة أو المفهوم من القرءان لا يكون إلا من خلال السياق وإسقاط المفهوم على محله من الخطاب واستحضار المنظومة التي ينتمي إليها النص، ولا يصح الاكتفاء بشرح المفردات أو دراسة اللفظ فقط، انظروا مثلًا:

كلمة (أَهْلَكَ) نلفظها في نصين مختلفين باللفظ ذاته والرسم لها واحد والمعنى مختلف بينهما.

1- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾[النجم:50].

2- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾[طه:132].

نلاحظ أن كلمة (أَهْلَكَ) في النص الأول حسب السياق ومحل الخطاب من الهلاك وجذرها (هَلَكَ).

بينما في النص الثاني نلاحظ كلمة (أَهْلَكَ) حسب السياق ومحل الخطاب من الأهل وجذرها (أهل).

فالحكم للسياق ومحل الخطاب، وليس للفظ المجرد والرسم الحرفي.

ولمعرفة مواضيع الكتاب الإلهي نتصفح مواضيع سوره، فنجد أن الكتاب ليس هو مجرد كتاب ديني فقط، فالدِّين لا يتجاوز مواضيعه في الكتاب عشرة بالمئة على أكبر تقدير بكل مواضيع الدِّين الإيمانية والشرعية والأخلاقية والقيمية؛ مما يدل على أن الكتاب الإلهي أكبر من الدِّين فهو يحتوي مواضيع محورية تاريخية للجنس

الإنساني ومراحل خلق الجنس البشري ومواضيع معرفية وكونية واجتماعية ونفسية وروحية وفلسفية...إلخ.

ودراسة هذه المواضيع ليست دراسة دينية، وإنما دراسة علمية والاختلاف فيها هو اختلاف علم ورأي، وليس اختلافًا دينيًّا، ولا علاقة للإيمان بها أو الكفر، كما أنها لا علاقة لها بمن يسمون أنفسهم رجال دين، فهذه المواضيع لها علماؤها وليسوا هم خريجي الأزهر أو كليات الشريعة!

وعلى سبيل المثال انظروا لقواعد تدبر القصص القرءاني:

1. دراسة القصص للعبرة والتدبر والعلم بحركة التاريخ واكتشاف السنن التي تحكمه.
2. القصص (التاريخ) ليس مصدرًا تشريعيًّا.
3. دراسة القصص يمكن أن تكون من البُعد الماضي والمستقبلي.
4. دراسة القصص يمكن تكون بشكل رمزي.
5. نصوص القصص الحواري هي نقل الحدث أو الحوار، كما حصل على لسان أصحابه، ولا يعني أن يكون ذلك حقًّا أو صوابًا.
6. دراسة نصوص القصص تحتمل أكثر من معنى وفق المفهوم اللساني والمنطقي وهو تعدُّد تنوُّع وليس تعددَ تناقض.
7. لا تقوم القصص بمنطق التشريع.
8. لا يصح قياس الشاهد على الغائب.
9. فهم القصص نسبي متحرك متشابه.
10. محاولة إسقاط القصص على محلها من الخطاب.

11. القصص القرءاني هي المراحل المهمة لتاريخ الجنس البشري كخلق وثقافة إنسانية اجتماعية التي تشكل ذاكرته التاريخية.

12. الاختلاف بفهم القصص القرءاني أو إنكار ظاهرها أو التوقف عن دراستها أو محاولة تدبرها منطقيًّا...إلخ، لا علاقة له بالدِّين والإيمان أو الكفر.

ومن أسلوب القرءان عدم تشريع ما هو تحصيل حاصل، مثل أن الحرية حق للإنسان وهي شيء مقدس، مع العلم عدم ذكر الحرية صراحة ولفظًا في القرءان، وهذا لأن الحرية هي حاجة نفسية ملحة مثل حاجة الإنسان إلى الكرامة، فهما غير محتاجان إلى نص أو أن يذكرهما المشرع؛ لأنهما تحصيل حاصل فالإنسان يولد حرًّا كريمًا، والمجتمع الظالم يجعله عبدًا ذليلًا.

ومثل ذلك كمثل حاجة الإنسان إلى الهواء والماء، فلا حاجة لنزول نص تشريعي يوجب على الإنسان أن يتنفس، رغم أن التنفس عملية ضرورية لحياة الإنسان، ولكن هي تحصيل حاصل فالإنسان لا ينتظر نصًّا إلهيًّا ليتنفس أو يذكره بذلك، ولو نزل نص إلهي بذلك لكان عبثًا ومهزلة ومثار للضحك والسخرية.

ومسألة حرية الإنسان كذلك فهي حاجة له معلومة فطرة مثل حاجته للتنفس، فلا حاجة لبرهان عليها أو نزول نص إلهي يوجب قداستها، مع العلم أن الله حرَّم الظلم والعدوان بنصوص كثيرة، ولا شك أن استعباد الإنسان وقمع حريته هو ظلم عظيم، كما أن الخطاب القرءاني كله موجه لإنسان عاقل حر، ولو لم يكن حرًّا لما صح تعلق الخطاب به، فالقرءان كله برهان على حرية الإنسان.

تعريف مختصر بمنهج دراسة القرءان ككل

إن الحكم إلا لله، وقد أمر أن نتبع القرءان ولا نشرك معه شيئًا، وتعهد الله بحفظ كتابه؛ لأن الحساب سوف يتم على موجبه، فنزلت نصوص الأحكام محكمة غير متشابهة، وذلك من تمام الحكمة والرحمة الإلهية، وكتاب الله بجانبه الرسالي هو مصدر رئيس لدستور الدولة وليس نهائيًّا، وذلك حينما يكون ثقافة عامة للمجتمع، ونتعامل مع الرسالة الإلهية وفق مفهوم المقاصد والعواقب.

ونزل الكتاب بلسان عربي مبين خاليًا من الترادف أو المجاز التي هي صفات للشعر وكلام الناس ضرورة لقصورهم، وذلك لأن الخطاب القرءاني يقوم على الحق والصدق وليس على العبث أو الحشو أو اللهو، فكل كلمة في الخطاب القرءاني لها مفهوم لساني ثابت ومعانٍ متعددة تظهر من خلال استخدام المتكلم وفق سياق كلامه ومحل تعلق خطابه من الواقع، والقرءان منظومة واحدة يحتوي منظومات تابعة لها ومنسجمة معها.

ولا يصح فهم أي كلمة أو نص أو تشكيل مفهوم بمعزل عن منظومته والمنظومة العامة التي تقوم على منظومة أسماء الله الحسنى.

وقد أمرنا الله أن نكون حنفاء في دراستنا وتفكيرنا بالقرءان والواقع، وكلمة حنيف تدل على التحديث والتحرك الدائم نحو الحق أو الصواب وفق المحور الثابت، وحض القرءان على استخدام وظيفة التعقل والتفكير وجعلهما دليل ومعيار وميزان للفهم والتمييز وفق منطق علمي كوني، وجعل علاقة المسلمين بالله وليس بالبشر كائنًا من كانوا.

لذلك لا نجد في القرءان ذكر أمر طاعة للنبي أو لمحمد، كما أننا لا نجد ذكرًا لكلمة سنة أو حديث أضيفت للنبي أو محمد، وإنما السنة سنة الله، والحديث حديث الله، والأمر بالطاعة تعلق بالله ورسوله متصلًا أو منفصلًا، وأتى حكم الصلاة في القرءان وهيئتها العامة وأتى في السنة التفصيل العملي لها، وهي طريقة متتابعة في الأمة دون انقطاع، ولا يوجد سند لها ولا عنعنة، ولا علاقة للحديث بها قط، ولا منية لأحد في نقلها لنا، ولا قيمة لأي سنة تنسب لإنسان، ولو تتابعت إلا إن كان لها أصل قرءاني يُشرعها.

ولا يوجد سنة إلا للصلاة والحج فقط، واقترح النبي مجموعة من الأذكار لنتلوها في الصلاة ليس على وجه الإلزام ولا مانع من تغييرها على ضوء القرءان والذكر والتسبيح والتعظيم لله، والأولى الالتزام بها.

وما صح عن النبي من أحاديث متعلقة بمكارم الأخلاق والقيم والحض على العمل الصالح والبر والإحسان أو تبيين بعض الأحكام إنما هي صدى للقرءان واستنباط منه وتابعة له وكامنة فيه، وتلاوة القرءان أولى منها مع جواز ذكرها، ويستطيع الباحثون العلماء الوصول إليها من القرءان، والنبي محمد معصوم في مقام الرسول كمبلغ وتالٍ للوحي، ومجتهد وعالم ومعلم وداعية في مقام النبوة يصيب ويخطئ.

ولذلك نجد في القرءان دائمًا العتاب والتعليم والأمر بالتقوى يتعلق بمقام النبوة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:1]، وبالتالي صارت نبوة محمد لقومه وأحاديثه هي تفاعله مع القرءان وفق معطيات زمانه واحتياجاته، ورسالته للناس جميعًا تقوم على مقصد الرحمة عمومًا.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ

عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:144].

وعندما نقول: القرءان وكفى، نقصد بهذه المقولة مجال التشريع الدِّيني كمفهوم إيماني أو حكم شرعي أو خبر غيبي، ولا نقصد نفي المصدرية عن غيره في غير مجال الدِّين من العلوم عمومًا، فالقرءان ذاته حض وأمر بالسير في الأرض والدراسة والتعلم، وهذا يجعل الواقع مصدرًا علميًّا وموضعًا للتفكير، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت:20].

وكذلك أمر بدراسة التاريخ للعبرة والعظة والعلم بعواقب الأمور، وهذا يعني أن التاريخ أيضًا مصدر معرفي وعلمي وليس دينيًّا ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:11].

وقولنا: القرءان وكفى كمصدر تشريعي، لا ينفي اتباع السنة المتتابعة التي تتعلق بطريقة الصلاة والحج كونهما طريقة تابعة لحكم شرعي نزل بالقرءان، وهذا يعني نفي صفة المصدرية التشريعية عن السنة، فهي لا تؤسس حُكمًا ولا مفهومًا إيمانيًّا ولا تُثبت خبرًا غيبيًّا، وهي ليست أحاديث، وإنما طريقة عملية تابعة لحكم شرعي قرءاني، فلا يصح ذكرها مع المصدر الشرعي الذي هو القرءان.

قاعدة عامة في أصول الفهم والدراسة للدين وليس للكتاب الإلهي كله

- عندما يتعلق الأمر بالله، فالأصل هو الوحدانية والتنزيه والتعظيم، وإثبات الأسماء الحسنى لله وتفعيلها أثناء دراسة كتابه، وأسماء الله توقيفية وليست استنباطية أو اشتقاقية من الأفعال.
- عندما يتعلق الأمر بحقوق الناس ودمائهم وأعراضهم وأموالهم نتشدد، ولا نقبل إلا ببرهان من القرءان، وبفهم قطعي الدلالة، وفق منهج القرءان واللسان العربي المبين الذي نزل به.
- وعندما يتعلق الأمر بفعل الخير والبر والإحسان نتساهل بالفهم، ونقبل التعدد به طالما أن ذلك يرجع لمصلحة الناس.
- وعندما يتعلق بالطقوس التعبدية، فالأصل بها هو التوقف، ولا نعبد الله إلا بنص، ونتساهل مع كل تطوع تعبدي فردي له أصل قرءاني، مثل صلاة النافلة والصيام في غير رمضان.
- يقوم التشريع في أصله على الرحمة والإنسانية، وهذا يظهر في العقوبات كما يظهر في التشريعات الاجتماعية.
- المقاصد الدِّينية هي المنظار والإطار لدراسة أي جزء من الأحكام الشرعية.

وهذه رؤية عامة قابلة للتوسع والتفصيل والتقعيد لتأسيس كتاب أصول تدبر القرءان وفقه.

مبنى النص القرءاني وحي من الله

نزل النص القرءاني بلسان عربي على قلب الرسول الذي قام بدوره بتلاوة ما نزل عليه على الناس، وليس كما يظن بعض الباحثين من المستشرقين ومن تبعهم من العرب أن الوحي للقرءان كان للمعنى والمفاهيم فقط دون لسان، والرسول يقوم بتأليف نص لساني يتضمن هذه المفاهيم والمقاصد الإلهية، ويتلو ذلك النص الذي ألفه على الناس، ويقصدون من قولهم ذلك نفي المصدرية الربانية عن النص القرءاني، وإثبات أنه من تأليف النبي محمد الذي هو في النهاية بشر مثل باقي البشر.

وكون الأمر كذلك فالنص القرءاني على أقل احتمال من صنع البشر كصياغة لسانية، وبالتالي ممكن اختراقه؛ بل ويعتقدون أنه تم ذلك فعلًا في التاريخ اعتمادًا على روايات موضوعة ومدسوسة وإشكاليات سياسية حدثت.

وبالتالي يجب نفي صفة استمرار صلاحية النص القرءاني كمضمون لانتفاء صواب وحفظ النص لسانًا فضلًا عن أنه من صنع محمد، ولا يمكن لبشر أن يصنع نصًّا مقدسًا تتحقق فيه صفة الاستمرار والصلاحية كمضمون عبر الزمان والمكان، وهذا يقتضي أن النص القرءاني إنما هو نص كسائر النصوص البشرية، وبالتالي فهو من التراث البشري ويجب أن نتعامل معه كما نتعامل مع أي نص من التراث!.

وهذا الكلام باطل في واقع الحال، ومخالف لما قام العلم عليه من حيث إن اللسان أيًّا كان فهو أداة للتواصل بين العقلاء ليتم التفاهم بينهم، ولا يمكن لعاقل أن يتواصل مع آخر دون استخدام لسان إلا بالحد الأدنى، ناهيك عن أن التفكير في

القلب لا يمكن أن يتم إلا من خلال استخدام رموز ومصطلحات يتم على موجبها تمييز المعلومات وتخزينها وربطها، وهذا نظام لساني مهما كان نوعه.

فكيف كان الوحي ينزل على النبي بالمفاهيم والمقاصد دون لسان؟

وكيف استطاع النبي أن يعقل هذه المفاهيم والمقاصد وهو لا يدرك واقعها؟

قد يقول قائل: إن الله على كل شيء قدير، وهذا الجواب مغالطة للحقيقة وتدليس؛ لأن الموضوع متعلق بالنبي محمد، وهو بشر له صفات البشر من حيث المحدودية والضعف والعجز كصفات لازمة له ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: 110].

فينطبق عليه ما ينطبق على البشر، فيتم نقاش الموضوع من وجهة النبي كبشر، وليس من جهة الخالق، وأنه على كل شيء قدير! فالإنسان محدود بصفاته وتحكمه قوانين لا يحيد عنها أبدًا هكذا خلقه الله عز وجل، فعندما يريد الله أن يوحي لخلقه شيئًا فإنه يستخدم القانون الذي وضعه في هذا الخلق. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: 23].

فالنبي بشر لا يستطيع أن يفكر ويتواصل إلا بواسطة لسان وواقع يكون محلًّا له.

ومن المعلوم أن النص القرءاني قد احتوى كثيرًا من الأنباء العلمية التي لم تُعرف إلا في زمننا هذا، فكيف يستطيع النبي أن يصيغ نصًّا يحتوي دلالات ومقاصد لا يعرفها؟

ومن المعلوم أن الذي يصيغ نصًّا ليدل على مقاصد آخر قطعًا يكون قد أحاط بمقاصده ليستطيع أن يصيغ نصًّا يحتوي على دلالات ومقاصد المتكلم، وهذا الأمر

محال بالنسبة لبشر أن يحيط بدلالات ومقاصد الخالق، إذ لو تم ذلك لصار البشر شريكًا مع الله بالعلم على المستوى ذاته.

إذنْ؛ لا تفكير إلا ضمن لسان، ولا تلَّقٍ لأية معلومات إلا بواسطة لسان بصرف النظر عن نوعية اللسان، فمن خلاله يتم تخزين المعلومات واستحضارها وربطها وتطورها واستقراء الجديد، فاللسان هو وعاء للمعرفة والعلوم سواء أكان نظام الكلام بالعيون أم بالإشارة باليد أم الإيماء بالجسم؟إلخ.

والوحي الفكري والتشريعي إذا لم يكن نصًّا لسانيًّا فسيكون وحيًا مناميًّا يعتمد على الصور والرموز نحو وحي النبي إبراهيم عندما رأى نفسه أنه يذبح ابنه إسحاق[17]، إذ قال: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102]. وهذا الوحي الصوري خاص لصاحبه، ولا يكون فكرًا وتشريعًا للناس ولا يصلح نشره على الناس، أو يكون الوحي وحيًا غريزيًّا، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: 68] فهذا الوحي للنحل لم يكن نصًّا لسانيًّا، وإنما كان أمرًا كونيًّا توجه إلى غريزة النحل فانفطرت عليه لتسير بحسبه.

إذنْ؛ الوحي للعاقل في حالة اليقظة والوعي لا يكون إلا ضمن نص لساني حصرًا حتى يتم فهمه من قبل من أوحي إليه، نحو وحي أم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7] بصرف النظر عن الوسيلة التي تم بها الوحي.

أما حفظ مادة الوحي من التحريف والاندثار، فهي مسألة متعلقة بوظيفة النص الموحى من كونه نصًّا عينيًّا مرتبطًا بالزمان والمكان، فهذا لا شك من وقوع التحريف فيه والاندثار، وذلك شيء طبيعي لأن وظيفته منذ البدء مؤقتة وليست دائمة.

ولذا؛ لم يتعهد الله بحفظه وإنما ترك ذلك للناس فوصل منه أمور وغابت أخرى

17 راجع كتابي اليهودية لدراسة موضوع أن إسحاق هو محل رؤية الذبح، وليس النبي إسماعيل.

وتحرفت بعض النصوص، أما إذا كان النص الموحى يتصف بالكمال (وهذا يقتضي أن يتحقق فيه صفة الديمومة والإنسانية والصلاحية) كان منذ البدء يختلف في بنيته ومنظومته عن الوحي السابق العيني، إذ يحتوي في نظمه قوة حفظه واستمراره من حيث عطاؤه المعرفي، وذلك لارتباط النص بمحل خطابه واحتوائه للموضوع منذ البدء إلى النهاية.

وتقوم المجتمعات الإنسانية باستخدام أدواتها المعرفية لفهم النص ويبقى النص الكامل يقوم بعملية التوجيه والقيادة فهو دائمًا في مركز الريادة لكل المجتمعات.

إذنْ وحي القرءان للنبي قطعًا كان بشكل نص لساني ينزل على قلبه، وبعد انتهاء الوحي يقوم الرسول بتلاوة ما نزل عليه تمامًا دون زيادة أو نقصان.

لنَرَ ذلك من خلال النص القرءاني نفسه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252].

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58].

هذه الآيات صريحة في دلالتها على أن الوحي كان يتم من خلال تلاوة النص القرءاني على النبي، والتلاوة كلمة تدل ضرورة على وجود نص يكون محلًّا للتلاوة، بخلاف المعاني والمقاصد، فإنها لا تُتلى[18] ناهيك عن نفي تلقيها إلا بواسطة لسان يكون وعاءً لها يتم من خلاله الفهم والتفكير والتواصل مع الآخرين.

وكون الوحي يتم من خلال نص يُتلى مما يعني أنه لا بُدَّ من وجود لسان معين ليكون هو لسان الوحي، ولم يكن في الواقع بالنسبة للنص الكامل إلا اللسان العربي.

18 وهذا دليل على أن الأحاديث النبوية ليست وحيًا من الله حسب تعريفها التراثي، أما ما كان منها وحيًا بشكل خبر، فهو خاص للنبي ومجتمعه، وليس له صفات النص القرءاني بدليل التحريف والاختراق الذي أصاب مادة الحديث النبوي. راجع كتابي «تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم».

1. ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

2. ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 193 – 195].

فالنص الموحى إلى النبي بواسطة تلاوته عليه[19] كان نصًّا مؤلفًا من اللسان العربي، وتلاوة النص القرءاني على النبي لم تكن تمر عبر عضو السمع الذي هو الأذن؛ لأن الأمر لو كان كذلك لسمعه من كان بجانبه، مما يؤكد أن الوحي كان يتجاوز الأذن، ويقوم بتلاوة النص القرءاني في مركز السمع من الدماغ مباشرة.

وهذا ما يفسر غيبوبة النبي أثناء الوحي عما يجري حوله من الواقع وتعرُّقه كما صح في الروايات التي وصفت حال النبي أثناء نزول الوحي عليه.

بل إن الأمر أكبر من ذلك بكثير فإن النبي لم يحفظ النص القرءاني المتلو عليه من قبل الوحي؛ لأنه لو كان النبي يحفظ النص القرءاني بإمكانياته البشرية لاقتضى أن ينسى بعضًا منه وذلك كصفة بشرية لازمة له، بينما الواقع أن الوحي قام بتلاوة النص القرءاني في مركز السمع من الدماغ، ومن ثم ثَبَّتَ النص القرءاني في الذاكرة (ملف صوتي) بحيث لا يقبل الزيادة أو النقصان أو النسيان له؛ لأن أمر الحفظ لم يترك لإمكانية النبي، وإنما تعهد الله عز وجل بحفظه ابتداء واستمرارًا وانتهاءً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: 6].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 16، 17].

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3–4].

19 للتوسع في معرفة كيف تم الوحي راجع كتابي: (الألوهية والحاكمية) فصل شرح صفة الكلام لله عز وجل.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

فالرسول عندما كان يتلو النص القرءاني كان يقوم بذلك دون أدنى جهد منه، ويجري على لسانه كجريان الماء في النزول دون توقف أو تلكؤ، وذلك كله لأن النص القرءاني منقوش في ذاكرته لا يتعرض لأية عملية من النسيان أو الخطأ، كما أن الله قد تعهد بأن لا يسمح للرسول الذي اختاره من دون الناس لهذه المهمة أن يقوم بالتقول على الله، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 44 – 46].

فالإعدام الفوري للرسول (الذي اختاره الله لتأدية الرسالة) إذا تجرأ على أن يتقول على الله ما لم يقل، وذلك لأن الرسول يملك الإرادة في عملية الكفر والإيمان، الصدق والكذب ولم يسلبه الله عز وجل هذه الإرادة، وعلى موجبها كان الرسول أفضل الناس إيمانًا وأصدقهم خبرًا، وذلك لعظيم فضله وعلمه بالله وخشيته منه.

وهذا الإيمان والعلم بالله وخشيته يكسب النبي عصمة إرادية[20] تعصمه عن الكفر والكذب على الله، لذا؛ لم ينقل لنا التاريخ أن رسولًا من رسل الله قد كذب على الله ما لم يقل:﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: 28]. والأنبياء هم سادة العلماء، والعلماء ورثة الأنبياء بالعلم والمعرفة والاستقامة والدعوة إلى الله عز وجل.

وبعد أن نزل النص القرءاني تلاوة على الرسول بواسطة الوحي أمره الله عز وجل أن يقوم بواجبه كرسول بتلاوة ما نزل عليه من الوحي على الناس جميعًا.

1. ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ

20 راجع كتابي «تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم». فصل العصمة.

وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:91– 92].

2. ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30].

3. ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

4. ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: 27].

5. ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: 16].

إذنْ؛ فتلاوة النص القرءاني على النبي من قبل الوحي يتبعها تلاوة النبي للنص القرءاني على الناس عامة الذين قاموا بحفظ النص القرءاني وتلوه على من بعدهم، وهكذا استمرت تلاوة النص القرءاني عبر الأجيال إلى زمننا المعاصر.

وقد أكد الله أن الوحي قد تم من خلال نص لساني ومجموعة هذه النصوص الموحاة شكلت الكتاب الذي أراد الله إنزاله للناس، قال تعالى:

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة:2– 3].

وعملية الافتراء تكون بالمعنى وتكون باللفظ. أما افتراء المعنى فيكون أن يتعمد الإنسان بوضع دلالة للنص غير مقصودة من النص نفسه ولا يحتملها كسياق لساني.

وافتراء اللفظ يكون بنسبة قول إلى الله لم يقله ولم ينزله على رسوله.

وافتراض أن النص القرءاني هو من تأليف وصياغة النبي لفظًا لدلالة ومقصد إلهي، ومع ذلك يقول (النبي محمد) إن هذا النص من عند الله عز وجل، فهذا هو الافتراء بعينه، وهذا غير مسموح في واقع الحال كون الخالق تعهد بإعدام الرسول الذي يتقَوَّل عليه ما لم يقل.

فالنص المتلو عليكم هو النص الذي نزل على الرسول، وقد قام بتلاوته كما نزل تمامًا، وبالتالي أخذ صفة الحق؛ لأنه صادر من الحق، وبناء على ذلك المفهوم تمَّ التحدي للناس عبر الأجيال في كل زمان ومكان أنكم إذا ادَّعيتم أن النص القرءاني من صياغة النبي محمد أو غيره من البشر، فلتأتوا بسورة من مثله، فلتأتوا بنص لساني مثله، وذلك من منطلق أن عمل البشر مهما سما في عمله وأبدع يبقى واحدًا من البشر، وبالتالي ممكن أن يأتي آخر فيعمل مثله أو أحسن منه.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

فهذا النص القرءاني وحي من الله بصياغته اللسانية، فإذا كنتم في ريب وشك من ذلك فأتوا بسورة من مثله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 24].

وإن عجزتم عن قبول التحدي لعلمكم بضعفكم ومحدودية علمكم، فأقل عمل ممكن أن تعملوه لمصلحتكم الخاصة هو أن تحموا أنفسكم من النار التي وقودها الناس والحجارة التي أعدت للذين علموا الحق وكفروا به استكبارًا واستخفافًا وإيثارًا للدنيا وزخرفها على الآخرة.

وأخيرًا؛ يجب العلم أن النص القرءاني لو كان من صياغة النبي على افتراض ذلك

لاقتضى أن يكون:

1. النص القرءاني من الناحية اللسانية ضمن مستوى الكلام السائد في زمانه.
2. أن يكون محدودًا من حيث الدلالة.
3. أن يكون موجهًا بخطابه لقومه المعاصرين له.
4. أن تنتفي عنه صفة التحدي والإحكام، وأن لا يحكم سلفًا على الخصوم بالفشل والعجز.
5. أن يظهر خلاف بين النص ومحله من الخطاب مع الزمن؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب.
6. وجود أعمال من الناس تكون ندًا للنص القرءاني أو مثيله ناهيك عن الأحسن منه.

فادّعاء أن النبي محمد هو من صاغ النص القرءاني لسانًا أمر سهل التأكد منه لوجود النص القرءاني بين أيدينا، فما علينا إلا أن نخضعه لعملية التحليل والدراسة حسب أدواتنا المعرفية من قبل لجنة من العلماء المختصين ليقوموا بدراسته، ومن ثم الحكم عليه بنزاهة وموضوعية مثله مثل أية مسألة علمية.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

القراءة فعل إنساني
وتلاوة المخطوط مهارة خاصة

إن كنت لا تعرف تلاوة الخط فكل المخطوطات عندك سواء ولو كان كتاب الله، وتلاوة الخط مهارة لا يتقنها الناس كلهم، خاصة فيما مضى، ولذلك نزل القرءان ذكر صوتي على قلب الرسول ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة:97].

ونزل بلسان عربي مبين، وليس بلسان قوم معينين ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[النحل:103].

فالنبي قارئ وكاتب، ولكن لا يحسن تلاوة الكتابة ولا يخطها ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:48]، وقام بتلاوته من قلبه على مسمع الناس وحفظوه ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:151].

ونزل الأمر به بفعل (اقرأ) وهو تحت متناول كل الناس ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق:1]، والقراءة فعل يتعلق بالدراسة والتفكير في صفحات الكون وكلماته، ويكون ذلك من خلال السير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20]، وفعل القراءة يستجلب الزيادة والسعة والرحمة والتسخير﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق:3]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204].

هل المصحف هو القرءان

دراسة نص من المصحف خطأ، وينبغي أن تكون الدراسة للخطاب القرءاني الذي له منهج خاص به غير المصحف؛ لأن المصحف ليس هو القرءان، المصحف هو الرسم للذكر الحكيم، والذكر الحكيم هو الوحي وليس المصحف، انظر للمقطع اللفظي من المصحف الذي يُسمَّى خطأ آية (فويل للمصلين) هل المعنى تم بها ويحسن السكوت عليها؟

والجواب قطعًا بالنفي، وهذا يدل على نفي مفهوم آية عنها؛ لأن الآية مفهوم قائم بذاته يفيد الدلالة والإرشاد، وفي الذكر الحكيم يمكن أن يكون مجموع مقاطع من المصحف آية، فالذكر الحكيم هو الوحي، وليس المصحف، وهو محل الدراسة وليس المصحف.

والذكر الحكيم منظومة عامة تحتوي منظومات تحتها متعلقة بها ومنسجمة مع بعضها لتؤدي وظيفة واحدة ولا تُدرس إلا معًا، ومثلها مثل أجهزة الجسم البشري فهي منظومة واحدة متكاملة، ومن الخطأ دراسة أحدها بمعزل عن منظومة الجسم؛ لأنها في الواقع لا يمكن أن تنفصل.

وهكذا الخطاب القرءاني لا يمكن عضوضته، وما المصحف إلا كمثل كتاب عن الطب البشري لا بُدَّ من فصل كل موضوع أثناء الرسم والخط له، أما دراسته فلابُدَّ أن تُسقط على الجسم واستحضار المنظومة العامة التي تحكمه. والمثل للتقريب، فصياغة الخطاب القرءاني وبُنية الآية كألفاظ تختلف عن بنية ألفاظ الناس رغم أن الأصوات العربية واحدة. فالخطاب القرءاني له بُعدان متلازمان:

أحدهما الصوت العربي المبين، والآخر محل تعلق الخطاب، وعندما نقول آية قرءانية ينبغي أن نستحضر البُعدين معًا مع اشتراط إتمام المعنى للسامع، بخلاف نص المصحف فهو رسم ليس أكثر وهو صامت.

وعدم الوصول إلى مفهوم آية شيء طبيعي في منظومة القرءان؛ لأنه مثل منظومة الكون، فما زال الأمر تحت الدراسة، ولن تنتهي أبدًا، ولن يصل الإنسان إلى العلم بكل سنن الكون وظواهره.

والمهم هو تحديد المنهج والقواعد أولًا، ومن هذا الوجه أعرض مجموعة من النقاط لضبط المنهج:

1. هل كان قوم النبي يعرفون الأصوات العربية الثمانية والعشرين؟ ويستخدمونها في حديثهم؟
2. هل أتى الذكر الحكيم بصوت عربي (حرف) غير موجود في حديث قوم النبي، وإن كان فما هو؟
3. هل النص الواحد بين نقطتين في المصحف هو آية قرءانية؟
4. هل المصحف الذي بين أيدينا هو القرءان؟
5. شكل الفواصل بين مقطعين الذي اصطلح عليه نجمة هل هو أيضًا وحي، وما هو شكل الفاصل المعتمد إن لم يكن هذه النجمة؟ وأين هو؟ وما دلالته؛ لأنه من الرسم مثل المدّات والدوائر؟
6. كيف كان يتعامل المجتمع الأول مع القرءان مع عدم توفر مصاحف لكل واحد منهم حتى ينظر إلى رسم الكلام ويستنبط من الأشكال والدوائر والمدّات والألفات الصغيرة...إلخ، أم كانوا لا يدرسون القرءان ويكتفون بتلاوته فقط؟

7. إن كان رسم القرءان وحي ولا قيمة لتتابع التلاوة، كيف يمكن أن نتلو الأحرف في بداية السور مثلًا (كهيعص) ألا يجدر بنا أن نلفظها كلمة واحدة، خاصة أنها متصلة، أليس هكذا الرسم؟

8. لماذا لا نلفظ أصوات الأحرف ساكنة بدل أسمائها، أي: نقول: ك - هـ - ي- ع- ص، بدل كاف، هاء، ياء، عين، صاد؟

9. كيف نتلو هذا الحرف في هذه الآية ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:1]، بالاعتماد على الرسم فقط دون الرجوع إلى التلاوة الصوتية المتتابعة؟ هل نتلوه بصوت الحرف ساكنًا مجردًا مع المد له (نْ) أم نتلوه (نون) أم نتلوه (نين) أم نتلوه (نيم) أم نتلوه (نان)؟ خاصة مع وجود أحرف تُلفظ: ميم، حاء، قاف، لام...، من الذي يحكم أي صورة للتلاوة هي الصواب، الرسم أم التلاوة، وهذا السؤال مسحوب على كل الأحرف والألفاظ؟

10. ما مدى صواب التلاوات الأخرى غير تلاوة حفص، مع العلم أنها متتابعة، ولا تقل ثبوتًا عنها إن لم تكن أقوى عند المسلمين وهي منتشرة في المغرب العربي؟

رَسُولٌ مِنَ اللّٰهِ يَتْلُو صحُفًا مُطَهَّرَةً

يستخدم أصحاب الدعوات الحسابية العددية لأحرف القرءان ومن يقول عن شكل الخط والرسم للنص القرءاني إنه وحي من الله جملة (رَسولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صحُفًا مُطَهَّرَةً) كدليل على ادِّعائهم، ويتفاوتون في ذلك، فمنهم من يقول: بأن الزخرفة والطيور والسكون والمدات والشدات وطريقة رسم شكل الحرف... إلخ، وكل ما هو في الرسم العثماني الحالي هو وحي.

ومنهم من يقول: إن طريقة رسم الكلمات فقط هي الوحي دون هيئتها أو التشكيل والزخرفة والطيور، ولكن كلاهما يدَّعون أن النص القرءاني نزل صوت وصورة خطِّيّة على قلب النبي، وكان النبي يتلو النص القرءاني من الصحيفة التي ينظر إليها بعين قلبه، وقام هو بنفسه بخط النص القرءاني بيده أو يأمر النساخ بخط النص كما رآه في الصحيفة الإلهية طبق الأصل، ويصحح لهم أخطاءهم ويعلمهم كيف ترسم الكلمة، وأين توضع الزخرفة والتشكيل والطيور والمدات والدوائر والشدات...الخ.

وبالتالي الصواب التسمية للخط بالرسم الإلهي أو بالرسم المحمدي وليس بالرسم العثماني؛ لأن عثمان بن عفان نسخ الرسم الإلهي من النسخة المحمدية المفقودة والتي لا يعلم أحد عنها شيئًا!.

المتفق عليه بداية وليس محل خلاف هو أن النص القرءاني نزل ذكر صوتي مُحدث بلسان عربي مبين على قلب الرسول محمد كملف صوتي، ولم ينزل في قرطاس أو ألواح، وقد قام بتلاوته على الناس من قلبه بلسانه، وكان يدعوهم لسماعه بصوته،

ولم يكن ينشر ألواحًا أو صحفًا على الناس ليتلوا القرءان منها، وهذا أقره القرءان ذاته وذكره:

1. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:7].

2. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:193-195].

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:8].

3. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:75].

4. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:2].

5. ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:151].

6. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ﴾ [التوبة:6].

7. ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114].

8. ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204].

9. ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءانَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:92].

10. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:26].

ولذلك كان النص القرءاني حجة بالتلاوة الصوتية التي نزلت بلسان عربي مبين وهي البرهان والبلاغ وهي محل الدراسة والتدبر، وهي محل الحفظ الإلهي، وهي التي تتابعت في الأمة بشكل متنامٍ ومتتالٍ، وهي محل التعبد والتقديس، ويُصَحَّح أي مخطوط على موجبها مهما تقادم المخطوط.

هذه النقطة محل تسليم من قبل جميع من يؤمن بأن القرءان وحي من الله، أما نقطة أن الخط للنص القرءاني المعروف بالرسم العثماني، والذي يحلو لبعضهم تسميته بالرسم الإلهي أو بالرسم المحمدي فهي محل خلاف، ولا يوجد عليها أي برهان قطعي الدلالة من القرءان، وإنما بُنيت على تساؤلات وإشكاليات متعلقة باختلاف رسم الكلمة ذاتها في عدة مواضع في القرءان، وقالوا: لماذا اختلف الرسم للكلمة ذاتها في عدة مواضع؟ وعَدُّوا عدم العلم بسبب هذا الاختلاف برهان على إثبات أن خط النص القرءاني وحي من الله!.

وحاولوا أن يبحثوا عن نص قرءاني يخدم فكرتهم المسبقة فوجدوا نص(رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صحُفًا مُطَهَّرَةً) فقالوا: هذا دليل على أن النبي محمد كان يتلو القرءان من صحيفة أمامه تعرض عليه، وبالتالي نزل القرءان عليه صوتًا وصورةً.

وبداية نقول: هل كانت الصحيفة مادية يمسكها النبي بيده بصرف النظر عن نوعها؟

والجواب قطعًا بالنفي؛ لأن القرءان ذاته نفى نزول القرءان في قرطاس، ﴿وَلَوْ

نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام:7]، وكلمة (لو) حرف امتناع يدل على نفي حصول ذلك، فلا مناص من القول: إن الصحيفة هي حالة موجية ربما ليزرية، ولكن السؤال: هل كان النبي يراها بعينيه؟ والجواب قطعًا بالنفي أيضًا، فالوحي كان ينزل بالقرءان على قلب النبي فورًا، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:193–195].

إذنْ؛ لا مناص من القول: إن الصورة للنص القرءاني كانت صورة ذهنية بالرسم المعروف باسم الرسم العثماني[21] طبعة المدينة وبخط عثمان طه!

ويظهر سؤال آخر: هل كان النبي يتلو المخطوط من الصورة الذهنية؟

والجواب عندهم: نعم كان النبي يتلو المخطوط للنص القرءاني من الصحيفة الذهنية التي يراها، وهذا يجعلهم يصطدمون مع النص القرءاني الذي نفى عن النبي مهارة تلاوة المخطوط أو خطه، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت48]، فاضطروا أن يقولوا: إن هذا كان قبل النبوة، ولكن بعد النبوة تعلم تلاوة المخطوط وخطه، رغم أن النص القرءاني نفى ذلك عنه قبل النبوة، والأصل بقاء ما كان على ما كان عليه حتى يأتي برهان يغير ما كان.

وهذا معروف بالمنطق الاستدلالي استصحاب الحال الثابت وعدم نفيه إلا بدليل، مع وجود روايات تاريخية تدل على أن النبي بقي فعلًا لا يتقن تلاوة المخطوط ولا يخط بيده بعد النبوة، وتوفِّي كذلك.

أما موضوع أن النبي كان يقرأ ويكتب، فهذا موضوع آخر لا علاقة له بتلاوة المخطوط أو بخط الكلام على صحيفة؛ لأن مفهوم القراءة غير مفهوم التلاوة،

21 كلمة الرسم العثماني نسبة للخليفة عثمان بن عفان وليس للخطاط!

فالقراءة من قرأ وتدل على الفهم والتحليل والتركيب والاستنباط، ألا ترون كيف يقرأ الطبيب الصور الشعاعية، أو المتنبئ الجوي يقرأ صور القمر الصناعي للطقس؟ ولا يوجد في الصور أي كلام مخطوط.

فالقراءة هي قدرة فهمية موجودة عند كل الناس لزومًا بحد معين مع تفاوت بينهم، ولا يوجد إنسان لا يملك تلك القدرة الفهمية وهي تنمو بالعلم والتفكر والدراسة، ومن يفقدها يصير أبلهَ معتوهًا، فالطفل الرضيع يقرأ تعاليم الوجه ويفهمها ويتخذ موقفًا بناء على قراءته! فالنبي يملك القدرة على القراءة حسب معلوماته وقدراته الفهمية من قبل النبوة يفهم الخطاب والأحداث ويحللها ويركب النتائج ويستنبط ويحكم على المواقف مثله مثل أي إنسان.

وكذلك الكتابة لا يشترط لها الخط، فيمكن أن يكتب الإنسان بذهنه وقلبه؛ لأنها كلمة تدل على جمع الشيء مع غيره بشكل متجانس ومنضبط، مثلًا يقوم الباحث بكتب بحثه بمعنى جمع الأفكار والمعطيات وفق طريقة معينة ويمليها على شخص يخطها له مثل الأديب «طه حسين» كان قارئًا وكاتبًا رغم أنه أعمى لا يتلو المخطوط ولا يخط بيده، ولكنه قارئ وكاتب، وله مؤلفات كثيرة هو كتبها ولكن لم يخطها بيده.

وكذلك النبي محمد كان قارئًا وكاتبًا ومؤلفًا، ولكن لا يتلو المخطوط ولا يخطه.

من كان يكتب رسائل النبي للملوك؟

لا شك كان النبي هو الذي يكتبها من خلال إملائه الكلام على الناسخ فيقوم الناسخ بخطها على صحيفة.

من كان يؤلف كلام الرسائل للملوك؟

كان النبي محمد هو يؤلف كلام الرسائل ويمليها على الناسخ ليخطها على صحيفة.

من كان يقرأ رسائل الملوك التي تأت للنبي؟

لا شك أن النبي كان يقرؤها بمعنى يفهمها ويحلل فحواها ويدرس أبعادها من خلال سماع تلاوة الناسخ لمخطوط الرسالة.

فالقراءة قدرات فهمية لا يخلو إنسان منها حسب علمه وتفكيره، وقد ترتبط بتلاوة المخطوط وتجتمع معها، وقد تنفرد، فكلمة القراءة أعم من التلاوة، وكذلك التلاوة تدل على اتباع الشيء وراء بعضه بعض مثل قولنا: التالي، وقد تكون من صحيفة وقد تكون من الذهن، والنبي محمد كان يتلو القرءان من ذهنه وليس من صحيفة بيده ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:151].

وكلمة الأمية لا تعني نفي العلم، والنبي كان أميًّا وبقي أميًّا بعد النبوة، وأمية النبي قبل النبوة تمثلت بانتمائه لأم القرى وقومه الأميين، وبعد النبوة صار إمامًا؛ لأن كلمة (الأمي) من أمَّ، وتدل على المركز والأصل والمرجع والقصد مثل إمام الصلاة فهو مركز المصلين ومرجعهم والأصل لهم ويقتدون به.

فكلمة الأمي للنبي محمد لا تعني أنه لا يعرف القراءة والكتابة فهذا بيَّنا خطأه وعدم صوابه، ولا تعني الجهل عمومًا، فهي مدح وليس ذمًّا ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157].

فالنبي محمد هو أمِّي وهو قارئ وكاتب ويتلو من ذهنه ما يشاء، ولكن لا يعرف مهارة تلاوة المخطوط أو خطه.

وهذا يوصلنا إلى فهم نص ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1]، هذا

الخطاب عام وليس خاصًا للنبي محمد، ولو أنه يشمله كأول مخاطب به، كما أنه يشمل الإنسان الأعمى، وفعل (اقرأ) يدل على الأمر بالفهم والتحليل والتركيب والاستنباط والتفكير ومعرفة أسباب الأحداث والوجود واكتشاف السنن التي تحكمه لتسخيرها وتحقيق مقام الخلافة في الأرض، ويكون ذلك باسم الرب الذي خلق بمعنى استخدام سمات أسماء الرب في دراسة صفحات الخلق ومعرفة أوامره السننية التي تحكم الوجود، وهذا يتمثل بنص ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20].

فالأمر للنبي محمد بالقراءة كان شيء طبيعي؛ لأنه يستطيع القراءة، ولو كان الأمر بتلاوة المخطوط وبيد جبريل صحيفة لكان الأمر بفعل القراءة عبث، فكيف يأمره بتلاوة مخطوط، وهو لا يعرف تلك المهارة؟ غير أن النص القرءاني لم ينزل في قرطاس لا للنبي ولا لغيره، ولو نزل على النبي بصحيفة ملموسة أو ذهنية لكان نزوله للناس بصحيفة أولى منه، ونفي نزول القرءان بقرطاس يشمل النبي ويشمل الناس.

ولا يصح القول: إن مجرد أن توجه أمر الله للنبي محمد بأمر اقرأ صار قارئًا وقام بقراءة الصحيفة القرءانية التي يحملها جبريل، فهذا عبث واعتباط في القول وخلط بين فعل قرأ وفعل تلا، ونقض لنص نفي نزول النص القرءاني بقرطاس، وتخيل لأمر غيبي دون برهان، والتلاوة لا تعني القراءة، ولا يشترط لفعل القراءة وجود فعل التلاوة، والأمر أتى بفعل (اقرأ) وحدد محل القراءة وهو الخلق، وذلك من خلال السير في الأرض ومعرفة كيف بدأ الخلق وسار وصار.

ولا يصح أنه نزل بصحيفة ليزرية على قلب النبي فورًا، فهذا قرطاس بشكل من الأشكال والنص نفى نزول القرءان بهذا الشكل المخطوط بأي وسيلة كانت.

فلا يوجد أي دليل على أن الأمر بالقراءة يعني: تلاوة المخطوط؛ لأن فعل قرأ غير فعل تلا، والمطلوب القراءة وليس التلاوة، كما في نص ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءانُ فَاسْتَمِعُواْ

لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204]، ليس المطلوب الاستماع للتلاوة، ولو حصلت جهرة من أحدهم فهذا شأنه وغير ملزمين بتلاوته، والنص ذكر فعل القراءة للنص القرءاني التي تدل على التحليل والتركيب والاستنباط والتفكير والتدبر، هذا محل للاستماع والإنصات؛ لأنه علم وفيه فائدة يترتب عليه نزول الرحمة الإلهية على الناس من خلال الامتثال لأوامره وتغيير ما بأنفسهم.

بعد هذا المدخل المختصر نعود للنص محل الدراسة، وهو ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 1-4].

هذا النص ليس خبرًا عن حدث مضى وانتهى، وإنما هو خبر عن حدث مستمر، والبينة التي أتت وسوف تأتي لهم ليست هي شخصًا، فالشخص ليس بينة؛ لأن البينة هي برهان تدل على صدق شيء، وفي النص حدد البينة بأنها رسول من الله، وكلمة الرسول أتت نكرة وليست معرفة، ولا يوجد في النص ما يدل على أنه كائن بشريّ لا النبي محمد ولا غيره، بل أتت كلمة الرسول متعلقة بكلمة (بينة) فالبينة هي رسول، والرسول يحتوي البينة، وهو يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة.

فما هي البينة التي هي رسول من الله؟

كلمة (رسول) تطلق على حامل الرسالة سواء أكان كائنًا بشريًّا أم مبنى الرسالة اللساني ذاته هو رسول، وقد أتى في القرءان استخدام الصورتين:

الأولى: الرسول بالمعنى البشري.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة:83].

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:157].

الثاني: الرسول بمعنى الرسالة.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:16] قال أبو عبيدة: **رسول بمعنى رسالة** والتقدير على هذا: إنا ذوو رسالة رب العالمين.

تفسير «القرطبي» باب 13، ج 13، ص 93.

وذكر لسان العرب أثناء كلامه على كلمة رسول: وقال أَبو إِسحق النحوي في قوله (عز وجل) حكاية عن موسى وأَخيه: (فقُولا إِنَّا رسول رب العالمين): **معناه: إِنا رِسالة رَبّ العالمين أَي: ذَوَا رِسالة رب العالمين**، وأَنشد هو أَو غيره:

لقد كَذَبَ الواشُون ما فُهْتُ عندهم　　　بسِرٍّ ولا أَرسلتهم برَسول

أَراد: ولا **أَرسلتهم برِسالة**، قال الأَزهري وهذا قول الأَخفش، **وسُمِّي الرَّسول رسولًا لأَنه ذو رَسُول أَي ذو رِسالة والرَّسول اسم من أَرسلت وكذلك الرِّسالة**...).

وفي النص المعني بالدراسة أتت كلمة (رسول) بمعنى الرسالة، فهي الرسول وتحتوي البينة ويتلو صحفًا مطهرة.

والسؤال: هل الرسول بمعنى الرسالة يتلو ويهدي ويقص؟

والجواب نجده في القرءان ذاته.

الرسول بمعنى الرسالة يهدي:

﴿إِنَّ هَـٰذَا القرءان يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:9].

الرسول بمعنى الرسالة يقص:

﴿إِنَّ هَـٰذَا القرءان يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:76].

الرسول بمعنى الرسالة يتلو آيات الله:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾[الطلاق:10-11].

فالرسول بمعنى الرسالة يهدي ويقص ويتلو آيات الله.

كلمة (صحفًا) جمع صحيفة ذكر صاحب مقاييس اللغة:

الصاد والحاء والفاء (صحف) أصل صحيح يدل على انبساط في شيء وسعة. يقال: إن الصحيف وجه الأرض، والصحيفة: بشرة وجه الرجل.

ودلالة كلمة (الصحف) لا تُحصر بوجه الأرض فهي تشمل كل انبساط وسعة في الوجود الكوني، وهذا يعني أن الصحف هي الانبساطات الممتدة في الكون والمتسعة، وهذه الصحف الكونية مطهرة من التحريف والعبث والدجل ومنضبطة بسننها وفيها كتب قيمة.

وكلمة (كُتب) جمع كتاب، وهو يدل على الشيء الذي يجمع الأمور المتجانسة مع بعضها، وفي الوجود الكوني (الصحف) يوجد كتب مترابطة مع بعضها وتشكل منظومة واحدة وهي كتاب البحار وكتاب الغابات وكتاب الجبال وكتاب الأنهار وكتاب الحياة بكل ما تحوي في داخلها من كتب أيضًا، وهكذا.

والرسول (الرسالة) يتلو صحفًا بمعنى يذكر ويتبع في مبناه ومضمونه أبعاد وامتدادات كونية مُطهرة تحتوي كتبًا قيمة.

فلا يوجد في النص المعني أي ذكر للنبي محمد، وأنه يتلو النص القرءاني من صحيفة ليزرية لا يراها إلا هو فقط!

فلا داعي أن يلووا عنق النصوص ليثبتوا فكرتهم المسبقة.

التلاوة الصوتية وحي وهي الأصل
والخط اصطلاح وتابع لها

طريقة خط بعض الكلمات في النص القرءاني وكيف تُلفظ:

- ألم -------- تتلى لفظًا: ألف، لام، ميم.
- كهيعص -------- تتلى لفظًا: كاف، هاء، ياء، عين، صاد.
- الضعفــؤا ------- تتلى لفظًا: الضعفاء.
- الصلوة --------- تتلى لفظًا: الصلاة.
- الزكوة --------- تتلى لفظًا: الزكاة.
- الربوا---------- تتلى لفظًا: الربا.

فلو ذهبنا نلفظ الكلمات كما هي مرسومة لاختلف اللفظ والمعنى، وهذا يدل على أن الحجة بالتلاوة اللفظية، وهي البرهان وهي محل الدراسة والتعبد والحفظ الإلهي، ولا يمكن أن نستغني عن التلاوة اللفظية للنص القرءاني بينما نستطيع أن نستغني عن الخط الذي نسخ به.

والمتفق عليه عند جميع الملل أن النص القرءاني:

1. لم ينزل في قرطاس يرُى بالعين أو يُلمس باليد، وهذا ثابت بنص القرءان في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأنعام:7].

2. نزل ذكرًا صوتيًّا وأُمر الرسول بتلاوته على الناس﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[البقرة:129]، لاحظ فعل (يتلو) الذي يدل على تلاوة لفظية على سمع الناس، وليس يُريهم آياتك في قرطاس!

3. التبليغ يكون بتلاوة النص القرءاني ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ القرءان فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾[النمل:92]. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقرءان غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:15].

4. النص القرءاني هو نطق يوحى، وليس خطًّا يُرْسَم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم: 3-4].

5. النبي محمد كان قارئًا وكاتبًا وتاليًا للذكر من قلبه، ولكن لا يعرف مهارة الخط أو تلاوة المخطوط ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت:48].

6. لم يذكر القرءان في نصه أنه نزل صورة خطِّيّة على قلب الرسول، وما يعرضه بعضهم من نصوص لا تدل على ذلك.

7. التدبر للقرءان يتعلق بمضمون الآيات ومحل تعلقها من الواقع، وليس بخطها، ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82].

هذه الأمور محل اتفاق وثابتة عند الجميع، ومن يدَّعي أن القرءان نزل صورة

خطِّيّة على قلب النبي بالرسم المعروف العثماني هو تصور وادّعاء دون برهان وليس محل اتفاق، ودليله هو اختلاف رسم الكلمات ذاتها من مكان إلى آخر، وهذا لا يصلح برهانًا لوجود كثير من الاحتمالات مع غياب نسخة النبوة الأصلية التي ينبغي أن تكون موجودة لو كان نزل النص القرءاني صورة خطِّيّة لتعهد الله بحفظها واهتم المجتمع الأول بها، وكانت هي النسخة المعتمدة بالنسخ أيام أبي بكر أو عثمان، واستمر وجودها بالحفظ والصون في الأمة، ولكن هذا لم يحصل رغم أن الفترة الزمنية قريبة العهد للنبي.

ولا يصح عرض سؤال: لماذا اختلف خط بعض الكلمات ذاتها من مكان إلى آخر، وعدم وجود جواب منطقي عليه برهان على أن ذلك وحي، فهذا مغالطة منطقية في الاستدلال، ولا يصح الجهل بسبب أمر جعله برهانًا لإثبات أمر آخر.

لذلك ينبغي الاهتمام بدراسة التلاوة اللفظية وتدبرها وفق منهج قرءاني منطقي لساني عربي واقعي مقاصدي، وعدم ضياع الوقت في حساب الجُمَل، وعد أحرف القرءان، واستخراج معادلات رياضية كل يوم من نوع ما، وكل باحث له طريقته التي يعتمد عليها والتي في النتيجة لا تقدم ولا تؤخر؛ لأن الحجة بالتلاوة الصوتية، وليس بالخط والرسم، ولا شك أن النص القرءاني نص محكم على كافة الأوجه. ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:82].

اختلاف التلاوات وتعددها هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد أو تناقض

ناقشني أحدهم عن التلاوات وادَّعى أن فيها اختلافًا كثيرًا فيما بينها يحكم ذلك على بطلانها حسب القانون الذي وضعه الله في كتابه وهو ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82].

قلت: في أي تلاوة قرأت هذا النص؟

قال: في تلاوة حفص.

قلت: وما أدراك أن تلاوة حفص هي الصواب ودونها كله باطل وخطأ.

قال: هي المنتشرة في عالمنا حاليًّا.

قلت: لو كنت مقيمًا في المغرب العربي لما قلت ذلك؛ لأن انتشار تلاوة حفص حديث عهد منذ العثمانيين فقط وقبلها كانت تلاوة أخرى منتشرة بالمنطقة، غير أن التلاوات الأخرى ما زالت منتشرة في بلاد المسلمين وبدرجة تلاوة حفص.

قال: إن الباحثين الذين يعلمون بالإعجاز العددي اتفقوا على تلاوة حفص فقط.

قلت: إن هؤلاء حديثو عهد أيضًا، وقبل أن يخلقهم الله كيف كان المسلمون يتعاملون مع التلاوات الأخرى؟

قال: لا أدري. ونعود لموضوعنا، إن الاختلاف في التلاوات كثير ويحكم على بطلانها.

قلت: أعطني اختلافًا في الأحكام حرام وحلال أو واجب أو بالعكس بين التلاوات؟

قال: لا أدري.

قلت: أعطني اختلاف مفهوم إيماني بين التلاوات؟

قال: لا أدري.

قلت: أعطني اختلاف خبر إثبات أو نفي بين التلاوات؟

قال: لا أدري.

قلت: إذنْ؛ لا يوجد اختلاف تناقض أو تضاد أحكام أو مفاهيم أو أخبار بين التلاوات، وهذا يؤكد أن التلاوات لا يوجد اختلاف فيما بينها حسب ما ذكرت، أليس كذلك؟

قال: ولكن يوجد اختلاف في بعض صيغ التلاوة، ماذا تفسره؟

قلت: إنه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد ولا تناقض، وهو من باب تسليط الضوء على فكرة أو حدث كامن في تلاوة أخرى غير واضح يحتاج لتدبر عميق.

قال: أي تلاوة منهم هي الحجة والصواب إذنْ؟

قلت: أي تلاوة منهم هي حجة بذاتها وكافية وشافية والتعهد بالحفظ الإلهي يصح بواحدة منهن، فكيف إن تم الحفظ لهم جميعًا.

هذا نموذج عن المناقشين لفكرة اختلاف التلاوات.

فكرة عن اختلاف التلاوات كيف يكون

نزل القرءان ذكرًا صوتيًّا وتتابع في المجتمع الأول دراسة وحفظًا وتعبدًا، وانتشر كذلك واستمر دون انقطاع من مجتمع إلى مجتمعات بشكل متتالٍ، وصار أصح نص تاريخي على الإطلاق في تاريخ الإنسان، وتم كتابة النص مبكرًا لعهد النبوة بناء على التلاوة اللفظية، وظهر الاختلاف بالخط ببعض الكلمات بين نسخ عثمان بن عفان لاشتمالها هذه التلاوات المختلفة، والذي يحفظ النص المخطوط ويوجهه ويصححه هو التلاوة اللفظية المتتابعة في الأمة، وليس العكس.

والملاحظ أن من يعترض على التلاوات سواء من اللادينيين، أو من بعض الباحثين المسلمين لا يعرف عن التلاوات إلا اسمها (اختلاف التلاوات) فيذهب اللادينيون فورًا لنقض النص القرءاني ووصفه بالتحريف، ويذهب بعض الباحثين الإسلاميين لإنكار التلاوات وإثبات واحدة بناء على معطيات شخصية تقوم معظمها على النظرية العددية، أو جهله لماذا حصل الاختلاف، أو رفض مزاجي للتلاوات الأخرى رغم أنها متتابعة في الأمة مثل التلاوة التي اعتمدوها، فإلى هؤلاء كلاهما هذا المختصر لإعطاء فكرة عن اختلاف التلاوات وليتابعوا وحدهم في حال يريدون أن يتبنوا موقفًا علميًّا، وليس موقفًا مزاجيًّا.

وحبذا أن لا يناقش الموضوع واحد لا يوجد عنده أي علم عنه، ويتبنَّى موقف الرفض والإنكار سواء من منطلق الإلحاد أو المزاج أو التصورات الخاصة به، أو الإشكاليات التي يعرضها.... وينبغي أن يقرأ ويدرس الموضوع من مصادره الرئيسية والمعتمدة أولًا ابتداء من القرءان.

اختلف مصحفا أهل المدينة وأهل العراق في اثني عشر حرفًا:

1. كتب أهل المدينة ﴿ وأوصى ﴾ وأهل العراق ﴿ ووصّى ﴾.
2. وكتب أهل المدينة: ﴿ سارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ [آل عمران: 133]. بغير واو وأهل العراق: ﴿ وسارعوا ﴾.
3. وكتب أهل المدينة: ﴿ يقول الذين آمنوا ﴾ [المائدة: 56] وأهل العراق: ﴿ويقول﴾
4. وكتب أهل المدينة: ﴿ من يرتدد ﴾ [المائدة: 57] وأهل العراق ﴿ من يرتدَّ ﴾
5. وكتب أهل المدينة: ﴿ الذين اتخذوا مسجدًا ﴾ [التوبة: 108] وأهل العراق ﴿ والذين ﴾.
6. وكتب أهل المدينة: ﴿ خيرًا منهما منقلبًا ﴾ [الكهف: 37] وأهل العراق: ﴿ منها ﴾
7. وكتب أهل المدينة: ﴿ فتوكل على العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء: 217]. وأهل العراق: ﴿ وتوكل ﴾
8. وكتب أهل المدينة: ﴿ وأن يظهر في الأرض الفساد ﴾ [المؤمن: 26]. وأهل العراق: ﴿ أو أن يظهر ﴾.
9. وكتب أهل المدينة في «حم عسق»: ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ بغير فاء، وأهل العراق: ﴿ فبما ﴾.
10. وكتب أهل المدينة: ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ [الزخرف: 71] بالهاء وأهل العراق: ﴿ ما تشتهي ﴾.
11. وكتب أهل المدينة: ﴿ فإن الله الغني الحميد ﴾ [الحديد: 26] وأهل العراق: ﴿ إِن الله هو الغني الحميد ﴾.

12. وكتب أهل المدينة: ﴿ فلا يخاف عقباها ﴾ [الشمس: 15] وأهل العراق: ﴿ ولا يخاف ﴾.

نماذج عن اختلاف كلمات كتشكيل أو تبديل الهمزة ياء:

- ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:4]، عاصم والكسائي ويعقوب وخلف ووافقهم الحسن، وقرأ الباقون﴿ مَلِك﴾.
- ﴿يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:9]، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ووافقهم اليزيدي﴿وما يخادعون﴾، والباقي ﴿ وما يخدعون﴾.
- ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[البقرة:48] قرأ: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ووافقهم محيصن واليزيدي ﴿ ولا تُقبل﴾، وقرأ الباقون ﴿ ولا يقبل﴾.
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة:58]. قرأ: نافع وأبو جعفر ﴿يُغفر لكم﴾، وقرأ: ابن عامر﴿ تُغفر لكم ﴾، وقرأ الباقون ﴿نَغفر لكم﴾.
- ﴿... وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾[البقرة:61]، قرأ: نافع ﴿ النبيئين﴾، وقرأ الباقون ﴿ النبيين﴾.
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62]، قرأ: نافع وأبو جعفر ﴿ الصَّابِّين﴾، وقرأ الباقون: ﴿ الصابئين﴾.

- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:98] قرأ: شعبة بخلف عنه وحمزة والكسائي وخلف ووافقهم الأعمش ﴿جبرئيل﴾، وقرأ ابن كثير ووافقه ابن محيصن ﴿ جبريل ﴾. قرأ: أبو عمرو وحفص ويعقوب ووافقهم اليزيدي والحسن ﴿ ميكال ﴾، وقرأ الباقون ﴿ ميكائيل ﴾.
- ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:184]، قرأ: نافع وابن ذكوان وأبو جعفر ووافقهم المطوعي والحسن ﴿ فدية طعام مساكين ﴾، وقرأ الباقون: ﴿ فدية طعام مسكين ﴾.
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِم فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:258] قرأ الثلاثة: ابن عامر وخلف عن ابن ذكوان ﴿ إبراهام ﴾، وقرأ الباقون ﴿ إبراهيم ﴾ وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.
- ﴿ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:259] قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي وخلف ووافقهم الأعمش ﴿ ننشزها ﴾، والباقي قرؤوها ﴿ ننشرها ﴾.

هذه نماذج توصل فكرة اختلاف التلاوات بشكل جيد وأنها اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد أو تناقض، ولا تغيُّر من أصل النص شيئًا وإنما تسلط الضوء على ما هو كامن في تلاوة أخرى، وكل تلاوة تصدق التلاوة الأخرى وتنسجم معها، فالمفاهيم الإيمانية واحدة، والأخبار التاريخية أو العلمية واحدة، والأحكام الشرعية واحدة، والتماسك المنطقي في كل تلاوة كمبنى ومعنى متحقق بهم جميعًا.

وقاعدة تبيين صحة التلاوة الذي وضعها من أنزل القرءان، وهي: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82]، وهذا الاختلاف يكون بعدة أوجه:

1. اختلاف النص القرءاني مع خبره من الواقع كتاريخ وغيره، وبالتالي يصير كذبًا.

2. اختلاف النص القرءاني مع حقيقة علمية، وبالتالي يصير جهلًا.

3. اختلاف النص القرءاني مع ذاته نفيًا أو إثباتًا بكل تلاواته، وهذا يقتضي الافتراء والكذب والجهل.

4. اختلاف التشريع الذي نزل بالقرءان مع الفطرة الإنسانية والنفع لهم، يقتضي نفي صلاحيته.

5. ذكر مفاهيم غيبية خرافية لا يوجد عليها برهان منطقي أو علمي يفقد الثقة بالنص القرءاني ويصير خرافيًّا.

هذه الأمور الخمسة – وهي ليست للحصر– معنى جملة ﴿ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾ اختلاف تضاد أو اختلاف تناقض أو اختلاف مع الواقع كآفاق وأنفس، أما اختلاف جزئي في تلاوة بعض الكلمات أو تغيير لكلمة بدل كلمة أو مجيء ضمير أو

واو... بشرط تتابع هذه التلاوة عن النبي، كما أتى فيما ذكرناه آنفًا، فهذا اختلاف تنوع وهو مقبول منطقيًّا وعلميًّا وقرءانيًّا وإيمانيًّا.

وبالتالي لا قيمة علمية لادِّعاء حصول الاختلاف في النص القرءاني، وعد ذلك برهانًا لتحريفه ونقضه وإنكار مصدريته الربانية، أو إنكار كل التلاوات والإيمان بواحدة فقط، فهذا موقف غير علمي ولا منطقي ولا قرءاني، وليس هو الاختلاف الذي قصده النص القرءاني بحيث لو حصل لثبت أن القرءان ليس من عند الله، فلذلك ينبغي تحديد مفهوم الاختلاف المقصود بالنص القرءاني الذي في حال حصل ينتقض النص القرءاني، ويكون ليس من عند الله.

وهذا غير إلزام الباحث لنفسه بدراسة تلاوة واحدة فقط والتوقف عن دراسة التلاوات الأخرى مع عدم إنكارها، فكل تلاوة كافية وشافية وبرهان بحد ذاتها.

وللتوسع في القراءة ومعرفة التفاصيل للتلاوة اللفظية راجع:

- الميسر في القراءات الأربع عشرة. تأليف الشيخ محمد فهد خاروف، مراجعة الشيخ محمد كريم راجح شيخ القراء بدمشق.
- رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية. الدكتور غانم قدوري الحمد.

نقاش بعض الشبهات المتعلقة بحفظ النص القرءاني

إن وضع الحقيقة العلمية وراء ظهورنا، والتظاهر بموقف الغفلة وعدم المعرفة لها والجري خلف الأوهام والظن، موقف غير علمي وغير موضوعي. إنه موقف متحامل، موقف من يريد أن يضع السم في العسل بقصد تشويه الحقيقة. وللأسف تحقق ذلك في كثير من الباحثين سابقًا، فقاموا بتتبع الشبهات والدسائس التي وضعها أسلافهم وعدّوها أخبار ثقة وصحيحة، وانطلقوا منها يصولون ويجولون في إثبات تحريف النص القرءاني، وضمنوا ذلك بكتبهم ودراساتهم.

ولعل أشهرها كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) لمؤلفه (النوري) وهو شيعي المذهب، وقد قام بالرد عليه كبار الشيعة في زمانه، ونفوا أن يكون هذا معتقد الشيعة بالنسبة للنص القرءاني وأظهروا بطلان هذا الكتاب وشذوذ مؤلفه بمعتقده[22].

وهذا الدس والتحامل لم ينج منه أهل السنة في مصادرهم وكتبهم فتسربت مجموعة من الأخبار التي تنص على تحريف النص القرءاني زيادة أو نقصانًا، ولعل أكثر ذلك كان تحت باب الناسخ والمنسوخ، وبقيت هذه الروايات في مصادر أهل السنة إلى يومنا المعاصر، وكذلك في معظم كتب علوم القرءان المؤلفة قديمًا، ولا يزيد الباحثون المعاصرون عن نقلها في كتبهم أو محاضراتهم والقيام بتبريرها مستخدمين

22 انظر على سبيل المثال (القرءان في الإسلام) للسيد محمد الطبطبائي، دار الزهراء، ط3. وكتاب (أصول الفقه) محمد رضا المظفر، دار التعارف، ط4. وكتاب (الشيعة والتصحيح) د. موسى الموسوي.

ما أطلقوا عليه علم الناسخ والمنسوخ.

وفاتهم أن هذا الموقف منهم هو إقرار بهذه الأخبار المدسوسة وفتح باب يصعب، بل يستحيل إغلاقه؛ لأنه في أصله قائم على الوهم، فمن يستطيع أن يناقش الوهم إثباتًا أو نفيًا، وتحقق ذلك بوهم موضوع الناسخ والمنسوخ للنص القرءاني، فما هو عند قوم ناسخ هو عند الآخرين منسوخ، والعكس صحيح، واعتقدوا بنسخ نصوص من القرءان تلاوة مع بقاء الحكم، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة للنص دون فائدة ترجى منه سوى التعبد، أو نسخ النص كاملًا حكمًا وتلاوة.

وضربوا على ذلك أمثلة وهمية لم يستطيعوا فهمها بعقولهم فذهبوا إلى القول بنسخها غير ذكرهم لسور كاملة قد نسخت ورفعت من المخطوط، إلى غير ذلك من الترهات، وذلك كله موجود في مصادر أهل السنة وسوف يستخدمها كل من يريد الطعن في حفظ النص القرءاني من منطلق (من فمهم ندينهم).

وهذا ما حصل فعلًا، إذ قام المستشرقون ومن حذا حذوهم من الباحثين العرب إلى ركوب هذه الموجة الوهمية، وألزموا أهل السنة والشيعة بالاعتقاد الموجود بين أظهرهم، وما ذكرته مصادرهم الثقافية في أن النص القرءاني قد تعرض للتحريف والزيادة والنقصان سواء في عهد النبوة من النبي نفسه تحت مفهوم الناسخ والمنسوخ أو من بعده حسبما جاء في الروايات المدسوسة.

وذلك كله لإغفال الحقيقة العلمية والجري وراء الأوهام، فكان الأجدر بعلماء الأمة التمسك باليقين ورفض الظن والأوهام، واليقين هو أن النص القرءاني قد تتابع رواية وحفظًا وتم الاتفاق على توثيقه كتابةً في عهد أبي بكر، واستمر ذلك إلى يومنا المعاصر لم ينقص منه أو يزيد أية كلمة ناهيك عن نص بكامله.

وبناء على هذه الحقيقة يتم النقاش للروايات وما أطلق عليه علم الناسخ والمنسوخ، فنصل إلى أن كل هذه الأمور إنما هي من نسج القصاصين والدساسين

بقصد الإساءة للنص القرءاني وتشكيك عامة المسلمين فيه، خاصة جيل الشباب حديثي العهد بالثقافة.

ولنأخذ على سبيل المثال خبرًا يُعزى إلى عمر بن الخطاب أنه قال:

« لولا أن يقول المسلمون: زاد عمر في القرءان لأثبتُّ آية الرجم فيه، فإنها مما نزل من القرءان في زمن النبي ».

وآية الرجم هي: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة).

إن أول عمل يجب أن نتحقق منه هو: هل فعلًا ثبت بشكل قطعي نزول هذه الآية المزعومة في زمن النبي؟ والجواب قطعًا: لا، بدليل الخبر نفسه في جملة (أن يقول المسلمون: زاد عمر في القرءان) ومن هم المسلمون في زمن عمر؟ لا شك أنهم مجتمع الصحابة مما يعني أن هذه الآية المزعومة نكرة لا يعرفها مجتمع الصحابة الذين عاصروا نزول الوحي.

وبالتالي فالآية المزعومة لم تُعرف في زمن النبوة ولم يقم أحد بكتابتها أو تلاوتها طوال عهد النبي، وكذلك في عهد أبي بكر ولم تُذكر إلا كخبر آحاد أُسندت لبعض الصحابة الذي منهم عمر بن الخطاب لإعطائها مصداقية، وفعلًا نجح الدساسون في ذلك، وانطلت الحيلة على المسلمين ودخلت في ثقافتهم الدِّينية.

ولنناقش الموضوع من جانب آخر: وهو أن عمر بن الخطاب من الحفظة ومن كتبة الوحي وهو من اقترح على أبي بكر عملية جمع النص القرءاني في الصحف وكون الأمر كذلك فالسؤال المطروح:

أ. لماذا لا توجد هذه الآية المزعومة محفوظة ومكتوبة في عهد النبوة، خاصة أن كل نص ينزل كان يُكتب مباشرة فور انتهاء نزوله؟

ب. لماذا لا توجد هذه الآية المزعومة في مصحف أبي بكر الذي أقره مجتمع الصحابة جميعًا وعمر منهم؟

ت. لماذا لم يقترح عمر إثبات هذه الآية المزعومة في عهد أبي بكر أثناء جمع النص القرءاني؟

ث. هل فعلًا عمر يخشى الناس في أمر من أمور الدِّين على درجة من الأهمية والعظمة وهو مَنْ هو قوة في الحق؟ ولماذا لم يستعن بالصحابة الكبار المعاصرين له؟

ج. لماذا لم يثبت هذا النص المفقود في زمن عثمان عندما قام بنسخ مصحفه عن المصحف البكري ويتلافى النقص؟

كل هذه الإشكاليات وغيرها تدفعنا إلى أن نقطع بكذب هذه الرواية على لسان عمر والذين وضعوها على لسانه هم اليهود بشكل مباشر أو غير مباشر؛ لأن من المعلوم أن الرجم للزاني المحصن هو حكم يهودي، وليس حكمًا إلهيًّا سابقًا ولم ينزل بالقرءان.

وكون الأمر كذلك فلا يصلح هذا الخبر للنقاش أو تبريره بالقول بالناسخ والمنسوخ، فالخبر ابتداء ظني ونجزم نحن بوضعه ودسه في الثقافة الإسلامية، فكيف نناقش موضوع نسخه من القرءان تلاوة مع بقاء حكمه ولم يثبت نزوله كنص قرءاني أصلًا؟ ناهيك عن ثبوت وضعه ودسه في الثقافة الإسلامية من جراء الأخذ عن التلمود في التفسير وغيره.

ومثال آخر على ذلك هو ما يُروى أن عبد الله بن مسعود قد اعترض على عمل عثمان في توحيد التلاوات، وأن مصحف عبد الله بن مسعود لا توجد به المعوذتان ظنًا منه أنهما ليستا من النص القرءاني، وإنما هما بمثابة أدعية وتعاويذ.

وعلى افتراض صحة هذه الرواية عن عبد الله بن مسعود نناقشها حسب معطياتها والحيثيات التي لازمت هذه الرواية من أحداث.

أما اعتراض عبد الله بن مسعود على عمل عثمان من توحيد التلاوات، فمردود لظهور موقفه الشخصي تجاه عثمان؛ لأنه لم يختره ويعينه ضمن لجنة نسخ المصاحف وصرح بذلك علنًا فقال: «كيف أُستبعد من ذلك ويُقَدَّمُ زيد بن ثابت، وأنا قد دخلت بالإسلام قبله، بل كان هو في صلب أبيه لم يأت إلى الحياة».

وهذا الاعتراض من عبد الله مرفوض كما ذكرنا؛ لأن الأمر لا يتعلق بالأسبقية للإسلام ولو كان الأمر كذلك لكان هناك من هو أولى مَنْ عبد الله نفسه نحو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فالأمر متعلق بالأهلية والكفاءة، وقد اجتمع ذلك في زيد بن ثابت.

وهذا الأمر لا علاقة له بالأفضلية والمكانة، وإنما له علاقة بطبيعة العمل المقصود قيامه، فالرجل المناسب لهذه المهمة هو زيد بن ثابت، وهذا ليس اختيار عثمان فحسب وإنما هو اختيار أبي بكر من قبله عندما جمع النص القرءاني بالصحف، فضلًا عن أن الصحف بخطه إضافة إلى أنه من الحفظة، ومن أحد كتبة الوحي والجامعين للنص القرءاني.

كل ذلك جعل عثمان يختاره من بين الصحابة لعلمه أنه أكفأ رجل للقيام بهذه المهمة، كما أنه لم يفرده وحده، بل أضاف له عددًا من الصحابة ليشاركوه مهمته، ولكن بإشرافه وتوجيهه كونه الخبير بالنص القرءاني.

فمن هذا الوجه لا قيمة لاعتراض عبد الله بن مسعود من الناحية العلمية، وبالتالي من القبح والشناعة أن يوظف هذا الموقف الشخصي من عبد الله وتُبنى عليه أوهام وأباطيل وجهًا لوجه مع الحقيقة.

أما ما يروى أن نسخة المصحف الخاصة بعبد الله بن مسعود لا تنص على وجود المعوذتين وهو ينفي عنهما صفة القرءانية، فهذا إن صح عنه فليس إلا خبر آحاد مقابل التتابع للمعوذتين رواية وتوثيقهما كتابة من قبل مجتمع الصحابة ابتداء من نسخة النبوة إلى مصحف أبي بكر، واستمر ذلك في عهد عمر إلى فترة استلام عثمان.

والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا لم يصرح عبد الله ويعلن الحرب على نسخة النبوة ومصحف أبي بكر وإقرار وإجماع مجتمع الصحابة على توثيق أبي بكر للنص القرءاني كتابة، ومن ثم تصديق دولة عمر لعمل أبي بكر؟

وهذا يدل على عملية دس هذا الخبر على عبد الله بن مسعود؛ لأنه إن كان لم يسمع من النبي أن المعوذتين من النص القرءاني – وقطعًا قد سمع ذلك؛ لأن المعوذتين نزلتا في مكة وعبد الله بن مسعود من المهاجرين السابقين في الإسلام– فإنه قد سمع ذلك من تتابع الصحابة لهما، فكان من الطبيعي أن يأخذ بالتتابع، ويقول بأنهما من النص القرءاني ويترك رأيه منفردًا لتتابع الأمر في مجتمع الصحابة.

وإذا افترضنا أن عبد الله بن مسعود لم يتراجع عن رأيه بالنسبة للمعوذتين مقابل النقل المتتابع من مجتمع الصحابة لهما، يكون موقفه متطرفًا لا قيمة له من الناحية العلمية.

ولذلك نجد الصحابة لم يلتفتوا إليه ولم يعيروه أي انتباه لعلمهم أن رأيه مبني على الاعتداد والانفراد بالرأي، وبالتالي أهملوه وأجبروه على حرق نسخته الخاصة من المصحف، وسواء فعل ذلك أم لا فالأمر أخذ صفة الرأي الشخصي له.

وبناء على ما تقدَّم كيف يصح الاعتماد على هذه الرواية المسعودية تجاه التتابع المحفوظ في الصدور والموثق في السطور؟ إلا إذا كان الباحث يريد أن يثبت شيئًا في نفسه!.

هذه بعض النماذج التي اعتُمِدَت لدى من يحاول أن يثبت اختراق النص القرءاني خلال التاريخ وهي نفسها قد اعتمدها المستشرقون حديثًا وتبعهم في ذلك بعض الباحثين العرب.

أما النماذج الأخرى التي يسوقونها للاستدلال بها فهي أضعف من خيوط العنكبوت، فكلها دسائس وافتراءات على الثقافة الإسلامية لا تنهض للوقوف مقابل الحقيقة العلمية من أن النص القرءاني محفوظ في الصدور وموثق في السطور بشكل متواتر منذ عهد النبوة إلى زمننا المعاصر.

وبالتالي لا يُلتَفَتُ إليها ولا يصح تبريرها أو دراستها طالما أنها أخبار باطلة غير يقينية، واليقين لا يزول إلا بيقين مثله، فالظن لا يرفع اليقين، والحق أحق أن يتبع ولو كانت الروايات الظنية موجودة في معظم أمهات الحديث والتفسير عند أهل السنة والشيعة فالحقيقة لا تتأثر بذلك، ولا يصح البحث بهذا الشكل، أي: ترك اليقين والسعي خلف الشبهات والإشكاليات للوصول من خلالها إلى نقض اليقين.

فالمطلوب هو إثبات يقين صحة النص القرءاني متنًا منذ بدء نزوله إلى يومنا المعاصر، فإذا تم ذلك للباحث لا يطلب منه علاج وتبرير كل الإشكاليات والترهات فإن ذلك يستحيل في الواقع لاختلاف أمزجة الناس وتفاوت ثقافتهم فما يقنع به فلان لا يقنع به آخر ويبقى الأمر متروكًا للموقف الشخصي.

مع العلم أن نص (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) باطل من حيث المتن لنظام اللسان العربي، مثل:

- المرأة الكبيرة في السن في القرءان اسمها عجوز وليست شيخة.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:72].

• كلمة (إذا) تفيد حتمية حصول ما بعدها، مثل ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر:1]، وكان ينبغي أن يأتي في النص كلمة (إن زنيا) لاحتمالية وقوع الزنا أو عدم وقوعه.

وواضح أن الذي افترى النص قلّد نص ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[المائدة: 38].

توثيق النص القرءاني من التاريخية إلى الواقعية

إن كلّ ما مرَّ ذكره مما يتعلق بتتابع رواية النص القرءاني حفظًا وكتابةً لا يفيد الباحث سوى أن هذا النص القرءاني قد صحت نسبته إلى محمد بن عبد الله دون زيادة أو نقصان، وهذا أمر لا علاقة له البتة بموضوع نسبة النص القرءاني إلى الله عز وجل، فهذه مسألة أخرى لا علاقة لها بموضوع السند والرواية والتتابع.

فلم تكن مسألة صحة نسبة القرءان إلى محمد في زمنه محل خلاف أو نقاش من قومه؛ لأن ذلك ليس هو بيت القصيد ناهيك عن معرفتهم لهذه المسألة من جراء التعايش والمعاصرة له.

ورغم حصول تلك المعرفة اليقينية جرى الصراع على أشده بين النبي محمد وقومه، ولم يكن الصراع إلا على ادِّعاء النبي محمد أن النص القرءاني إنما هو وحي من الخالق المدبر لعباده.

وهذه المسألة لا علاقة لها بموضوع صدق وأمانة النبي محمد المعروف بهما من قبل أن يصير نبيًّا، ولو أن ذلك شرط لا بُدَّ منه لمن يدَّعي النبوة الإلهية؛ لأن الصدق شيء وصحة الخبر شيء آخر، فصحة الرسالة تدل على صدق الرسول بينما صدق الرسول لا يدل على صحة الرسالة، فصفة الصدق في المًخبر ليست هي دليلًا على صحة خبره، فصحة الخبر مسألة أخرى بحاجة إلى برهان يقوم على صحتها.

وبناء على ذلك يكون الإنسان المعاصر للنبي الذي سمع الخبر منه مباشرة،

والإنسان بعد ألف سنة الذي تتابع عنده أن النبي قد أخبر بذلك النص في موقف واحد بالنسبة لعلمهما بصحة نسبة هذا الخبر إلى النبي، والعلم بصحة السند لا علاقة له بصحة المتن.

وبالتالي فموقف الإنسان الذي سمع من النبي مباشرة وموقف الإنسان المعاصر الذي تتابع عنده الخبر عن النبي بالنسبة للإيمان بصحة الخبر كمتن أيضًا واحد، فعامل الزمن مهما طال لا علاقة له بموضوع الإيمان بمصدرية النص القرءاني، لأن ذلك الإيمان لم يتأتَّ من صدق المخبر أو تتابع الرواية عنه، وإنما يتأتَّى الإيمان بصحة الخبر كمتن من جراء تطابق دلالة الخبر مع مدلوله من الواقع.

وهذا الأمر ضمن إمكانية الإنسان المعاصر للنبي والإنسان الذي يأتي بعد ألف سنة، والنص القرءاني هو نص موجود في الزمن المعاصر، وكون الأمر كذلك فمن السذاجة على درجة كبيرة إهمال النص المعني بالدراسة والدخول في متاهة التاريخ والرواة لمعرفة صحة نسبة هذا النص للذي صدر منه أولًا.

فالموضوع ليس هو أن هذا النص تكلم به زيد أو عمرو حتى نرجع إلى التراث، ونعرف صحة ذلك عنهم، وإنما الموضوع هو صحة الخبر نفسه كمتن ومصداقية ومصدرية ربانية، وهذا لا علاقة له البتة بتاريخ رواية النص وملابساته وإشكالياته التي تعرض لها أثناء النقل.

فموقف الإيمان أو الكفر يكون وجهًا لوجه مع النص ذاته كمتن لا يؤثر السند بذلك الموقف لا من قريب ولا من بعيد، ومثل ذلك كمثل الرسول والرسالة التي يحملها، فالأهمية للرسالة وليس للرسول، كما أن الرسالة هي محل للدراسة والتدبر لما فيها، وليس صفات الرسول والرواة.

كما أن مصداقية الرسالة من ذاتها بالمضمون الذي تحمله وليس من الرسول، لأن الرسالة ممكن أن يحملها عشرات الناس، بل مئات حتى تصل إلى المرسَل إليه، فلا

يقوم المرسَل إليه بإهمال الرسالة والجري خلف السعاة الذين قاموا بتوصيل الرسالة ليتأكد من صفاتهم وصدقهم! ولو فعل ذلك لاتُّهِمَ بعقله؛ لأنه من الواجب أن يتأكد من الرسالة نفسها ذاتها، وذلك من خلال صواب المحتوى الذي تضمنته.

وعندما يتأكد من صواب مضمون الرسالة لا يهمه السعاة صادقين كانوا أم كاذبين؛ لأن صفتهم تلك لا تؤثر على حكمه على الرسالة، فهم ليسوا برهانًا على صواب ومصداقية مضمون الرسالة كمحتوى.

ورسالة الله عز وجل قد وصلت إلى عباده، وبدأ ذلك في زمن النبي محمد فقام بتلاوتها على الناس في زمانه ووقف الناس منها موقف الإيمان والكفر، وقام النبي بالتفاعل معها لإسقاطها على واقعه، وقد نجح في ذلك نجاحًا منقطع النظير وصدَّق قومه بمصدرية الرسالة الربانية فآمن قسم منهم، وكفر آخر بمبررات مكشوفة نحو أن القرءان يتعلمه النبي من رجل نصراني وغير ذلك من الأباطيل، وكل ذلك لنفي المصدرية الربانية عن القرءان بعد قيام الحجة والبرهان على ذلك وشهودهم لهذه العملية.

وما أشبه اليوم بالأمس، فقد قام المستشرقون ومن تبعهم من العرب بوضع إشكاليات مستغلين التراث الثقافي لتغطية الحقيقة ونفي مصدرية القرءان الربانية وصلاحيته لكل زمان ومكان، فتارة يقولون بوقوع التحريف في النص القرءاني عبر الزمان، وتارة يقولون: إنه من صياغة النبي محمد، وغير ذلك من المبررات المكشوفة التي تهدف في النهاية لإنكار أن القرءان رسالة الله الكاملة والمحكمة - العالمية والإنسانية والدائمة - إلى خلقه.

وعندما توفِّي النبي انتهت مهمته كنبي يقوم بالتعليم والدعوة إلى رسالة الله، وبقيت الرسالة موجودة في الأمة حتى وصلت إلينا، ومطلوب منا نحن كمجتمع معاصر أن نتخذ موقفًا من الرسالة والتأكد من صواب مضمونها ونسبتها إلى الرب

سبحانه وتعالى، ولا علاقة لمحمد بن عبد الله كنبي ورسول في ذلك الموقف؛ لأن نبوته لقومه قد انتهت بموته، وذلك لأن مقام النبوة مقام علم ومعرفة ووظيفته التفاعل مع الرسالة والواقع الذي يعيشه.

وقد حصل ذلك وانتهى بموت النبي وقومه، ولا وجود الآن للنبي حتى يتفاعل مع الرسالة حسب واقعنا، وإنما الموجود هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بالعلم والمعرفة والاستقامة، فيقومون بالتفاعل كل حسب اختصاصه مع الرسالة والواقع الذي يخصهم، ولهم في تحقيق ذلك المقام طريقان:

الأول: دراسة سيرة النبي وسنته في التفاعل مع الرسالة وواقعه لاستخراج الأسس والمنطلقات التي اعتمد عليها في فهم الرسالة وكيفية إسقاط ذلك على واقعه فيقومون باستخدام الأسس والمنطلقات كمنهج في التعامل مع الرسالة ودراسة واقعهم، ومن ثم اختيار الحل الأحسن لهم.

الثاني: دراسة الرسالة مباشرة كونها مصدرًا لعلوم النبوة أصلًا فلقد كان النبي الترجمان للقرءان بمنهجه، فالنتيجة واحدة فمن درس سنة وسيرة النبي يصل إلى منهج القرءان، ومن درس القرءان مباشرة فإنه يصل إلى سنة النبي وسيرته.

وعلى الحالتين يصل إلى المنهج في التعامل مع رسالة الله. والأصوب هو دراسة القرءان مباشرة لوجوده بين أظهرنا بشكل سليم وصواب والخروج منه بمنهج للتعامل مع الرسالة الذي ليس هو في النهاية إلا منهج النبوة (الحكمة) وذلك كبديل عن الدخول في التراث والتعرض لإشكاليات وأحداث سياسية يصعب استخلاص منهج النبوة منها [23].

أما وظيفة النبي كرسول، فلقد أدَّى المهمة على أكمل وجه، وبلغ الرسالة كاملة كما نزلت بالتمام والكمال، وطبيعة الرسالة هي التي حددت دور النبي ودور الرسول؛ إذ

23 راجع كتابي تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم.

جعلت المقام الأول: مقام علم ومعرفة وتعليم ودعوة موجهًا إلى المجتمع الإنساني المعاصر له.

والمقام الثاني: جعلته عالمي الدعوة إلى المجتمعات الإنسانية كافة عبر الزمان والمكان، وتحقق ذلك باستمرار الرسالة وديمومتها.

إذنْ؛ المطلوب منا نحن المجتمع المعاصر التأكد من صواب الرسالة كمضمون ومصدرية كوننا معنيين بالخطاب، فإن تم ذلك لنا ننتقل إلى مرحلة الإيمان بها والتفاعل معها دون النظر للتراث وإشكالياته، وإن ثبت لدينا أن الرسالة باطلة في موضوعها مفتراة في مصدريتها يكون قد كفى الله المؤمنين القتال، فما لنا وللدخول في التراث وعدم الخروج منه، ولا نحصل من ذلك إلا على الضياع والسجال الإيديولوجي.

وأخيرًا؛ نكون قد وصلنا إلى أن إدراك مصداقية القرءان إنما هو بالواقع كآفاق وأنفس، وليس بالتراث كرواية وسند، فطريقة الرواية والتتابع للنص القرءاني قد أخذت حقها من التوثيق خلال الأجيال الماضية، ووصلت في زمننا إلى أعلى درجات التوثيق التاريخي، وانتهى ذلك عندنا لوصول النص القرءاني لدرجة الحقيقة التاريخية، وصار من المسلمات.

وكما ذكرنا سابقًا أن التوثيق التاريخي لا علاقة له بمضمون الإيمان بمصدرية النص القرءاني.

ولذا؛ يجب بدء عهد جديد من التوثيق يتعلق بالنص القرءاني كمحتوى ومضمون، وذلك بجعل الواقع آفاقًا وأنفسًا يشهدان على صوابه، وبالتالي فهو من عند الله عز وجل، ومن هذا المنطلق يجب على العلماء أن يتعاملوا مع النص القرءاني كنص حي مستمر في العطاء المعرفي، ويهدي للتي هي أقوم للمجتمعات الإنسانية، وهو نور نرى من خلاله، وهداية لنا وإرشاد.

فيجب دراسة كل موضوع قرءاني على حدة؛ نحو موضوع خلق الإنسان، فيقوم العلماء بإخراج الآيات المتعلقة بذلك وترتيبها حسب منظومة علمية، ويقومون بعملية إسقاطها على الواقع من جراء السير في الأرض والاستفادة من النتائج التي وصل إليها العلم،سواء أكانت قطعية أم ظنية، فالقطعي من العلم ينسجم ويتطابق مع النص القرءاني ضرورة علمية وإيمانية، والظني منه يؤخذ كمحاولة لفهم النص والدخول في فضائه.

والنتيجة أننا سوف نلاحظ أن العلم يشهد بصواب دلالة هذا النص، كما أنه يقر بعجزه وضعفه أمام ساحة فضاء دلالات النص القرءاني، وبالتالي يستمر العلم في رحلته الطويلة من الشك إلى اليقين ومن الظني إلى القطعي، يضيف شهادة تلو شهادة على صواب مصداقية النص القرءاني،وأنه رباني المصدر.

وهكذا في كل المواضيع التي تناولها القرءان، فالتطابق والصلاحية صفتان لازمتان للنص القرءاني على صعيد الآفاق والأنفس لا فرق بينهما، فالتشريع الذي جاء به النص القرءاني هو الأقوم والأصلح ولا مفر للمجتمعات الإنسانية- إن أرادت الفلاح والرشاد- من الأخذ به سواء آمنوا بمصدريته الربانية أم لم يؤمنوا، فالأنفع والأحسن هو الذي يدوم ويمكث في الأرض، ويفرض ذاته بذاته على المجتمعات الإنسانية دون قوة وإرهاب، وليس ذلك إلا من جراء انسجامه مع فطرة الناس وحاجتهم.

لذا؛ فإن عملية نقاش صواب النص القرءاني لا تكون من التراث وإشكالياته، وإنما تكون من خلال دراسته وتدبره، فإن كان فعلًا هو الأصلح والأقوم والأنفع والأحسن وخبره متطابق مع محل الخبر من الواقع، فلا شك أن هذا النص نص صالح نافع صادق في مصدريته الربانية، ولا يهم صفة الرواة له؛ لأنهم مجرد رسل قاموا بتوصيل النص إلينا.

وإذا استمر عمل العلماء على هذا النمط فإن مصداقية النص القرءاني ومصدريته الربانية سوف تدخل إلى دائرة التوثيق له من قبل المؤسسات والمراكز العلمية للمجتمعات الإنسانية كافة، ويصير الكفر بالنص القرءاني موقفًا غير علمي كموقف الذي ينكر كروية الأرض أو دورانها حول الشمس.

ولكن الموقف الكفري من القرءان يكون موقفًا إجراميًّا جاحدًا لا يريد صاحبه للمجتمعات الإنسانية تحقيق العدل والسلام والمحبة والأمان والحرية للإنسان؛ لأن ذلك لا ولن يتم إلا بالإيمان بالخالق المدبِّر ربًّا أحدًا صمدًا، وباليوم الآخر كبعث ومسؤولية، والالتزام بما أنزل الله من رسالة كاملة كأسس ومنطلقات وحدود لحركة الإنسان كفرد ومجتمع ليحقق وظيفته في الأرض التي منحها الله له، وهي مقام الخلافة.

القرءان الكريم آية النبي محمد الخالدة، فلقد جاءت كل آيات الأنبياء قبل محمد مادية بحيث إن عالم المحسوس (الظاهرة الطبيعية للآية) سبق عالم المعقول إمّا بفترة زمنية قصيرة، أو فترة زمنية طويلة الأمد[24]. وذلك لأن الإنسان في مراحل تطوره كان عالم المحسوس المباشر عنده أهم من عالم المعقولات، أي: أن المحسوسات سبقت المجردات المعقولات.

وهذا هو التطور الطبيعي التاريخي للمعرفة الإنسانية؛ لأن المعرفة الإنسانية تبدأ بالإدراك الفؤادي المشخص بحاستي السمع والبصر، ثم تنتقل إلى المجردات.

أما بالنسبة للنبي فقد كانت آية نبوته هي القرءان ذاته، أي: أن القرءان هو التصديق، وهو النبوة معًا، ولم تأته النبوة والآيات البينات منفصلًا بعضها عن بعض كما كانت بالنسبة لكل الأنبياء، النبوة والآيات البينات منفصلًا بعضها عن بعض.

لقد شكل القرءان من الكتاب معظمه، وبما أن محمدًا خاتم النبيين، فيجب أن

24 راجع الكتاب والقرءان للدكتور محمد شحرور

تبقى آيته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر صواب وأحقية القرءان بشكل واضح، فكانت آيته معاكسة تمامًا لآيات بقية الأنبياء، وذلك لأن:

1- نبوة محمد التي هي القرءان وسبق فيه الطرح المعقول عن المدرك من المحسوس بصياغة متشابهة. فكلما تقدم الزمن تدخل طروحات القرءان ضمن المحسوسات المدركة، وهذا ما يُسمَّى بالتأويل المباشر،أي: (مطابقة المدرك من المحسوس مع النص).

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 53].

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 67].

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: 39].

وهذا هو السبب الثاني في أنه سُمِّي قرءانًا من القراءة حيث إن السبب الأول هو المقارنة وهو قرن أحداث الطبيعة بأحداث التاريخ، وقراءتها لمعرفة القوانين التي تحكمها.

لقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30].

وعرفنا الآن أن في الكون كله لا يمكن أن يوجد مظهر من مظاهر الحياة دون وجود الماء(الرطوبة) وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: 33].

والفلك في اللسان العربي هو الاستدارة كقولنا: «فلك ثديا الفتاة» أي: استدارا، فكل شيء في هذا الكون من أصغر الجزيئات إلى أكبرها يتحرك ضمن أفلاك، أي: حركة غير مستقيمة(منحنية). هذا ما عرفناه الآن ووصفه القرءان قبل أربعة عشر قرنًا في عالم المعقولات، والآن صار في عالم المحسوسات والمعقولات معًا. ثم إنه قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:36].

لقد قال القرءان منذ أربعة عشر قرنًا ووضع في عالم المعقولات: إن هذا الكون قائم كله على الأزواج (قانون الزوجية) في كل شيء مطلقًا، في الذي نعرفه والذي لا نعرفه، وقد حذرنا من أن ننسى هذه الحقيقة: وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

ثم إنه وضع لنا في عالم المعقولات قوانين جدل المتناقضات والأزواج والأضداد. ولهذا سُمِّيت آيات النبوة قرءانًا من الاستقراء، فمن القرءان نستقرئ النظريات العلمية المادية والتاريخية، إضافة إلى أنه قرن الحقيقة الموضوعية المادية مع الحقيقة التاريخية.

والآن أريد أن أوجه سؤالًا: هل هذا الكلام هو من أساطير الأولين أو من أساطير الآخرين؟

قد يقول قائل: إن السادة المفسرين وعلماء المسلمين لم يشرحوه هكذا وأقول: هنا يظهر الوجه الثاني من إحكام القرءان وهو:

2- لقد حوى القرءان الحقيقة المطلقة للوجود بحيث تفهم فهمًا نسبيًّا حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يُحاول فهم القرءان فيه. فهو قد حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبي لهذه الحقيقة بآن واحد، وهذا لا يمكن لإنسان أيًّا كان أن يفعله.

فالمطلق عبَّر عنه ماديًّا في الصيغة اللسانية المحدثة (الذكر)، والنسبي جاء في المحتوى المتحرك في التأويل، وهذا ما نسمِّيه بخاصية التشابه.

فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية للعصر الذي عاش فيه ابن كثير فما علينا إلا أن نقرأ تفسيره، وإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر الصحابة فما علينا إلا أن نتبع تفسيراتهم وعلى رأسهم ابن عباس.

فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرءان لا المعرفة المطلقة، وهذا هو سر الإحكام الأكبر في القرءان وهو (التشابه).

3- أمّا الوجه الثالث من أوجه الإحكام فهو أننا نعلم الآن أنه يوجد نوعان من الصياغة اللسانية هما الصياغة العلمية الموضوعية كصياغة إسحاق نيوتن وألبرت أنشتاين وابن الهيثم لنظرياتهم، ويوجد الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية كصياغة شكسبير وبوشكين والمتنبي.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يمكن صياغة نظريات نيوتن وأنشتاين وابن سينا وابن الهيثم صياغة كصياغة المتنبي وبوشكين وشكسبير دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية ودون أن تكون على حسابها؟ إلى يومنا هذا لم نر هذا النوع من الصياغة، وهذا هو الوجه الثالث من الإحكام، والقرءان ذاته يقول: إنه لو كان المقصود بالإحكام الصياغة فقط دون المضمون لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرءان من الناحية الصنعية فقط.

وهذا ما جاء في قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود:13].

في هذه الآية جاء النوع الأول من التحدي وهو أن يكون الموضوع غير قرءاني والصياغة قرءانية. وهذا ما سماه بالافتراء، ففي هذه الحالة طلب عشر سور ووضع

الإحكام فيها،فيمكن أن نستنتج بالضرورة أن المفتري يمكنه أن يأتي بأقل من عشر سور. فهل هذا الإعجاز واقع على العرب وحدهم أو عليهم وعلى غيرهم؟

الجواب: على العرب وعلى غيرهم من الأقوام؛ لأن المطلوب هو الافتراء من الناس، كلٌّ في لسانه، العربي بالعربية والفارسي بالفارسية والإنكليزي بالإنكليزية وهكذا دواليك. فالمطلوب بالضبط هو أن يؤخذ موضوع غير قرءاني مفترى. مثال على ذلك قصة حب بين رجل وامرأة أو قانون علمي موضوعي كقانون الجاذبية، وتصاغ هذه القصة أو القانون بشكل قرءاني، أي: أنها يجب أن تحتوي على الشروط التالية:

1. أن تحوي على القوانين المطلقة للحب بشكل يفهمها كل قارئ حسب وعيه ومداركه عن الحب أي: أن تحتوي على علاقة جدلية بين المطلق والنسبي.
2. أن تكون فيها المعقولات عن الحب تسبق المحسوسات،(أي: الإخبار عن الحب سبق معلومات الناس عنه).
3. أن تصاغ صياغة فنية رفيعة.

هذه الشروط الثلاثة وبشكل خاص الشرطان الأول والثاني هي التي تسمح بالتأويل. هذه الخاصة نراها جزئيًّا عند عمالقة الأدب في العالم، وليس العلم من أمثال دوستويوفسكي وشكسبير والمتنبي حيث إنه على مر الأيام تعاد قراءة هؤلاء الأدباء في ضوء معطيات العصر. وقد يقول قائل:

إنه أمكن لهؤلاء تقليد القرءان بشكل افتراء.

أقول: غير صحيح للأسباب التالية:

لقد طلب في حالة الافتراء عشر سور، فإذا افترضنا أن السورة مؤلفة من ثلاث آيات فقط حيث إن أصغر سورة في القرءان مؤلفة من ثلاث آيات فقط، وحيث إن

الآية قد تحوي وحدة المعنى، فهذا يعني أن المطلوب هو ثلاثون موضوعًا مفترى، وأن تصاغ صياغة قرءانية على شكل آيات تحتوي الشروط المذكورة أعلاه.

فمثلًا أحد المواضيع يمكن أن يكون في تاريخ مدينة دمشق، يصاغ بشكل مطلق لمدينة دمشق، بحيث إذا قرأه إنسان يراه مطابقًا لمستوى معلوماته التاريخية عن دمشق، وإذا قرأه إنسان بعد خمسين عامًا يراه مطابقًا وهكذا. «هذا مثال عن القصص والتشابه فيه».

هذا ينتج عنه بالضرورة المعقول قبل المحسوس وهو الذي نسمِّيه بالغيبيات. هذا النوع الأول من الإعجاز الذي طلب فيه عشر سور مفتريات تحتوي على نص على شكل آيات.

والآية كما جاءت في الكتاب لها معنيان منفصلان:

المعنى الأول: الآية في المصحف هي النص اللساني كمبنى المتعلق بالبينات والأخبار والكونيات ولا يشترط لها أن تكون بين فاصلتين فممكن أن تكون عدة جمل تشكل آية، فالضابط لها هو تمام وكمال المعنى.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: 15].

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: 92].

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:29].

وقوله: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:1].

المعنى الثاني: الآية بمعنى الظاهرة المادية في الطبيعة حيث إن ظواهر الطبيعة تُسمَّى آيات الله وفي هذا المعنى جاءت في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:101].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:73].

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105].

وقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:91].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20].

المعنى الثالث: الاثنان معًا: الآيات التي تتلى والظواهر المادية وذلك في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6].

حيث كانت قبلها الآيات عن الليل والنهار وتصريف الرياح وخلق الإنسان. لذا، فإن مقومات الآية القرءانية المراد تقليدها (الافتراء) هي:

1. ثبات الصيغة اللسانية.

2. حركة المحتوى بشكل يتناسب مع معقولات القارئ العالم، وهذا ما يُسمَّى بالتشابه.

3. أن يكون الموضوع غير تشريعي. حيث إن القرءان لا يحتوي على مواضيع تشريعية.

هذا فيما يتعلق بالسور العشر المفتريات. أما فيما يتعلق بالسورة الواحدة فجاء التحدي على شكلين: الشكل الأول في قوله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:38].

المطلوب في هذا التحدي هو سورة واحدة فيها كل الشروط المذكورة أعلاه، بحيث يكون الموضوع قرءانيًّا والصياغة قرءانية وموضوع القرءان هو القوانين المطلقة للطبيعة والتاريخ، فالمطلوب بهذا التحدي صياغة قوانين جدل الطبيعة وجدل التاريخ صياغة جدلية بحيث تُفهم هذه الصياغة حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي تُقرأ فيه.

والشكل الثاني والذي جاء على شكل سورة واحدة هو في قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

هذا النوع من التحدي يختلف عن النوع الأول حيث قال:

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾. أما هنا فقال:﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. هنا يبين حقيقة التنزيل بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾.

وقد شرحت سابقًا معنى التنزيل بأنه نقلة خارج الوعي، والتنزيل بالنسبة للقرءان جاء بعد الإنزال، أي: أن الصيغة القرءانية صيغت عربية خارج وعي محمد، وهذا هو الإنزال، ثم جاء القرءان من خارج وعي محمد مصاغًا جاهزًا إلى وعيه عن طريق الوحي على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهذا هو التنزيل.

فهنا جاءت الآية للذي يشك في التنزيل، وبما أن التنزيل جاء للكتاب، ومن ضمنه القرءان وهو أكثر من سورة لذا قال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾.

فالذي يعتقد أن القرءان كان من محمد محتوى وصياغة، فما عليه إلا أن يحاول أن يأتي من مثل هذا الذي يشك بأنه وحي مع التقيد بالشروط المذكورة سابقًا؛ لأن كل شيء من صنع الإنسان يمكن أن يتجاوز، وهنا لم يطلب التجاوز، وإنما طلب المماثلة التي هي أقل من التجاوز.

أما التحدي الأكبر فهو اجتماع الإنس والجن قاطبة لغاية واحدة وهي الإتيان بمثل هذا القرءان، أي: لو جند الإنس والجن علماءهم وأدباءهم ومعاهد أبحاثهم لهذه الغاية فقط فإنهم مع ذلك لا يستطيعون تحقيقها.

إنه من الخطأ القول كما قال بعضهم: إنه تحدى العرب بالقرءان، فعندما عجزوا تحداهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة، والخطأ في ذلك أن كل آية من آيات التحدي تمثل نوعًا من التحدي مختلفًا عن الآخر، والتحدي في كل أنواعها لم يكن للعرب وحدهم وإنما كان للناس جميعًا [25].

25 نقلًا عن كتاب د. «محمد شحرور» بتصرف – الكتاب والقرءان – قراءة معاصرة.

شروط تحدي الإتيان بنص قرءاني

نزل القرءان ذكرًا صوتيًّا هداية للناس واحتوى معه كتاب هداية للمؤمنين يتعلق بالأحكام وألَّفا مع بعضهما الكتاب الإلهي المعروف بالمصحف اصطلاحًا، وأنزله الله للدراسة والتدبر وليس لإعجاز أحد، ولكن تحدَّى الكافرين به الذين أنكروا مصدريته الربانية أن يأتوا بمثله طالما هو كلام بشر كما يزعمون، لأن ما صنعه البشر يمكن أن يصنعه بشر آخر، وإن لم يفعلوا ولن يفعلوا يكون ذلك برهانًا على كذبهم وصدق مصدرية الكتاب أنه من عند الله.

وشروط التحدي تتعلَّق بمواصفات الكتاب الإلهي ذاته ومضمونه، ولنرى تلك المواصفات المطلوب تحققها بالنص لمن يريد أن يأتي بمثل القرءان:

1. موضوع النص علمي كوني آفاقًا وأنفسًا؛ لأن القرءان مضمونه علمي وهو برهان نبوة محمد وبرهان مصدريته الربانية.
2. أن يكون النص أقل شيء يتألف من ثلاثة مواضيع كون التحدي أتى بالإتيان بسورة واحدة مثله وأصغر سورة هي سورة الكوثر تحتوي ثلاثة مقاطع.
3. أن تكون المواضيع تغطي الحدث أو الخبر من بدئه إلى منتهاه.
4. أن يبقى النص صالحًا للدراسة خلال سيرورة الزمن وصيرورة العلم والأحداث عند المجتمع الإنساني ومستمرًا في عطائه مع كل التغيرات والتطور المعرفي.

5. أن لا يثبت فيه ولا أي خطأ بين خبره ومحل الخبر من الواقع مع تطور العلوم والمعارف

6. أن لا يوجد فيه أي تناقض منطقي داخلي في نصه.

7. أن يكون المبنى للنص مصاغ بلسان عربي مبين يحمل المعنى الموافق للواقع صوتيًّا حيث يصير النص صورة صوتية لسانية للحدث.

8. أن يكون النص محكمًا في صياغته اللسانية خاليًا من الترادف والمجاز والعبث والحشو

9. أن يصاغ النص بشكل أدبي عالي الجودة وله وقع على الأذن ويؤثر نفسيًّا على سامعه.

التحدي مفتوح ومستمر لمن ينكر مصدرية القرءان أنه من عند الله.

القرءان واللوح المحفوظ
والعلاقة بينهما

إن مفهوم اللوح المحفوظ من المفاهيم التي أصابتها ضبابية كبيرة لدرجة خفاء هذا المفهوم في التراث وتفسيره بشكل غيبي مع ربط عالم الشهادة به بصورة ملفقة أدت إلى ظهور عقائد وهمية على درجة من الخطورة حيث صارت مع الزمن قاعدة مسلمة لدى المجتمعات اللاحقة التي بنت عقيدتها وفكرها عليها.

ومن أهم تلك المفاهيم مفهوم الكتابة المسطورة لكل ما يحدث في هذا الوجود بأبعاده الثلاثة، وذلك قبل وجودهم في الواقع، بل قبل أن تتوجه إرادة الله عز وجل لفعل الخلق – كتابة أزلية – والمفهوم الآخر هو أن القرءان موجود قبل نزوله إلى النبي محمد في اللوح المحفوظ، وكون اللوح المحفوظ أزلي حسب اعتقاد السلف اقتضى أزلية كل ما هو موجود فيه، وبالتالي فالقرءان أزلي من هذا الوجه!

وهذا الطرح التراثي الهزلي كان أحد الأسباب الذي دفع المستشرقين ومن اتبعهم إلى نقض النص القرءاني والتشكيك بمصدريته الإلهية، والتشكيك بحفظ متنه عن التحريف سواء أكان ذلك من منطلق الدراسة الموضوعية أم من منطلق خبيث المقصد منه تشكيك المسلمين بمصداقية كتابهم ناهيك عن تشكيل حاجز إشكالي يمنع الناس من الإيمان به.

ولدراسة مفهوم اللوح المحفوظ يجب استبعاد الفهم السطحي والهزلي عنه أولًا، وفرز المفهوم التراثي ثانيًا، وعدم التأثر بما هو سائد على ألسنة الناس من استخدامات

لدلالة الكلمات؛ لأن هذه الاستخدامات تخضع لعملية الحياة والموت حسب التطور والحاجة.

قال تعالى:

1. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج:21- 22].
2. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: 3-4].
3. ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة 77 – 78].

لاحظ علماء السلف أن حرف (في) يتكرر في النصوص الثلاثة:

[في لوح محفوظ]، [في أم الكتاب]، [في كتاب مكنون].

ومن دلالة حرف (في) الظرفية وكون الكلام عن القرءان وهو النص المتلو بين أيدينا قالوا:

إن هذه الصفات الثلاث إنما هي لشيء واحد وهو اللوح المحفوظ، وأحاطوا اللوح المحفوظ بمفاهيم غيبية وأعطوه صفات لا تكون إلا للخالق المدبر نفسه، نحو صفة الأزلية والإحصاء لكل ما كان ويكون وسيكون بشكل كتابة فيه، ولأن القرءان موجود في اللوح المحفوظ ظهرت إشكالية أزلية القرءان – كلام الله – قبل أن ينزل على محمد وجرى الصراع الثقافي بين التيارات الإسلامية حول مسألة خلق القرءان وأزليته.

والملاحظ أن مفهوم أزلية القرءان أو حدوثه في التراث قد انبنى على مفهوم صفة كلام الله والمفهوم التراثي للوح المحفوظ. إذنْ، المشكلة تكمن في التراث وطريقة

تناول البحث، وهذا الإشكال كان السبب الرئيس لفتح باب الهجوم والطعن في صحة ومصداقية القرءان وصلاحيته لكل زمان ومكان.

لذا؛ اقتضى إعادة الدراسة لهذا المفهوم من جديد من خلال القرءان ذاته واللسان بأبعاده مع مراعاة عامل التاريخ،وكل ذلك بمنهج علمي منطقي إمامه الواقع (آفاقًا وأنفسًا).

وإذا تم إغلاق هذا الباب الذي دخل منه الهراء والتهافت الفكري، فَقَدَ - بطبيعة الحال- الطرح الإشكالي المتهافت قيمته العلمية لعدم جدواه في واقع الحال، وانتفاء المبرر له وإلغاء السبب يبطل المسبب حتمًا.

قال تعالى:﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: 3].

والجعل هو تغيُّر في الصيرورة وليس عملية خلق جديد للشيء ابتداء، انظر قوله تعالى:

1. ﴿ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124].

وهذا خطاب للنبي إبراهيم وهو حي يرزق، وكيف منحه الله عز وجل مقام الإمامة بعد أن لم يكن إمامًا.

وانظر أيضًا:

2. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24].

3. ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:50].

4. ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: 67].

5. ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:77].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

يدل بشكل واضح وصريح على وجود القرءان موضوعيًّا قبل جعله بصورته اللسانية، إذن للقرءان صورتان في واقع الحال:

الأولى: الوجود الموضوعي، الثانية: الوجود اللساني. وكلاهما قرءان في واقع الحال، وهذا الكلام يوصلنا بشكل مباشر لمعرفة وتفسير النصوص الثلاثة المذكورة سابقًا المتعلقة بالقرءان، ولنبدأ بقوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 3 – 4].

فالنص الأول كما ذكرنا من خلال تعريف عملية (الجعل) يدل على أن القرءان كان موجودًا بشكل موضوعي، ومن ثم أضاف الله عز وجل لوجود القرءان موضوعيًّا صفة الوجود اللساني ليصير القرءان ذا بعدين الأول: وجود موضوعي، والآخر وجود لساني.

وهذا يدل على أن القرءان بالبعد الموضوعي سابق في وجوده عن القرءان بالبُعد اللساني، كما أن القرءان اللساني لاحق للقرءان الموضوعي وهو صورة لسانية عن القرءان الموضوعي.

أما النص الثاني ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فالكلام عن القرءان اللساني المجعول عن القرءان الموضوعي، يخبرنا الله عز وجل أن هذا القرءان المجعول

هو من حيث المعنى والمقصد والجوهر والحقيقة موجود في أم الكتاب، فماذا تعني أم الكتاب؟

الأم لسانًا: هي الأصل والمرجع للشيء. ومن ذلك نقول عن الوالدة أم؛ لأنها أصل لأولادها وكذلك نقول عن الرجل إمام إذا كان في مقام القيادة والتوجيه للناس، وهم متبعون له في سلوكهم وأفكارهم ويرجعون له بكل شيء.

فالنص يخبر أن القرءان اللساني موجود في أم الكتاب أي موجود من حيث الجوهر والموضوعية في أم الكتاب، وذلك قبل جعله بصورة لسان، فإذا أردنا أن نعرف هذه (الأم) التي هي أصل ومرجع للصورة القرءانية اللسانية، فما علينا إلاَّ أن نسارع في قراءة النص القرءاني، ونرجعه إلى أصله (محل الخطاب من الواقع) لنصل في النهاية إلى أن أمَّ القرءان اللساني هي الآفاق والأنفس، وذلك أشبه بالصورة الشمسية للإنسان من كونها عكسًا ظليًّا له.

فإذا أردنا أن نعرف صاحب هذه الصورة (الأصل لها) يجب إسقاطها على الواقع البشري والقيام بعملية السبر والتقسيم بين الناس لمعرفة صاحب الصورة الذي هو أصل ومرجع لها ويتمتع بوجود حقيقي موضوعي قابل للدراسة بخلاف صورته، فإنها ليست إلا صورة ظلية تقوم بعملية الدلالة والإرشاد للأصل (الأم).

وهكذا النص القرءاني هو صورة لسانية يدل على أصله ومرجعه (الآفاق والأنفس).

إذنْ؛ الآفاق والأنفس هما الكتاب المذكور في النص، وكلمة (أم الكتاب) يقصد بها الأصل والمرجع للآفاق والأنفس، وهذا إشارة إلى القوانين الناظمة للوجود كله؛ إذ هي أم له تشرف عليه ويسير بحسبها.

قال تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلً﴾ [الأحزاب: 62].

﴿ ... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

فهذه السنن الناظمة للوجود هي أم الآفاق والأنفس كونها أصلًا ومرجعية للكون الثابت والمتغيِّر. فتصير جملة﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وصفًا وإخبارًا من الله عز وجل بأن القرءان اللساني موجود من حيث الأصل والمرجعية في مجموعة السنن الناظمة للخلق التي هي أم الآفاق والأنفس حقيقة، وما القرءان اللساني إلا صورة لهذه الأم بشكل لساني حتى تكون قابلة للتلاوة والسماع.

وبعد معرفة تفسير (أم الكتاب) تسهل معرفة تفسير اللوح المحفوظ، والكتاب المكنون، فما هو اللوح المحفوظ؟

لوح: لسانًا تدل على الظهور بشكل لامع. ومنه قولنا: لاح الشيء، إذا ظهر بشكل لامع. فيكون المقصد من قوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ على الشكل التالي:

إن كلمة القرءان لم تحدد هنا بالقرءان المتلو (اللساني) مما يدل على أنها تتناول القرءان ببعديه الموضوعي واللساني، فكلاهما في لوح محفوظ بمعنى أن الآفاق والأنفس هما اللوح الذي تمَّ فيه حفظ القرءان ببعديه، وذلك من خلال القوانين الناظمة للخلق حيث جعلها الله دائمة ومستمرة غير قابلة للتبديل أو التحويل عن سيرها، فمن يستطيع من الخلق أن يحرف آية الشمس في سيرها من المشرق إلى المغرب؟ قطعًا لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك، بل لا يحاول أصلًا لإدراكه لعجزه وضعفه اللازم لوجوده.

فهذا القرءان الموضوعي محفوظ في واقع الحال فجاءت صورته اللسانية مرتبطة به كونها إخبارًا عنه فأخذت الحكم ذاته من حيث الحفظ، لأن أي تبديل أو تحريف في القرءان اللساني يظهر مخالفته بشكل واضح للقرءان الموضوعي.

وبالتالي يظهر كذبه وبطلانه، وأن هذا النص اللساني ليس من عند الله الخالق المدبر ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

والكلام عن القرءان اللساني يخبر الله عز وجل أن هذا النص القرءاني لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا ضرورة مع أصله ومرجعيته الذي هو القرءان الموضوعي (آفاقًا وأنفسًا).

إذنْ؛ التطابق بين النص القرءاني والقرءان الموضوعي شيء لازم ضرورة كونهما من مصدر واحد الذي هو الخالق المدبر:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [تبارك:14].

ومن خلال هذا العرض بدأت الغشاوة تزول عن الأعين ويلوح الفهم للنص القرءاني، ولنرَ ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (78) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 75-79].

ينفي الله عن نفسه القسم بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها، ويخبر أن هذه المواقع (الفواصل بين آيات الكتاب المتلو أو مواقع النجوم في السماء أو كلاهما) هي على درجة من العظمة والأهمية وبصرف النظر عن دلالة كلمة النجوم في الواقع.

فهذا بحث آخر لسنا في صدده يخبر الله عز وجل أن القرءان الكريم في عطائه المعرفي موجود في كتاب مكنون، وكوننا قد عرفنا مكان القرءان قبل جعله قرءانًا عربيًّا أنه في أم الكتاب واللوح المحفوظ اللذين هما في واقع الحال الآفاق والأنفس والسنن الناظمة لهما؛ مما يدل على أن جملة (في كتاب مكنون) يقصد بها مجموعة السنن الناظمة للكون.

وكلمة (مكنون) تدل على الستر والصون؛ مما يؤكد أن هذا القرءان اللساني مصان من أيدي العابثين المجرمين كونه موجودًا في أم الكتاب واللوح المحفوظ بصورته الأصلية الموضوعية المحفوظ بقوانينه المستورة، ويكمل الله عز وجل النص أنه لا يستطيع أحد أن يكشف هذه القوانين المستورة المحفوظة إلا العلماء، وهذا دلالة ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ لأن المس هو الجمع المتصل بحركة حرة للشيء، والطهارة: هي النقاء والصفاء.

فالإنسان لا يستطيع أن يضع يده على القانون الإلهي ويدركه في الواقع ويكشفه من ستره إلا إذا كان نقيًّا وصافيًا في تفكيره ومنهجه العلمي والموضوعي من أية شوائب نحو الآبائية، والأكثرية، والخرافات.. ولذلك قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:28].

وهذه نماذج من آيات الذكر الحكيم لتوسيع الفكرة وتوضيحها:

1- ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39].

كلمة يمحو ويثبت فعل مضارع مما يدل على الحدوث في الحاضر والمستقبل، والنص القرءاني نص مستمر في العطاء؛ مما يدل على استمرار فعل المحو والإثبات، وليس هو خاصًا لزمن دون آخر، وصفة المشيئة جاءت بصيغة (يشاء) كذلك فعل مضارع تدل على الاستمرار في الحدوث، ودلالة شاء هي للاحتمال والتخيير بخلاف صفة أراد فهي للقصد والعزم والتحديد لشيء بعينه؛ مما يدل على أن فعل المحو والإثبات لم يتحدد بعد ويتعين في الواقع، وإنما هو أمر مناط بمشيئة الله عز وجل، وهذا محله القرءان الموضوعي (آفاقًا وأنفسًا) فهو محل لعملية المحو والإثبات حسب مشيئة الله وذلك مرتهن بكل أمر في حينه.

قال تعالى:

1- ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21].

2- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: 24].

أما أم الكتاب فالمقصود بها مجموعة السنن الكلية الناظمة للوجود، فهي ليست بمحل للمحو والإثبات؛ لأن الله عز وجل جعلها دائمة مستمرة ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:43]

إذنْ؛ المحو والإثبات هما للقوانين الجزئية الاحتمالية في الواقع التي لها أكثر من احتمال نحو نزول الأمطار في زمان ومكان معين، وإطالة عمر فلان أو تقصيره وما شابه ذلك من الأمور، فكلها مرتهنة بمشيئة الله عز وجل ويقوم الإنسان بدفع أقدار الحق بالحق للوصول للحق- تدافع الأقدار ببعضها - دفع قدر المرض بقدر الصحة، وقدر الجهل بقدر العلم، وقدر التخلف بقدر النهضة.

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (13) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: 11- 16].

إن موضوع الإيمان بالله واليوم الآخر والانقياد لشرعه أمر تحت متناول أيدي الناس جميعًا ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ وهذا الأمر - الإيمان - موجود ومتوفر من خلال السير في الأرض ودراسة الحقيقة، وهذا ما دل عليه جملة:

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾

لأن الصحف جمع صحيف وتطلق على وجه الأرض، أما جملة:

﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾

فهي الحقيقة الصافية النقية المرفوعة عن كل دنس أو شائبة أو تحيز لأحد، وجملة ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ المقصود بها بأيدي العلماء (بقوتهم وأدواتهم) الذين يسفرون عن الحقيقة ويكشفونها للناس ويمارسون دور السفراء في الأرض لدعوة الناس إلى الحق والسلام والأمن والعدل والمحبة، وجملة ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ صفة لهؤلاء العلماء الذين لا يبخلون بعلمهم على أحد ويقومون بأعمال البر والإحسان والتواصل مع الناس لنشر السعادة والمحبة في الجنس البشري.

3 –﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: 91].

إن كلمة (عضين) من التعضية وهي تدل على التفريق والتجزيء، وكلمة القرءان لم تحدد بالنص المتلو؛ مما يؤكد على اشتمالها على الدلالتين: القرءان الموضوعي، والقرءان اللساني، ويكون المقصد من النص هو التحذير من التفريق بين بُعدي القرءان: الموضوعي واللساني والمحكم والمتشابه فيهما أثناء الدراسة؛ لأن هذه التعضية للقرءان عن بُعده الموضوعي تجعله نصًّا لسانيًّا جامدًا مفرغ المحتوى ليس له أي قيمة.

كما أن الدراسة للقرءان الموضوعي دون بعده اللساني تصير مادية لا روح فيها مخلدة إلى الأرض لا تسمو إلى السماء، كما أن الدراسة لكليهما اعتمادًا على المتشابه دون المحكم يؤدِّي إلى الفتنة والضلال.

4 – ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان: 30].

إن كلمة القرءان في النص لم تحدد بدلالة لأحد البعدين؛ مما يدل على أنها تشمل البُعدين للقرءان معًا – الموضوعي واللساني – فكلاهما قرءان وعملية الهجر لم تكن

للبعد اللساني، وإنما كانت للبعد الموضوعي الذي هو أصل للبعد اللساني، وإذا تمَّ ذلك في الواقع فإن عملية الهجر تكون حاصلة للقرءان كون النص اللساني لا يمكن دراسته وفهمه دون إرجاعه إلى أصله الموضوعي.

ومن هذا الوجه أطلق الله عليه اسم قرءان وهو من قرن الشيء بالآخر وضمه إليه قراءة وتدبرًا، وليس هو إلا الجانب الموضوعي والآخر المتلو وكلاهما يشكلان القرءان، ولا يستغني الإنسان عن أحدهما في دراسته ونهضته لتحقيق السعادة والفلاح في المجتمعات الإنسانية، ويكون ذلك من جراء ضم أحدهما للآخر والقيام بعملية القراءة لهما من خلال إسقاط النص على محل خطابه من الواقع ؛ لأن القراءة هي تفكر وتدبر للشيء سواء رافقه نصٌّ متلوٌّ أم لا.

5 - ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

إن كلمة الذكر تطلق على ما أنزل الله عز وجل على نبيه بواسطة الوحي الذي شمل الكتاب كله قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1].

فأطلقت كلمة الذكر على محتوى الكتاب كله؛ لأنه قابل للذكر بشكل صياغة صوتية (تلاوة) مع وجود صفة التدبر والتذكر.

فيكون المقصد من حفظ الذكر هو حفظ مادة الوحي كلها، وذلك من خلال ربط النص المتلو مع محل خطابه من الواقع، وحفظ الرسالة التشريعية الموجهة للمجتمع الإنساني من خلال وضعها وتفصيلها بين آيات القرءان، فشملها الحفظ الموضوعي بجانب كونها سننًا اجتماعية متعلقة بالأنفس، نحو قانون النفعية والأحسنية فالواقع كفيل بغربلة وفرز الخطأ ﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

هذا هو مفهوم اللوح المحفوظ، والكتاب المكنون، وأم الكتاب. وقد بينا علاقة اللوح المحفوظ مع النص القرءاني، وأنه علاقة الشيء بصورته، علاقة الأصل بالنسخة عنه.

وبهذا الطرح سقط وبطل أي استغلال لمفهوم اللوح المحفوظ بالمعنى التراثي لنقض النص القرءاني والتشكيك بمصدريته الإلهية أو التشكيك بحفظه كنص لساني؛ لأن مفهوم التراث لا يمثل حقيقة المفهوم موضوعيًّا، وإنما هو مجرد رأي زمكاني ضمن معطيات المجتمع حينئذ غير ملزم به أي مجتمع لاحق.

المحكم والمتشابه في الكتاب

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

إن كلمة الكتاب شاملة لكل ما أنزل الله على رسوله مما هو موجود بين دفتي المصحف مع مختلف مواضيعه.

يخبر الله عز وجل أن الكتاب يحتوي على آيات محكمات عدَّها الله عز وجل أم الكتاب، وآيات أخرى متشابهات، وأخبر أن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون الآيات المتشابهة بقصد الفتنة، وبقصد تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. ولنرَ الآن معاني مفردات النص:

1. محكمات: من حكم وهي أصل واحد هو المنع. وسُمِّي الحكم حكمًا؛ لأنه يمنع من الظلم.
2. متشابهات: من شبه أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونًا ووصفًا. والمشتبهات من الأمور، أي: المشكلات.
3. الأم: الأصل والمرجع.
4. الكتاب: من كتب وهي تدل على الجمع وسُمِّي الكتاب كتابًا؛ لأنه يجمع ما

بداخله من الأمور المرتبطة مع بعضها، فنقول: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة. أي: مجموعة الأمور المتعلقة بهما.

5. زيغ: أصل يدل على ميل الشيء.

6. الفتنة: من فتن، أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار.

7. تأويل: من أول: أصلان: ابتداء الأمر، وانتهاؤه.

فالآيات المحكمات هي الآيات ذات الدلالة المانعة للبس والإشكال وهي بمجموعها تمثل الجانب الثابت للكتاب من حيث المفهوم، ومن هذا الوجه كانت هذه الآيات أصلًا ومرجعًا للآيات المتشابهة لتقوم بضبطها من حيث الدلالة واستبعاد الخطأ في الفهم لها مع السماح بتطور فهمها ضمن مفاهيم الآيات المحكمة.

ولذلك أطلق الله عز وجل على الآيات المحكمات وصف (أم الكتاب)؛ لأنه تحققت بها صفة الأصل والمرجعية للآيات المتشابهة التي تمثل الجانب المتغيِّر في الكتاب حسب تغيُّر الزمان والمكان والتطور المعرفي للمجتمعات.

أما الذين في قلوبهم زيغ عن الحق فيقومون باتباع الآيات المتشابهة دون إرجاعها إلى أمها الآيات المحكمات، ويقصدون من عملهم هذا نشر الفتنة بين الناس، وذلك من خلال طرح الموضوع اعتمادًا على الآيات المتشابهة فقط دون الرجوع إلى الآيات الأم التي هي الأصل والمرجع لأي موضوع،نحو اعتماد بعض الباحثين على آية ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

ويجعل هذه الآية أصلًا ومرجعًا ويضرب آيات الكتاب ببعضها ليصل إلى أنه يوجد تناقضًا بين آيات الكتاب، فما تثبته آية تنقضه أخرى، ووجود هذه الصفة

بالكتاب هي التي ساهمت في صياغة أسباب النزول ومفهوم المحكم والمتشابه للخروج من هذا المأزق! هكذا زعموا.

لذا؛ لا يصح اقتطاع نص من القرءان وفهمه وحده، بل لا بُدَّ من فهم النص ضمن منظومته الكلية كونها الأصل والمرجع للنصوص الجزئية والمتشابهة، ومن هذا الوجه ظهرت مقولة أن الكتاب يفسر بعضه بعضًا، وظهرت أهمية ترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد وجعل الآيات المحكمات هي الأصل والمرجع للدراسة، وعلى ضوئها يتم تفسير الآيات المتشابهة.

أمَّا أصحاب الزيغ فيقصدون من اتباعهم للآيات المتشابهة دون المحكمة الوصول إلى تأويلها في الواقع، بمعنى ادِّعاء معرفة سقف دلالة هذه الآيات في الواقع، وذلك كي يفرغوا الكتاب برمته من الصلاحية والاستمرار الزمكاني؛ لأن توقف العطاء المعرفي للكتاب الإلهي يؤدِّي في واقع الحال إلى انتهاء دوره عند آخر عطاء معرفي له.

وبالتالي يصير تاريخًا وموروثًا دينيًّا للشعوب غير صالح للاستمرار والاعتماد عليه، ومن جراء ذلك التأويل السقفي يتم استبعاد الكتاب من الحياة ووصفه بعدم الصلاحية للزمان المعاصر؛ لأنه قد تمَّ تجاوزه معرفيًّا، وهذا ما قام به المستشرقون ومن حذا حذوهم من الباحثين العرب.

وكون موضوع التأويل يقصد به معرفة السقف المعرفي للآيات المتشابهة، فمن الطبيعي جدًّا أن تأتي جملة (وما يعلم تأويله إلا الله) لأن هذه المعرفة السقفية للآيات مرتهنة بتوقف الحياة والتطور المعرفي والأدواتي، ولا يستطيع أي مجتمع أن يدَّعي أن التطور المعرفي توقف عنده أو الحياة انتهت ولا يوجد مجتمع لاحق يرث المجتمع الحالي.

فمن هذا الوجه كان الذين في قلوبهم زيغ عن الحق يتعمدون التدليس على

المجتمعات ويَدَّعون انتهاء التاريخ[26] بهم وعندهم ويطالبون المجتمعات الباقية باتباعهم في زيغهم، بل ويقومون بالوصاية على المجتمعات اللاحقة واغتيال عقولهم وتفكيرهم سلفًا، وكل ذلك من جراء اتباع منهج قائم في كل شيء على النسبية والتغير لا يخضع ولا يعتمد على جانب ثابت يكون أساسًا للمنهج والموجه له في عملية التغير والتطور.

أما الراسخون في العلم فيعلمون أن الحياة قائمة على جانب ثابت وآخر متغيِّر فيؤمنون بالجانب الثابت (الآيات المحكمات) ويقومون بدراسة الآيات المتشابهة من خلال إرجاعها إلى الأصل والمرجع (أم الكتاب) مع عدم ادِّعاء الوصول إلى السقف المعرفي لهذه الآيات، وإنما يتفاعلون معها حسب أدواتهم المعرفية ويكلون المعرفة الحقيقية لله عز وجل، فهو وحده العالم بحقائق الأمور ابتداء وانتهاء (التأويل).

فالآيات المحكمات (أم الكتاب) هي الجانب الثابت للكتاب وبها يتم التواصل مع المجتمعات السابقة واللاحقة، أما الآيات المتشابهة فهي الجانب المتغيِّر النسبي الذي يضمن التطور للمجتمعات، وبوجود الثابت والمتغيِّر - المحكم والمتشابه - يتم التواصل والتطور، السيرورة والصيرورة.

ولمعرفة الآيات المحكمات من الآيات المتشابهة يجب أن يكون هناك ميزان خارج النص القرءاني يكون محلًّا للتسليم من قبل الباحثين المختلفين في الرؤى والمرجعيات، وذلك يؤدِّي إلى أن يكون المحكم عند فلان متشابهًا عند الآخر، وذلك راجع إلى منهج تناول الآيات ودراستها؛ لأن جميع الآيات- في النهاية - هي نص إلهيٌّ مقدس.

فالمنهج والميزان والمعيار الذي يجب أن يكون مستخدمًا في عملية تمييز المحكم من المتشابه إنما هو القرءان الموضوعي - الآفاق والأنفس - كونه محلًّا للخطاب كما أن الفعل - الواقع- دائمًا أصدق وأصرح وأبين من النص اللساني، ولأن فهم النص

26 نحو كتاب: نهاية التاريخ لفوكو ياما.

تؤثر به ثقافة الدارس له، وهذا التفاوت الثقافي والعلمي والعقلي والنفسي، ناهيك عن المصالح والهوى عند الباحث يؤدِّي حتمًا إلى الاختلاف في قراءة النص، ويؤثر في عملية ترتيب منظومة النصوص ذات الموضوع الواحد.

فلذا لا مناص من جعل الواقع - آفاقًا وأنفسًا - هو المعيار لقراءة النص، وبناء عليه يتم ترتيب منظومة النصوص ذات الموضوع الواحد لجعل النصوص المحكمة أساسًا وقاعدة وإطارًا لفهم النصوص المتشابهة بشكل نسبي يتناسب مع الأرضية المعرفية للباحث، والنتيجة هي الوصول إلى فهم ظني نسبي متغيِّر حسب تغيُّر الزمكان وتطور الأدوات المعرفية للمجتمعات مع دوام فعالية النصوص المحكمة كونها قاعدة ثابتة تستمد مصداقيتها من شهادة العدلين اللذين هما محل ثقة وصدق من الجميع (الآفاق والأنفس).

أما نصوص الرسالة فلا يوجد فيها آيات متشابهة؛ لأن الحكمة تقتضي وضوح الأحكام وقطعية دلالتها ليتم الحساب على موجبها، فهي نصوص محكمة وأخرى تابعة لها كتفصيل.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87].

لقد ذهب السلف في تفسير هذه الآية إلى عدة مقولات من أشهرها:

1. أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة، خاصة أنها مؤلفة من سبع آيات.
2. وذهب آخرون إلى أن السبع المثاني هي سبع سور طويلة ابتدئ بها ترتيب النص القرءاني وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال.

أما في الدراسات المعاصرة فلقد ذهبوا مذهبًا مغايرًا للسلف في تفسير الآية، فقيل:

إنها إخبار عن وجود سبع نظريات كلية أساسية قام عليها الوجود كله، وللعدد سبعة ميزة خاصة فعدد أيام الأسبوع سبعة، والسموات سبع، والأراضي سبع، والفاتحة سبعة آيات، وعدد سور القرءان (114) من مضاعفات العدد سبعة... إلخ.

وقال باحث[27]: إن عدد سبعة في الآية يخبر عن وجود سبعة أشياء قابلة لعملية التثنية بحيث يصير المجموع أربعة عشر، وهي من مضاعفات العدد سبعة، ومن عملية تثنية، أي: (7×2 = 14) وكون القرءان معطوفًا على السبع المثاني؛ مما يدل على أنها ليست من النص القرءاني وإنما هي شيء غيره، وليست هي إلا الأحرف التي تمَّ ابتداء مجموعة من السور بها، نحو:

(ألم، كهيعص، حم) وهذه الأحرف ليست هي لسانية وإنما هي عبارة عن مقاطع صوتية، ومن ثم قام بجمع الأحرف من بدايات السور وحذف المكرر فوصل إلى أنهم أربعة عشر حرفًا، وقال: إن هذه المقاطع الصوتية هي الحد الأدنى لتأسيس أية لسان في العالم وهي الحد الأدنى للتخاطب بين العقلاء.

ويوجد مقولات أخرى في تفسير الآية لسنا في صدد سردها جميعًا أو تقويمها، وإنما لاحظنا أن القاسم المشترك بينها في التفسير هو انطلاقهم من أن دلالة كلمة (سبعًا) هي للتعداد وبناء على ذلك قاموا بتفسير الآية.

أما أنا فلقد انطلقت من وجود احتمال أن تكون دلالة كلمة (سبعًا) ليست عددًا.

فقمت بعملية سبر وتقسيم لمجموعة من الكلمات التي تبدأ بحرف (س، ب) وهي:

1. سبح: من السعي والحركة، ومن ذلك السباحة وهي العوم في الماء، ومنه قوله

27 د. محمد شحرور. الكتاب والقرءان.

تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فالملاحظ من دلالتها أنها تدل على الحركة والتغير المستمرين الدائمين.

2. سبق: أصل واحد يدل على التقديم. ويلاحظ في عملية السباق أنها حركة منتهية عند حد معين.

3. سبر: البحث والتعرف على الشيء من كل جوانبه. ويلاحظ بذلك الحركة المتنقلة والمتكررة.

4. سبت: أصل واحد يدل على الراحة والسكون، وهذا لا يمكن في واقع الحال إلا بعد حركة وجهد.

5. سبغ: أصل يدل على تمام الشيء وكماله.

6. سبل: أصل يدل على إرسال شيء من علو إلى أسفل. نحو قولنا: أسبل الرجل عينيه.

7. سبك: أصيل يدل على التناهي في إنهاء الشيء. سبك النقود، سبك الحديث.

8. سبخ: أصل واحد يدل على خفة في الشيء.

9. سبط: أصل يدل على امتداد الشيء.

10. سبى: أصل واحد يدل على أخذ شيء من بلد إلى آخر كرهًا. نحو سبي النساء في الحرب. فلاحظنا أن هذه الكلمات مشتركة في خندق واحد من حيث دلالتها على الحركة، ويأتي الحرف الأخير ليحدد نوعية الحركة هل هي دائمة نحو كلمة (سبح)؟ أم حركة متوقفة ومنتهية نحو كلمة (سبق)؟ أم متكررة ومتنقلة نحو كلمة (سبر)؟ وبناء على ما وصلنا إليه نأتي لشرح دلالة كلمة (سبع) فالسين والباء إذا اجتمعا يدلان على الحركة كما ذكرنا، ويأتي الحرف الأخير ليحدد اتجاه ونوع الحركة.

وفي مسألتنا جاء حرف (العين) في آخر الكلمة وهو يدل على عمق وبُعد فقام بتحديد نوعية الحركة وأنها حركة في عمق الشيء وكونها كذلك فهي في أحد أبعاده موغلة.

أي: أن دلالة كلمة (سبع) هي حركة داخلية جوفية تكون طاقة وقوة دافعة لمن هي بداخله بشكل ذاتي لا تنضب أبدًا، ومن هذا المنطلق سُمِّيت السباع - آكلة اللحوم الصيادة - سباعًا، كونها تمتلك قوة داخلية ذاتية في الحركة والهجوم على طرائدها، وهذه القوة السبعية ملازمة لها لا تنفك عنها أبدًا. واستعيرت دلالة الكلمة على كل إنسان حصل على هذه القوة الذاتية الداخلية التي تشكل عنده طاقة ودافعًا للإقدام والاستمرار للحصول على مبتغاه، فيقال: فلان سبع.

ونعود لتفسير الآية المعنية:

فالنص يخبر بعملية إيتاء أمرين للنبي من قبل الله عز وجل، وهما:

أ - سبع من المثاني.

ب - القرءان الكريم.

ولقد حددنا دلالة كلمة (السبع) وأنها لا يُشترط بها دلالة العدد.

أما حرف (من) فمن دلالته التبعيض والتحديد، وكلمة (المثاني) هي الأصل والمرجع الذي تمَّ فعل الإتيان للسبع منها، فلذا لا يصح القول الشائع (السبع المثاني) بل لا بُدَّ من الالتزام بالنص القرءاني (سبعًا من المثاني) لأن بإسقاط حرف (من) تختلف الدلالة بين القولين تمامًا. فماذا تعني كلمة (مثاني)؟

مثاني: من التثنية للشيء. فنقول: ثنى الرجل كمه. إذا ردَّ طرفه على ما قبله.

ونقول في العد: اثنان. لأن الآخر أضيف إلى الأول الذي سبقه. فالتثنية: هي رد الشيء على غيره وتكراره.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: 23].

فالنص يخبر أن الله أنزل كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

وَمَنْ الذين يخشون ربهم؟ إنهم العلماء:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

إذنْ؛ عملية التقشعر للجلود ولين الجلود والقلوب إلى ذكر الله والخشية منه تتم من جراء المثاني التي تدل على التثنية، وهي رد المتشابه إلى المحكم والوصول إلى الفهم المطابق للواقع حسب الأدوات المعرفية الممكنة في كل مجتمع عبر الزمان والمكان، وهذه التثنية تدفع العلماء للخشية من الرب بما وصلوا إليه من العلم من جراء إسقاط النص المتشابه على محله من الخطاب (آفاقًا وأنفسًا) الذي هو محكم في واقع الحال مع استصحاب الآيات المحكمة من الكتاب كإطار وموجه وضابط، وهذه الآيات قد أطلق عليها الله في موضع آخر من الكتاب:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7].

فيصير معنا دلالة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ هي:

أن الله آتى محمدًا قوة وحركة ذاتية في داخله تدفعه إلى الدعوة إلى الله وتعليم الناس والصبر على أذاهم، وذلك من المثاني، أي: من جراء قيام النبي محمد بعملية التثنية للنص القرءاني على محله من الخطاب - آفاقًا وأنفسًا - فتتولد عنده تلقائيًّا طاقة إيمانية علمية مُحركة تدفعه إلى الخشية من الله، وتُعطيه القوة على المضي والاستمرار في دعوته

للناس دون توقف، وهذه الطاقة لا تنضب ما دام يقوم بعملية التثنية للنص القرءاني الخالد، فإنه سوف يمدُّه بقوة مستمرة.

وهذا الأمر ينطبق على كل من يقوم بعمل النبي من العلماء، فيحصلون على القوة السبعية ويصيرون سباعًا في مجال الدعوة إلى الله ونشر الخير والسلام والعدل بين الناس وإنذارهم باليوم الآخر لا يخافون في الله لومة لائم ويكونون شهداء على الناس في كل زمان ومكان، وحجة الله على خلقه المستمر إلى يوم الدِّين.

صفة كلام الله بين الأزلية والحدوث

إن صفة كلام الله هي صفة ذاتية من جانب وفعلية من آخر، أما الجانب الذاتي فهي قيامها بالمتكلم من حيث اتصافه بالمقدرة على فعل الكلام سواء قام بذلك أم لم يقم، نحو صفة السميع والبصير، فسواء أكان هناك أصوات وصور أم لم يكن فالله سميع بصير بنفسه، وذلك كصفة ذاتية له، ومن هذا الوجه أخذت صفة الأزلية.

أما الجانب الفعلي لصفة الكلام فهي مرتبطة بالفعل وكونها كذلك فقد أخذت حكم الفعل من حيث الحدوث ابتداء نحو صفة الإرادة لله عز وجل، فهي صفة قائمة بذات الله كصفة له وبالتالي فهي أزلية، أما توجهها نحو الفعل، فلا شك أن ذلك التوجه هو حادث، وذلك لتعلقها بالحوادث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

وهذا النص صريح في تحديد العلاقة بين صفة الإرادة الحادثة من حيث التوجُّه.

(إذا أراد) وصفة القول (أن يقول له: كن، فيكون) مما يؤكد أن قول الله عز وجل هو عين إرادته الحادثة، وإرادته الحادثة وكلماته هما عين الوجود نفسه (كن فيكون) أي: كلمات الله هي عين المخلوقات نفسها.

وبما أن الآفاق والأنفس هما كلمات الله كان من الطبيعي أن يطلق على القرءان صفة كلام الله كونه صورة لسانية مجعولة عن كلمات الله (الآفاق والأنفس).

ومن هذا الوجه كان لكلام الله بُعدان: بُعد موضوعي متمثل بالآفاق والأنفس (كلمات الله)، وبُعد لساني متمثل بالقرءان قابل للتلاوة والسماع.

إذنْ؛ كل المخلوقات في الواقع هي عين كلمة الله عز وجل من حيث إنها وجدت بكلمة (كن) في أصلها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27].

يخبر الله عز وجل في هذا النص عن سعة كلماته (خلقه) أنه لو أخذنا ما في الأرض سابقًا ولاحقًا واستمرارًا من الأشجار وجعلناها أقلامًا تكتب بها المجتمعات الإنسانية بشكل توارثي لهذه العملية الإحصائية، واستخدموا بحار الأرض كلها كمداد ومن وراء هذا البحر أبحر لا متناهية لكتابة كلمات الله لنفدت البحار قبل أن تنتهي عملية الإحصاء لكلمات الله،وذلك راجع إلى عاملين:

الأول: أن هذه الأقلام والبحار هي ذاتها معنية بعملية الإحصاء كونها من كلمات الله، فمن الطبيعي أن تنتهي هذه المخلوقات، ولم تبلغ إحصاء ذاتها من ذرات وما تحوي بداخلها من عالم لا متناه، فكيف تحصي غيرها من المخلوقات اللامتناهية؟

الثاني: أن عملية استمرار كلمات الله في الواقع غير متوقفة؛ مما يدل على استحالة إحصاء شيء مستمر لا متناهٍ.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: 8]

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات: 47].

وتعترضنا مسألة إطلاق وصف كلمة الله على السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام رغم أن جميع الناس هم من كلمات الله، فما المبرر لإطلاقها على السيد المسيح عينًا رغم أنه داخل في عموم كلمات الله مع الناس، وما هي الميزة له في ذلك؟

إن هذا التخصيص للسيد المسيح بإطلاق عليه كلمة الله عينًا من دون سائر الناس إنما هو راجع لاختلاف إسقاط كلمة الله في الواقع.

فخلق الناس كما هو معروف كان ضمن نظام معين خضع للتطور إلى أن وصل إلى عملية التزاوج واللقاح بين الذكر والأنثى لتتم عملية الولادة لإنسان جديد، وهكذا استمر النوع البشري، ولا شك أن هذا الخلق والنظام بدأ بكلمة (كن) أي: بدأ بصورة معينة خضعت لمراحل تطورت عبر الزمان، أي: استمر مفعول كلمة الله في الوجود وانتقلت من صورة إلى أخرى إلى أن وصلت إلى الصورة البشرية المعروفة.

وكل ذلك بإذن الله عز وجل، وبالتالي لا يوجد ميزة لإنسان على آخر ليقول عن نفسه: أنا كلمة الله؛ لأن جميع الناس داخلين في ذلك.

أما السيد المسيح فقد اختلف في عملية ولادته إلى الحياة الدنيا عن ولادة الناس جميعًا؛ مما أدَّى إلى تميزه من سائر الناس جميعًا، وذلك متحقق بأن ولادته كانت بتوجه مباشر لإرادة الله عز وجل نحو خلق السيد المسيح ولم يخضع لعملية اللقاح والنكاح كباقي الناس، ومن هذا الوجه أطلق عليه وصف (كلمة الله) لتميز وجوده عن وجود سائر كلمات الله عز وجل، وعملية وجوده كانت كمثل عملية وجود الخلق الأول، إذ بدأ بكلمة (كن) وكذلك السيد المسيح عليه السلام تم خلقه مباشرة بكلمة (كن) فالخلق الأول للجنس البشري اسمه كلمة الله، وكذلك السيد المسيح عليه السلام اسمه كلمة الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59].

إذنْ صفة الكلام من حيث الواقع لها أبعاد:

الأول: صفة لله ذاتية وهي القدرة على فعل الكلام وهي من هذا الوجه أزلية.

الثاني: الصورة اللسانية للقرءان اسمها كلام الله وهي حادثة مجعولة.

الثالث: الصورة الموضوعية للقرءان - آفاقًا وأنفسًا - اسمها كلمات الله وهي حادثة كونها مخلوقة وكل مخلوق محدود ضرورة.

وموضوع دراستنا هو علاقة كلام الله بكلمات الله وكلاهما حادث فكلام الله - النص القرءاني - هو الصورة اللسانية لكلمات الله - الآفاق والأنفس - والعلاقة بينهما علاقة الأصل بالنسخة عنه.

فكلمات الله قابلة للدراسة والاكتشاف والتسخير لها نتيجة العلم بها وهي تخضع لعملية الرؤية.

أما كلام الله فهو قابل للتلاوة والسماع، وهو صورة لسانية عن كلمات الله، ولا يمكن أن يدرس أو يفهم إلا من خلال إسقاط كلام الله على كلمات الله التي هي أصل له كونها محل تعلق الخطاب. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:6].

أي: اتلُ عليه النص القرءاني حتى يسمعه، وبعد ذلك يحاول أن يراه في الواقع - كلمات الله - من خلال عملية إسقاط الصورة اللسانية- الكلام - على الصورة الموضوعية - كلمة الله - فيصل إلى أن هذا - النص القرءاني- حق من عند الله الخالق فينقاد لرسالته منهجًا وشريعة.

قال تعالى:﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144].

يوجد فيما أنزل الله من وحي جانبان:

الأول: جانب رسالي وهو متعلق بالمجتمع الإنساني من حيث المنهج والشريعة:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48].

الثاني: جانب موضوعي وهو كلام الله عز وجل متعلق بكلمات الله – الآفاق والأنفس–.

لذا؛ لا يصح إطلاق صفة كلام الله على رسالته، والعكس صحيح أيضًا، رغم أن كليهما موجودان بصورة لسانية في كتاب الله عز وجل وهو وحي من الخالق المدبر لعباده.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:1].

ومن خلال ما ذكرنا يجب الانتباه لورود ذكر صياغة الكلمة في القرءان نحو قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115].

فالمقصد بلفظ (كلماته) في النص المذكور هو السنن التي تأخذ مفعولها ومجراها عندما يقوم المجتمع بتعاطي أسبابها، انظر قوله تعالى:

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ فسنة الله، وإذن الله، وكلمة الله، ألفاظ تجتمع بدلالات وتختلف بأخرى انظر قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: 27].

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: 24].

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

لاحظ صفة إيمان النبي كيف جاءت على وجهين:

الأول: الإيمان بالله، وهذا الإيمان هو أساس الإيمان بالغيب المؤَسس على عالم الشهادة.

الثاني: الإيمان بكلمات الله: وهو عالم الشهادة الذي يتمتع بوجود موضوعي قابل للدراسة والتسخير له من جراء هذه الدراسة.

فالنبي يؤمن بالله الخالق المدبر من جراء عالم الشهادة فتأسس عنده عالم الغيب، كما أنه يؤمن بالوجود الموضوعي للآفاق والأنفس فتأسس عنده عالم الشهادة كوجود له صفة الحق المستمدة من الحق، فالعلاقة بين عالم الغيب والشهادة علاقة جدلية، فالأول - الغيب - سبب لوجود الثاني - الشهادة - والثاني دليل على الأول.

ومن خلال هذا الطرح ظهر بطلان قول من يقول بأزلية القرءان ببعده اللساني - كلام الله - لأن ذلك حادث ومجعول، كما هو معلوم ناهيك عن أن اللسان العربي بشري مخلوق خضع للتطور المعرفي وهو حادثة، وقد نصَّ الخالق على ذلك في كتابه؛ إذ قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: 2].

أما القول بأزلية كلمات الله - الآفاق والأنفس - فهذا قول هراء ومتهافت لا قيمة له من الناحية العلمية.

وكذلك السنن الناظمة للوجود - أم الكتاب - فهي مرتبطة بالخلق الحادث بشكل لازم له ارتباط الكم بالكيف والعكس[28].

28 راجع كتابي الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرءان الكريم، فصل مفهوم الأزلية.

أما الآيات المتعلق خطابها بذات الله عز وجل، فهي حادثة كنص، وأزليّة كمضمون نحو ﴿اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

لذا؛ يجب إرجاع كلام الله ببعديه - الموضوعي واللساني - إلى مجال الدراسة والتفكر والتدبر للوصول إلى عملية المصداقية بينهما، وتبيين ذلك للناس ليعلموا أنه الحق من ربهم فينقادوا لرسالته انقياد المؤمن البصير.

ونكون بذلك البحث قد سددنا الثغرات وأزلنا الإشكالات التراثية التي دخل منها المستشرقون وغيرهم واستغلوها للطعن في مصداقية القرءان ببعده اللساني، ومن هذا الوجه تبرز أهمية فرز التراث الثقافي وعدم سحبه على ما هو عليه إلى واقعنا المعاصر؛ لأنه رأي غير ملزم للمجتمعات اللاحقة، وبالتالي لا يصح عدُّه رأيًا يمثل الإسلام، وإنما هو رأي يمثل فهم الإسلام لمجتمع معين بزمان ومكان خاص بهم.

فلذا؛ يجب دراسة الإسلام دراسة معاصرة تعتمد على القرءان ببعديه -الموضوعي واللساني- ودراسة رسالة الله من خلال كتابه ضمن منظور علمي قائم في أساسه على الواقع كونه محلًّا للخطاب.

وهمية وجود الناسخ والمنسوخ في كتاب الله

أول شيء يجب أن نعرفه قبل دراسة الناسخ والمنسوخ أن تلك العملية لا يمكن أن تكون في كلام الله - القرءان ببعديه الموضوعي واللساني - لأن البُعد اللساني لكلام الله إنما هو صورة للبعد الموضوعي، أي: إخبار عن الوجود الحق، وبالتالي لا يمكن أن يُنْسخَ البعد اللساني لكلام الله؛ لأن ذلك لو حصل لاقتضى وقوع الكذب والاختلاف بين البُعدين الموضوعي واللساني.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82].

إذنْ؛ على افتراض وجود مفهوم الناسخ والمنسوخ في كتاب الله يجب أن يكون محله رسالة الله وليس كلامه، أي: في النص الإنشائي وليس في النص الخبري، بمعنى آخر في نصوص الأحكام وليس نصوص القرءان.

ومن المعلوم أن النسخ لم يقع قط في الرسالة الواحدة، وإنما كان يقع بين رسالتين؛ لأن النسخ في الرسالة الواحدة باطل وعبث لما يترتب عليه من اتصاف المرْسِل من تناقض وعدم المعرفة أو العلم بالجهة المرسَل إليها، فضلًا عن أن صفة النسخ لو وجدت بالرسالة الواحدة لانتقضت الرسالة ذاتها وثبت بطلانها، قال تعالى في وصف قصة بعثة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:50].

أما التشريع القرءاني فقد نزل منذ البداية له صفة الكمال والصلاحية التي تقتضي الإنسانية والديمومة والعالمية، فلو حصل نسخ لأحد الأحكام فمعنى ذلك أن هذا النص المنسوخ عندما نزل لم يكن يتصف بتلك الصفات، وبالتالي ينتفي عنه مقتضياتها ويصير نصًّا عينيًّا مثل نصوص أهل الكتاب المنسوخة.

والسؤال المطروح: لماذا حصل ذلك في المجتمع الأول؟ والجواب التقليدي هو: لعلاج مشاكلهم بمرحلية تتناسب مع معطياتهم المعرفية. فنقول: لو حصل ذلك لاقتضى أن يستمر في كل مجتمع بعد المجتمع الأول عملية النسخ؛لأن لكل مجتمع مشاكله وظروفه التي تحتاج إلى مرحلية في العلاج حسب معطياته الثقافية والموضوعية، وكون هذا الأمر لم يستمر أو يحصل في المجتمعات اللاحقة؛ مما يؤكد على انتفاء حصوله في المجتمع الأول كون النص التشريعي ابتداء موجه إلى الإنسانية والعالمية وليس إلى العرب خاصة.

فعملية النسخ إنما هي حصرًا بين الرسائل، ولا يمكن أن تكون في الرسالة الواحدة، وهذه العملية بين الرسائل إنما هي أمر لازم لتطور المجتمعات كون كل رسالة سابقة كانت تنزل موجهة إلى مجتمع بعينه حتى جاءت رسالة القرءان لتعلن أن المجتمعات البشرية قد وصلت إلى بدء سن النضج.

وهذا يقتضي تغيير في بنية الرسالة ذاتها من الصفة العينية إلى الصفة الحدودية - رفع الوصاية الإلهية عن الناس - وجعلها عالمية إنسانية دائمة، وذلك لتعتمد المجتمعات الإنسانية على أنفسها في تشريع ما يستجد لهم من خلال عملية التطور، وذلك ضمن حدود الله عز وجل التي جعلها إنسانية عالمية لتكون الأرضية التي يعتمد عليها المجتمع الإنساني في تشريعه الزمكاني لا يتجاوز حدود الله أبدًا.

وإذا كان التشريع بتلك الصفة، أي: أنه إنساني وحدودي ودائم لا يمكن أن يقبل النسخ في بنيته أبدًا لا في زمن نزول الوحي ولا من بعده، لذلك كان هذا الشرع

الحدودي هو الشرع الكامل والجامع لما سبق والمستمر إلى آخر مجتمع إنساني في الوجود.

والقول بإمكانية وقوع النسخ في الرسالة الكاملة والجامعة أو وقع فعلًا يلزم من ذلك نقض هذه الصفات عنها ضرورة لازمة لهذا القول، وكون هذه الصفات ثابتة بشكل قطعي للشرع القرءاني؛ مما يدل على بطلان مسألة وجود الناسخ والمنسوخ في هذه الرسالة، لذا يجب حذف هذه المسألة من بحث علوم القرءان وعدم تدريسها، مع العلم أن هذا الموضوع غير معروف وغير متداول في مجتمع النبوة ولم يثبت أي خبر في ذلك أبدًا [29].

والنص الذي ذكر النسخ في القرءان ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة106.

نسخ يتعلق بالآيات خارج النص القرءاني وهي آيات الآفاق والأنفس، بدليل مجيء فعل المضارع(ننسخ) وهو يدل على استمرار فعل النسخ إلى يوم الدِّين، وبدليل حين وقوع النسخ الإتيان بخير منها أو مثلها، وهذا لا يصح في الأحكام الشرعية لانتفاء الحاجة لنسخها إن كان سوف يأتي مثلها، وبدليل انتهاء النص بصفة القدرة لله المتعلقة بالآفاق والأنفس، ولو كان المقصد آيات التشريع لكان ينبغي أن ينتهي النص بذكر صفة العلم لله أو الحكمة.

29 للتوسع في موضوع النسخ راجع كتابي: الآحاد، الإجماع، النسخ.

كتاب اللّه وأسباب النزول

إن كتاب الله عز وجل يحتوي على الرسالة الكاملة الجامعة للشرائع السابقة، وهذا يقتضي اتصافها بالديمومة والإنسانية والحدودية والعالمية، وكون الأمر كذلك فالنص التشريعي بطبيعة الحال موجه إلى كل المجتمعات الإنسانية عبر الزمان والمكان، وهذا التوجه يقتضي أن يكون النص الإلهي حجة بذاته غير مقيد بفهم أي مجتمع ومتحرر من الظروف الزمكانية التي وافقت زمن نزول النص الإلهي.

ومن هذا الوجه قال العلماء: العبرة بعموم النص وليس بخصوص السبب.

وذلك لأن التشريع الإلهي سوف ينزل لا محالة سأل عن ذلك بعض الناس في وقت نزول الوحي أم لم يسألوا، فالتشريع كمضمون قائم كامل في علم الله الفعلي[30] وليس اكتسابيًّا أو يخضع لعملية الدراسة والاستقراء.

ومن هذا الوجه لا يصح استخدام كلمة (سبب) على نزول التشريع الإلهي؛ لأن السبب هو: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، وهذا غير منطبق على التشريع؛ لأنه سوف ينزل لا محالة كونه تشريعًا إنسانيًّا عالميًّا وليس قوميًّا عينيًّا، والأصح إطلاق كلمة تاريخية نزول التشريع التي تفيد دلالة الوقت والحدث المناسب الذي تمَّ اختياره من قبل الخالق لينزل النص التشريعي بصياغة مناسبة فورًا؛ لأن النص التشريعي ليس للتلاوة إنما هو تشريع للواقع الاجتماعي.

ومن هذا الوجه ارتبطت أحداث معينة بنزول النص التشريعي ليس كسبب نزول

---

30 راجع كتابي: علم الله وحرية الإنسان، وكتابي الألوهية والحاكمية، بحث مفهوم الأزلية.

له، وإنما كظرف مناسب لإنزال النص الإلهي إلى حيز التطبيق العملي، ولو قال قائل: إنه يوجد نصوص نزلت بناء على سؤال من الناس أو ارتبطت بأحداث معينة، فكيف لا يكون ذلك سببًا لنزولها؟

والجواب: أن مضمون النص كحكم قائم في علم الله ليس كصياغة لسانية وغير مرتبط بالأحداث كون الحكم إنسانيًّا في توجهه وعالميًّا في حركته ومتحققة فيه صفة الديمومة - السيرورة والصيرورة - وكل ما في الأمر أن هذا الحكم جعله الله عز وجل بنص لساني متزامن مع حدث حتى يتم تطبيق النص مباشرة كون مادة التشريع تظهر أثناء حركة المجتمع ومعاناته.

لذا؛ فمفهوم أسباب النزول يجب أن يُلغى ويوضع مكانه مفهوم تاريخية النزول، وبالتالي يفهم الدارس لهذا الموضوع من العنوان ابتداء أنه يدرس الظروف والحيثيات الزمكانية للمجتمع الذي تمت فيه صياغة ونزول النص الإلهي، وَيُعَدُّ فهم المجتمع الأول للنص هو الاحتمال الذي ارتضاه المجتمع لحل مشاكله وتنظيم حياته، وذلك إذا كان النص احتمالي الفهم ويسمح بالحركة ضمن نزوله في منظومته التي ينتمي إليها هذا النص.

وهذا الكلام يوصلنا إلى أن تاريخية نزول التشريع سواء أكان متزامنًا مع حدث بعينه مناسبًا لاختيار نزول النص لحيِّز التطبيق، وهذا الجانب محل أخذ ورد من قبل العلماء، وذلك لوجود عملية الوضع والدس أو كان مناسبًا كظرف اجتماعي ككل، فالأمر سواء لأن النص التشريعي حجة بذاته وهو موجه لكل مجتمع على حدة لا علاقة لتفاعل المجتمع السابق بتفاعل المجتمع اللاحق إلا من كونه تفاعلًا تاريخيًّا.

وبالتالي هو تراث ثقافي يدرس من هذا الوجه، وتتم عملية فرزه حسب الأدوات المعرفية المستجدة ليستمر ما ثبت صلاحيته، ويستبعد ما لم يثبت صلاحيته، ومناسبته لنا مع قيامنا بالتفاعل المباشر مع النص الإلهي كوننا معنيين بالخطاب، ونقوم بتفعيل

النص والتحليق بفضاء دلالاته متجاوزين ألفاظه إلى مقاصده وذلك من خلال إسقاطه على محل خطابه من الواقع معتمدين بفهمه على منظومته الكلية التي ينتمي إليها الحكم ضمن المنظومة العامة للتشريع ومتحركين بالصلاحية التي منحنا الله إياها (الخلافة في الأرض) ضمن حدود الله عز وجل لتحقيق المصلحة العامة للمجتمع والسعادة للفرد بشكل نسبي ضمن الإمكانيات المعرفية والمادية للمجتمع.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الزمر:55]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:18].

نزول القرءان مفرّقًا

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32].

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلً﴾ [الإسراء: 106].

لقد نزل النص القرءاني بشكل مفرق، وليس جملة واحدة كما هو ثابت في تاريخ نزول النص القرءاني، واستغرقت عملية نزوله ما يقارب ثلاثة وعشرين عامًا، وهذا النزول المفرق على مدى الزمن الطويل أثار تساؤلات كثيرة عن السبب من ذلك، وما هي الحكمة؟.

بدايةً؛ يجب أن نستبعد مصطلح التنجيم عن نزول النص القرءاني؛ لأنه لا يؤدِّي دلالة الحدث وغير مستخدم بالقرءان بهذا المعنى، فكلمة (نجم) أصل صحيح تدل على طلوع وظهور[31]، والعلماء يقصدون من استخدام مصطلح التنجيم دلالة التفريق، وبما أنه علمنا أن كلمة (التنجيم) لا تؤدي دلالة كلمة (التفريق)، وكلمة التفريق كلمة مستخدمة في النص القرءاني للدلالة على هذا النزول المفرق يجب التقيد بالاستخدام القرءاني. ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾.

فرق: أصل صحيح يدل على تمييز وتجزيء[32]، وعكس استخدام كلمة (المفرق)

31 راجع مقاييس اللغة.

32 راجع مقاييس اللغة.

هي كلمة (الجملة) ولذا قال الكافرون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، ونستخدم هذا المصطلح في حياتنا اليومية فنقول: بيع الجملة، بيع المفرق.

ونلاحظ من دلالة كلمة (فرق) في الواقع أنها تكون في الموضوع ذي العلاقة المتجانسة بشكل أو بآخر.

انظر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 150].

وقوله: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

فالنص القرءاني إنما هو كتاب واحد متماسك، لذا؛ جاءت كلمة التفريق لتدل على هذا المعنى من حيث النزول لهذا الموضوع مفرقًا، ويتم جمعه في الواقع بعد انتهاء نزوله كاملًا، كما أنها تدل على وجود الموضوع جملة واحدة قبل نزوله، وذلك كمضمون ومقصد، ومن ثم تتم صياغة ما يريد الله أن ينزله ضمن نص لساني يتناسب مع الظرف ليس كسبب نزول، وإنما كحالة مناسبة لنزول النص.

وبعد هذا الضبط لمصطلح نزول القرءان مفرقًا، وليس منجمًا، لنرَ السبب الكامن وراء نزوله بشكل مفرق وليس جملة واحدة.

كان الناس يعرفون أن الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة - التوراة والإنجيل- على الرسل، فقالوا:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ مثل الكتب السابقة، فأجابهم الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلً﴾ [الفرقان:32].

وقال: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

وقبل تفسير النصين المذكورين لنَقُمْ بمقارنة بين ظروف نزول الكتب السابقة جملة واحدة، ونزول النص القرءاني مفرقًا.

1. نزلت الكتب السابقة على مجتمع مؤسس إيمانيًّا - بني إسرائيل- بخلاف نزول النص القرءاني فإنه نزل على مجتمع جاهلي وثني.
2. الكتب السابقة زمكانية في توجهها لا تهدف إلى تأسيس قواعد لمشروع ثقافي ديني إنساني.

- النص القرءاني كان يهدف إلى تأسيس مشروع ثقافي ديني وهو كامل وجامع لما قبله ومستمر لما بعده.

3. آيات الأنبياء سابقًا كانت خارج كتبهم. نحو عصا موسى، ناقة صالح... إلخ.

- آية النبي محمد هي النص القرءاني ذاته.

4. الكتب السابقة كان يوجد فيها مجموعة من التعاليم موجهة إلى قوم بعينهم - شرع عيني -.

- النص القرءاني كتاب نزل للعالمين واحتوى بداخله شرعًا حدوديًّا إنسانيًّا دائمًا.

5. الكتب السابقة غلب عليها مادة القصص والأدعية والأذكار بجانب الآصار والعقوبات لمن نزلت عليهم كون الكتب قومية في توجهها.

- النص القرءاني كتاب تميز بالمادة العلمية - آفاقًا وأنفسًا - وارتباط خطابه بالواقع ارتباط اللازم بالملزوم، بجانب تنزهه عن الآصار والعقوبات كونه موجهًا إلى الإنسانية جمعاء عبر الزمان والمكان.

6. صياغة الكتب السابقة كان بلسان عربي قومي غير علمي ولا مبين.

- نزل القرءان بلسان عربي مبين وصياغة محكمة.

إذنْ؛ يوجد فرق كبير واضح بين وظيفة الكتب السابقة، ووظيفة النص القرءاني، وهذا الاختلاف في الوظائف قطعًا يؤدِّي إلى بطلان قياس أحدهما على الآخر في كيفية نزوله، فلقد نزل كل منهما بالطريقة التي يؤدِّي بها وظيفته.

وعودة إلى تفسير النصين المذكورين:

فالنص الأول يذكر: عملية تثبيت فؤاد النبي، وعملية الترتيل للنص القرءاني.

والنص الآخر يذكر: عملية القراءة على الناس على مكث، والتنزيل للنص القرءاني.

ولنبدأ بعملية تثبيت فؤاد النبي:

- إن الفؤاد هو القوة الفاعلة عند الإنسان التي يدرك بها الأشياء من جراء استخدام السمع والبصر، أي: ربط المعلومات مع محلها من الواقع والحكم عليها.

إن النبي هو واحد من البشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ وهذا يقتضي أنه محدود في تفكيره وثقافته وعلمه، وأن ذلك هو اكتسابي وليس ذاتيًّا.

فبدأ نزول النص القرءاني بكلمة (اقرأ) وهي كلمة تدل على التفكر والتدبر والفهم للمادة المقروءة سواء أكانت محلًّا للتلاوة كنص لساني أم ظاهرة كونية واجتماعية. فلا يشترط لفعل القراءة فعل التلاوة، خاصة إذا علمنا أن النبي كان لا يعرف الخط، أي: لا يتلو المخطوط ولا يستطيع أن يخط بيده، بخلاف القراءة فإنه قادر عليها، بل هي من تمام مقومات النبوة لذلك نزل أول نص قرءاني يأمر النبي بعملية (القراءة) ووجهه نحو مادة القراءة التي هي صفحات الآفاق والأنفس.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وما هذا الأمر والتوجه إلا لجعل النبي أن يضع يده ويدرك منهج الآفاق والأنفس كمحل للتفكير ومصدر للمعلومات ومعيار لها، فبدأت ثقافة النبي تظهر وتنصقل مع تتابع نزول النص القرءاني يومًا بعد يوم فثقافة النبي وعلمه في السنة الأولى من الدعوة ليست هي ذاتها في السنة الثانية.

وهكذا تزداد ثقافة النبي، ويتمكن من الحكمة - المنهج - مع تتابع نزول النص القرءاني بشكل مفرق كونه المصدر الثقافي والعلمي الذي يعتمد عليه النبي في دعوته وحواره مع قومه.

إذنْ؛ النص القرءاني منذ البداية دخل معترك الصراع الثقافي والمعرفي، وهذا الصراع متجدد ومتنوع حسب المستجدات، وهذا يقتضي من النبي أن يكون مستعدًا عقليًّا ونفسيًّا وثقافيًّا ليخوض هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، وهذا يقتضي أن ينزل النص القرءاني مفرقًا على قلب النبي ليتم التفاعل معه ويتم شحنه نفسيًّا ورفع مستواه الثقافي بتدرج يتناسب مع مستوى الصراع الثقافي ليعلو عليه.

وهذا ما عناه قوله تعالى:﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فكان النص القرءاني ينزل مفرقًا ليتناسب مع مجرى الصراع الثقافي بين النبي وقومه ويغطي المعطيات الثقافية التي كانت تعرض للنبي من قبل قومه.

انظر قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].

أما قوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ فهي تأكيد على ما ذهبنا إليه سابقًا من كون أن الله ينزل الرتل من النص القرءاني الذي يدفع به الباطل ويدحره، وهكذا ترتل النص ترتيلًا يتناسب مع قوى الباطل ومستجداته.

العملية الثانية من نزول النص مفرقًا هي:

﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[الإسراء: 106].

والقراءة كما مرَّ معنا هي التدبر والفهم، والمكث: كلمة تدل على الانتظار والهدوء فيكون المقصد من نزول النص القرءاني مفرقًا هو تمكين النبي من تدريسه وتفهيمه للناس وإعطائه الوقت الكافي، وهذه الصفات مسحوبة أيضًا للناس، فنزول المادة الثقافية والمعرفية بشكل مفرق على الناس يجعلهم يتفاعلون معها، خاصة إذا كانت مرتبطة بحياتهم الاجتماعية خطوة بخطوة، بل تدفعهم إلى النهوض وتغيير ما بأنفسهم من انحطاط وتخلف للوصول إلى النهضة والرقي.

فنزل النص القرءاني مفرقًا ومتناسبًا مع الظرف الثقافي والاجتماعي ليغير الواقع الجاهلي ويوجد البديل له وهو المجتمع الذي يقوم على الأمن والسلام والعدل والإحسان – المجتمع الإنساني –.

ومن تمام حكمة الله عز وجل أن النص القرءاني لم يجمع بعد انتهاء نزوله على تاريخية نزول النصوص؛ لأن الأحداث التي زامنت نزول النص القرءاني إنما هي أحداث خاصة لذلك المجتمع، وبالتالي فلكل مجتمع أحداثه ومشكلاته مما يقتضي أن يقوم كل مجتمع بترتيب خاص للتعامل مع النص القرءاني ينسجم مع الزمكان والأدوات المعرفية التي يملكها المجتمع.

ومثل ذلك كمثل لوحة الفسيفساء التي لها إطارٌ ثابت ومحتوى من الأشكال اللامتناهية ومطلوب من كل مجتمع تشكيل المحتوى الذي يناسبه ذوقًا ومصلحة وكل ذلك ضمن الإطار لا يخرج عنه أحد، أما قوله:

﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ فهو تأكيد على أن النص القرءاني قد تمت صياغته لسانًا ابتداء في ذلك العصر مستخدمًا المقاطع الصوتية للسان واستعار أحداثهم كظرف مناسب لنزول النص على الواقع مباشرة للتطبيق نحو قولنا: وأسقطناه إسقاطًا. أي: تمَّ تفصيل النص لسانًا خارج وعي وإدراك النبوة، ومن ثم نزل عليه هذا النص المفصل ليتم إسقاطه على الواقع مباشرة، حتى إذا انتهى الواقع الذي نزل النص متزامنًا معه بقي النص ثابتًا لسانًا.

وبالتالي يجب تحريك المحتوى حتى يتناسب مع واقع جديد، وهكذا كل مجتمع يقوم بتفعيل النص من جراء الغوص في مقاصده ودلالاته ضمن منظومته الكلية التي تفهم ضمن المنظومة العامة للقرءان مع استحضار الآفاق والأنفس كمصدر للمعلومات ومحل للتفكير ليوضع أساس وقاعدة لإسقاط المصدر القرءاني عليه والتطابق بينهما ضرورة علمية وإيمانية.

فيكون النص القرءاني من خلال عملية نزوله مفرقًا ضمن زمن طويل قد حقق ما يلي:

1. تثبيت فؤاد النبي بالمعنى الذي طرحناه آنفًا.
2. تغطية مراحل الصراع الثقافي وإنزال النص الذي يناسب ظروفه ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾.
3. تمكين الناس من دراسته والتفاعل معه.
4. تمكين الناس من حفظه كمتن.

5. المضي بالمشروع الثقافي الدِّيني قُدُمًا إلى الأمام خطوة خطوة إلى أن اكتمل ووقف على قدميه.

6. صياغة النص لسانًا باستخدام أحداث المجتمع الذي نزل النص فيه ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾.

إلى غير ذلك من الأمور الكامنة وراء حكمة نزول النص القرءاني مفرقًا.

ولو نزل النص القرءاني جملة واحدة لانتفت كل هذه الأمور السابقة، واقتضى أن ينزل النص مكتوبًا على قرطاس حتى يراه الناس ويستطيعوا أن يتعاملوا معه ويتمكنوا من حفظه ولو حصل وأن نزل جملة واحدة مكتوبًا لقال الكفار ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: 7].

أما موضوع نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة وغير ذلك من الأخبار، فهي كلها قائمة على الظن لا يعتد ولا يثبت بها شيء.

وكذلك تفسير قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185].

ليس المقصود به النزول لكامل النص جملة، وإنما المقصد هو ابتداء نزول النص القرءاني على المجتمع الإنساني حينئذ والذي استمر بعد ذلك طوال ثلاثة وعشرين عامًا.

أما شبهة أن صياغة النص القرءاني باللسان العربي كانت موجودة سابقًا منذ الأزل أو منذ فترة طويلة في اللوح المحفوظ، فهذا غلط فاحش، وقد بينا ذلك سابقًا في هذا الكتاب ذاته فليراجع مكانه.

وبذلك تكون قد سقطت الشبهات والإشكاليات التي وضعها المشككون سابقًا ولاحقًا حول مسألة تفريق نزول النص القرءاني.

الظاهر والباطن

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

إن مفهوم الظاهر والباطن من المفاهيم التي تناولها المسلمون كل حسب مرجعيته، فمنهم من أنكر هذا المفهوم من أساسه وذلك كردة فعل عاطفية على من أثبت هذا المفهوم واستخدمه دون ضوابط وخرج بشطحات بعيدة جدًّا عن روح النص ومقصده، ومنهم من قام بتوظيف النص توظيفًا سياسيًّا من خلال مفهوم الباطن فجعله ينطق بأمور ليست هي في الواقع من وظيفة النص أصلًا.

وقد نقل لنا التراث كل هذه الاختلافات والتباين بالرأي والموقف من مفهوم الظاهر والباطن، وكانت الدراسات المعاصرة امتدادًا لهذه الآراء والمواقف ولم يكن لها موقف جديد يعتد به يضاف إلى الآراء الموجودة.

ومن هذا الوجه تظهر الحاجة الملحة لدراسة هذا المفهوم من خلال قراءة معاصرة للقرءان دون خوف أو وجل من سلطة السلف مجتمعين على مختلف مواقفهم وآرائهم.

فقوله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾.

إشارة إلى وجود الله عز وجل حيث كان ولا شيء معه، ومن ثم ابتدأ خلق الخلق بقدرته فالوجود الحقيقي الذاتي لم يكن إلا للخالق المدبر فقط لا غير وكل ما سواه إنما يستمد وجوده واستمراره من الأول حيث يستمر ظهور أسماء الأول في كل شيء يوجده.

وبالتالي لا وجود حقيقي ذاتي لأحد غير الله عز وجل، وكون الأول يتجلى وجوده بفعله كان ظاهرًا في كل شيء، ومن هذا الوجه صح قول من قال: لم أنظر إلى شيء إلا و وجدت الله قبله وبعده.

وهذا كلام عميق لأن صاحب الكلام كان يتجاوز ظاهر الشيء إلى عمقه وربطه بما قبله وما بعده فيصل إلى أن الله هو الخالق المدبر لهذا الشيء، وأن هذا الشيء سوف يؤول إلى خالقه آجلًا.

والأحسن من هذا الكلام هو أن الله قبل الشيء ومعه وبعده؛ لأن الشيء يستمد وجوده واستمراره من الله عز وجل، فالخالق يتجلى للوجود من خلال خلقه الذي هم فعله(الإيجاد والإمداد)، لذا كان الخلق الفضاء الخصب لدراسة أفعال الخالق، ومن هذا الوجه صدق من قال: اعلم نفسك تعلم ربك.

أما مجيء كلمة الآخر بعد الأول فذلك لإثبات الأولية دون تعدد؛ لأن الله أحد صمد فعندما نذكر الأول يجب أن نلحقها بالآخر حتى ننهي الكلام ولا يفهم أحد أن هناك إمكانية لاستمرار التعداد بقولنا ثان وثالث ورابع... إلخ. فكانت كلمة الآخر هي إعطاء الاستمرار للأولية إلى أن تكون هي ذاتها الآخر، وبذلك كان الوجود الأحدي الصمدي هو الوجود الذاتي الحقيقي المستمر، وما سواه من المخلوقات فوجودها مستمد من الأول مع قيام الأول بنفسه وظهوره في كل شيء حتى يكون هو الآخر.

أما قوله: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

فهو وصف لهذا الوجود القائم على صفتي الظاهر والباطن ولا يوجد أي مبرر لإنكار هذين الاسمين؛ لأن ذلك الفعل هو مكابرة للحس والواقع، فالخلق قائم على قانون الزوجية أو الثنائية فإثبات صفة على حدة يكون ذلك بالوقت ذاته إثبات لضدها ضرورة، فعندما نقول على سبيل المثال: هذا ماء حار. نكون ضمنًا أخبرنا

السامع بوجود ماء بارد، وكذلك قولنا: هذه المادة صلبة. نكون ضمنًا أخبرنا السامع بوجود مادة لينة؛ لأن الشيء يستمد وجوده واستمراره من ضده وكلاهما زوجان، والواحد منهما اسمه زوج؛ لأن وجود الزوج الآخر ضرورة لازمة له، نحو الذكر فهو زوج الأنثى في واقع الحال، وكذلك الأنثى هي زوج الذكر في واقع الحال، فإذا تمَّ التزاوج بينهما نقول: زوجين. لاجتماع كل زوج بضده.

فمن يثبت صفة الظاهر لشيء يكون بالوقت نفسه أثبت صفة الباطن ضرورة وإلا انتفت صفة الظاهر؛ لأنه لولا صفة الباطن لما كان هناك صفة الظاهر، ولولا صفة الظاهر لما كان هناك صفة الباطن، فكلاهما زوج للآخر قائم به. قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

وكتاب الله عز وجل هو شيء ينطبق عليه قانون الزوجية كونه متعلقًا بالواقع - آفاقًا وأنفسًا - وبالتالي فله ظاهر وباطن قائمان ببعضهما بعضًا لا ينفكان أبدًا، وأي محاولة لفهم النص ببُعد دون الآخر سواء أكان الظاهر فقط أم الباطن فهي محاولة فاشلة، ولن يكتب لها النجاح وهذه الصفة الزوجية - الظاهر والباطن - لا يصح استخدامها إلا لفعل الله عز وجل - آفاقًا وأنفسًا- وكلامه، بخلاف أفعال الناس فيتم التعامل معهم حسب الظاهر لعدم قدرة الناس على معرفة بواطن بعضهم ولعدم قدرة الإنسان على صياغة الكلام وهو مستحضر لكل أبعاده.

قد يقول قائل: إذا كان الإنسان يجهل باطن كلام الآخر فكيف يستطيع أن يعلم باطن كلام الله؟

فنقول: إن كلام الله عز وجل مرتبط بالواقع ارتباط اللازم بالملزوم فمعرفة باطن كلام الله إنما يكون من خلال دراسة محل تعلق الخطاب من الواقع فعندما يتكلم الله عز وجل عن السماء والأرض فمعرفة باطن هذا الكلام إنما هو بالتعمق والغوص في معرفة حقيقة وجود السماء والأرض في واقع الحال.

إذنْ، الولوج في باطن الكلام الإلهي ليس موجهًا إلى ذات الله عز وجل وإنما هو موجه إلى أفعاله التي تكلم عنها النص وهي خارجه.

فلذا كان التفكير بالشيء دائمًا مرتبطًا بالواقع - آفاقًا وأنفسًا - لأنهما السكة التي يمشي عليها العقل، ومن هذا الوجه صح القول الذي **يقول: لا تفكروا بذات الله وإنما فكروا بخلقه**. وذلك لأن ذات الله عز وجل ليست هي شيئًا بالنسبة للعقل بمعنى أنها لم تتشيَّأ في العقل فتصير مادة للدراسة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ بخلاف وجوده كخالق مدبر فهذا المفهوم تشيأ في الذهن وصار شيئًا قابلًا للدراسة وذلك من خلال الأشياء - المخلوقات - [33].

وقراءة النص الإلهي في الواقع لا يمكن أن تتم إلا بالبُعدين معًا الظاهر والباطن، وهذه القراءة لا بُدَّ لها من أســـس تقوم عليهـــا ومن أهمها:

1. أن يكون النص إلهي المصدر، وهذا محصور في نص الكتاب فقط كونه الوحي الذي نزل على الرسول[34].
2. أن يُفهم النص حسب منظومته من النصوص الأخرى، وذلك من خلال عملية ترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد وترتيبها حسب منظور علمي.
3. أن يفهم النص حسب النصوص المحكمة.
4. أن يفهم النص حسب أوجه اللسانية العربية لا يخرج عنها.
5. أن يفهم النص بشكل تزاوج بين ظاهره وباطنه.
6. أن يفهم النص من خلال إسقاطه على محل تعلقه من الواقع المعني بالنص.
7. أن يفهم النص حسب الأدوات المعرفية لكل مجتمع
8. أن يفهم النص ضمن منظومة الأحكام الكلية والمقاصد.

33 راجع كتابي الألوهية والحاكمية فصل تفسير ﴿ليس كمثله شيء﴾.
34 راجع كتابي تحرير العقل من النقل.

وبناء على ما تمَّ طرحه يكون النقاش والحوار في مسألة الظاهر والباطن للنص القرءاني قائمًا ابتداء على مفهوم الإيمان بمصدرية النص؛ لأن نفي مصدريته الإلهية ينفي الحاجة لدراسته من منطلق الظاهر والباطن والقراءة المعاصرة له؛ لأنه يصير نصًّا بشريًّا غير ملزم ولا يهمنا أمره سوى من كونه تراثًا لنا.

فيكون المقصد من قوله تعالى:

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أن الله الأحد الصمد عالم بظواهر الأشياء وباطنها والعلاقة بينهما لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا شيء طبيعي؛ لأن الخلق فعله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

وكذلك يشير النص إلى أن لولا الباطن لما وجد الظاهر، والباطن هو الله الخالق المدبر، والظاهر فعله، ومن هذا الوجه كان الظاهر دليلًا على الباطن، والباطن سببًا لوجود الظاهر.

الثابت والمتغيِّر، والعلاقة الجدلية بينهما

إن مفهوم الثابت والمتغيِّر من المفاهيم المرتبطة بالواقع ارتباط اللازم بالملزوم، وكون الأمر كذلك فدراسته تصبح دراسة موضوعية للواقع المشاهد - آفاقًا وأنفسًا-.

إن الواقع كما هو عليه في الحال قائم على الحركة لا يقف أبدًا.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: 33].

وهذه الحركة لا يمكن أن تكون في واقع الحال إلا إذا كان لها جانب ثابت يكون أساسًا للحركة؛ لأن غياب الجانب الثابت عن المتغيِّر يلغي وظيفة الجانب المتغيِّر ودوره ويصير وجوده عبثًا وليس له دور يقوم به نحو افتراض انتفاء حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس وسيرها اللا متناهي في اللا اتجاه غير خاضعة لأي نظام.

وإذا كان الأمر كذلك فيعني انتفاء الليل والنهار والفصول الثلاثة وتوقف الوقت لأن كل لحظة لحركة الأرض اللا نظامية هي وقت بحد ذاته قائم بنفسه لا علاقة له بما قبله أو بعده، ولو افترضنا وجود حياة عاقلة على هذه الأرض اللا نظامية في حركتها لكانت هذه الحياة أفقية في الوجود لا علاقة للمجتمعات ببعضها بل بالجيل نفسه تنتفي العلاقة، بل الإنسان الفرد يبقى طوال حياته جاهلًا لا يعلم شيئًا؛ لأن كل ما حوله في تغيُّر مستمر دون ثبات وتواصل!.

إذنْ؛ غياب الجانب الثابت في الواقع مع وجود المتغيِّر فقط يؤدِّي إلى غياب العلم

والتواصل ويؤدِّي إلى الفوضى ليحل في هذا الوجود الهلاك أخيرًا والتلاشي إلى لا شيء.

وغياب الجانب المتغيِّر عن الواقع مع وجود الجانب الثابت فقط يؤدِّي إلى الجمود وجعل الحياة صورة طبق الأصل عن بعضها بعضًا، وإذا حصل هذا في الواقع انتفى عن الواقع صفة النمو والتطور ليحل محله الهلاك والتلاشي إلى لا شيء.

إذنْ؛ الجانب الثابت لا بُدَّ منه لتحقيق العلم والتواصل، والجانب المتغيِّر لتحقيق التطور والنمو، والعلاقة بين الثابت والمتغيِّر علاقة جدلية يؤثر كل واحد منهما بالآخر بالنسبة لوجوده، فنظام سير المجموعة الشمسية ثابت على متغيِّرات تنتج منه وذلك متحقق بظهور الليل والنهار والفصول الثلاثة بشكل مستمر، ولو انتفت هذه الظواهر المتغيِّرة عن الظهور لانتفت صفة الثبات نفسها من حيث هي نظام دائم.

لذا؛ فصفة النظام الثابت تُدرَكُ من خلال الظواهر المتغيِّرة بشكل دوري، فالثابت ينتج عنه المتغيِّر، والمتغيِّر يدل على الثابت:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾.

ومن هذا الوجه ظهر لنا علاقة الخالق المدبر بخلقه، فالله أحد صمد، وذلك لم يدرك من قبل الناس إلا بوجود الجانب المتغيِّر الذي هو فعل الله عز وجل - الآفاق والأنفس - فالثابت أصل ومرجع للمتغيِّر ولولا وجود الثابت - الباطن - لما وجد المتغيِّر - الظاهر - والمتغيِّر دليل على الثابت، ولولا المتغيِّر لما ظهر الثابت لنا، هذه هي العلاقة الجدلية بين الثابت (الباطن) والمتغيِّر (الظاهر)، فعلاقة الثابت مع المتغيِّر علاقة وجود، فلولاه لما وجدت الحركة والتطور، والمتغيِّر علاقته مع الثابت علاقة ظهور فلولاه لما ظهر لنا الجانب الثابت.

فأي حركة وتطور إنما هي ظاهر لثابت باطن.

علاقة النص الرسالي مع الواقع المتغيِّر

إن الرسالة الإلهية كونها موجهة إلى المجتمعات الإنسانية قاطبة عبر الزمان والمكان وهي رسالة جامعة لما قبلها ومكملة كان من الطبيعي أن تتصف بصفات المجتمع الإنساني ذاته من حيث الثبات والتغير، وتحقق ذلك باختلاف بنية التشريع الاجتماعي للرسالة عن التشريعات السابقة؛ إذ كانت الرسالات السابقة يوجد فيها تشريعات عينية وزمكانية في توجهها.

أما الرسالة الكاملة الجامعة فلقد نزلت ابتداء إنسانية عالمية متجاوزة في خطابها الزمان والمكان لتستوعب كل الأمكنة مع اختلاف المجتمعات وتطورها، وهذا يقتضي أن تكون صفة التشريع صفة حدودية وليست عينية، أي: يأتي التشريع ثابتًا كحدود تشريعية غير مرتبط بالزمان والمكان وغير موجه إلى مجتمع معين، وليس للتطبيق بعينه وإنما هو خطوط حمراء غير مسموح تجاوزها مع السماح باختيار الحل المناسب للظرف الراهن ضمن هذه الحدود.

فالنص الإلهي مرتبط بالواقع كون الواقع محلًّا للنص وسابقًا عنه في الوجود، وبما أن الواقع - آفاقًا وأنفسًا - وصل إلى مرحلة الاستقرار على نظام واحد قائم على الثابت والمتغيِّر وانتفت عنه عملية النسخ اقتضى نزول نص جديد يكون مكملًا وجامعًا لما سبق متصفًا بصفات الواقع ذاته من حيث الثبات والتغير والاستمرار معه بخط واحد، ويكون دور الإنسان مع النص الثابت مثل دوره مع الواقع الثابت تمامًا، فالإنسان الذي يكتفي بعرض جسمه تحت أشعة الشمس ليحصل على الدفء هو إنسان اكتفى بالحد الأدنى للتعامل مع الواقع الثابت.

أما الإنسان الذي يقوم بدور الخلافة في الأرض ويقوم بتفعيل طاقاته المعرفية من خلال السير في الأرض تفكرًا ودراسة فإنه يقوم بعملية إنتاج متغيِّر جديد من الثابت الواقع نحو جعل أشعة الشمس طاقة حرارية، وهذه العملية الجعلية المتغيِّرة كانت ضمن الثابت واستخدامه، ولذلك قلنا: إن الثابت ينتج عنه المتغيِّر، والمتغيِّر يدل على الثابت.

وهذه العملية الجعلية المتغيِّرة هي نفسها نتعامل بها مع النص الإلهي الثابت، فمن يقف على ظاهر النص يكون قد أخذ بالحد الأدنى للتفاعل وبأبسط صوره ويحصل على مجتمع بسيط بدائي غير متطور، أما الذي يقوم بالتفاعل مع النص فإنه يحركه من ثباته الظاهر ويجعله ينتج عنه المتغيِّر الذي يناسب المتغيِّر من الواقع ومن هذا الوجه، فالنص الرسالي الثابت مثله مثل الواقع الثابت تمامًا من حيث كمونهما على متغيِّرات لا متناهية ومتروك للإنسان الخليفة أن يتفاعل مع هذه المتغيِّرات ويكتشفها ويسخرها لمصلحته، وكل ذلك ضمن الثوابت في الواقع والنص الإلهي.

إذنْ؛ ليست العبرة بمسألة قدم الشرع أو حداثته من حيث الوجود، وإنما العبرة بصلاحية هذا الشرع وملاءمته للطبيعة الإنسانية والاجتماعية، فمن يستطيع أن يضع تشريعًا حدوديًّا أحسن مما أنزل الله عز وجل فإنه يفرض تشريعه على الواقع من جراء الأحسنية وتحقيق المنفعة للناس جميعًا.

وكذلك ليست العبرة بالتقيد بالشرع الإلهي الناحية الإيمانية وحسب، وإنما المعتمد الذي يفرض نفسه على الناس آمنوا أم لم يؤمنوا إنما هو موافقة هذا الشرع لسنن الفرد والأسرة والمجتمع أثناء حركتهم وتفاعلهم مع بعضهم، ومع الآفاق لتحقيق الأمن والسلام البيئي والاجتماعي وتطبيق العدل والإحسان بين الناس جميعًا لينعم الناس بأكبر حظ من السعادة وتحقيق الذات.

وبناء على ذلك نجد المجتمعات المعاصرة الجاهلية من حيث الفكر والقيم بعد

الدراسة والمعاناة وطول الزمن وانتشار الفساد تصل إلى إيجاد علاج لبعض مشكلاتهم يتوافق مع التشريع الإلهي، ومرد ذلك ليس الأخذ من التشريع الإلهي سرًّا، وإنما لأن الواقع – آفاقًا وأنفسًا – أجبرهم على الوصول إلى هذا الحل كونه متوافقًا ومنسجمًا معه، وكون الحل منسجمًا مع الآفاق والأنفس فإنه يكون الحكم الشرعي ذاته؛ لأن الواقع والنص كليهما من مصدر واحد والانسجام بينهما ضرورة إيمانية.

فالمجتمعات الإنسانية إذا استخدمت العلم، وأرادت لنفسها الأمن والسلام لتعيش بسعادة على الأرض فإنها سوف تصل إلى الإقرار بصحة وأحقية شرع الله ويصير الدِّين يسير مع العلم.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

ولكن المجرمين يمنعون وصول هذه الحقيقة إلى عامة الناس ويقومون بالتعتيم والتشويش عليها وتغطيتها ليستمر استبدادهم في السلطة والثروات واستعباد الناس ثقافة وطاقة، ويرسخون إن الدِّين تخلف وإرهاب وإجرام.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: 39].

رؤية معرفية قرءانية إنسانية

بصرف النظر عن المدارس الفلسفية واختلافها فأنا أعرض المفاهيم من خلال دراسة القرءان والتفاعل معه وإسقاطه على محله من الخطاب والواقع ليشهد على صحة المفهوم.

ما ينبغي مناقشة المصطلحات طالما أنه لا مشاحة في الاصطلاح ومن الجيد ضبط المفاهيم حتى يصير تواصل معرفي بين الأطراف المتحاورة.

مصطلح (الجوهر) مفهوم فلسفي غير ملزم لنا كما أن مفهوم (الشكل) كذلك، والذي يهمنا هو أن الوجود الموضوعي يتمتع بوجود حقيقي وليس ذهنيًّا ولا وهمًا، وهو محكوم بقوانين وسنن لازمة لا تنفك عنه، وهذه السنن التي تحكم حركته بكينونته وسيرورته وصيرورته هي شيء آخر غير وجوده الشيئي، ووجودها وجود علمي سنني وليس وجودًا موضوعيًّا، فالقانون غير الشيء الذي يحكمه، وهذا الشيء سواء أطلقت عليه جوهر أو شكل فهو في واقع الحال صورة وهذه الصورة لها ظاهر وباطن تربطهما علاقة جدلية لا تنفك عن بعضهما ويؤثران ببعضهما.

وهذا ما عبر عنه بعضهم مادة / روح، وقصد بكلمة (المادة)الصورة المجسدة والتي تتمتع بوجود حقيقي ذات أبعاد، وقصد بكلمة (الروح) الجانب السنني الذي يحكمها بشكل لازم، ومفهوم الحياة أو الحيوي ينبغي ضبطه، فمن حصره بالكائنات الحية المعروفة (نبات، حيوان، إنسان) لم ينف عن الجماد الحركة، ومن قال: إن الحركة هي الحياة، وبالتالي كل الوجود الكوني الموضوعي بمختلف صوره هو كائن حي، يبقى اختلاف اصطلاحي، المهم بالموضوع هو الحركة الحرة الواعية والغائية هي

خاصة للكائن الإنساني، وبالتالي هو الذي يتمتع بحياة لها قيمة ومحترمة.

والإنسان صورة موضوعية تحتوي ثلاث صور متداخلة ببعضها بشكل جدلي: صورة الجسم، وصورة الحياة، وصورة النفس، وصورة الروح.

جسم + طاقة حياتية+ نفس عاقلة + روح = إنسان.

والوجود الشيئي يظهر في الواقع بصور متغيِّرة ومتطورة، ولا يفنى الشيء وإنما تفنى الصورة له لتتغير إلى صورة أخرى مثل حرق الخشب وتحوله إلى رماد، فالشيء من حيث هو شيء موضوعي (مادة خام) لم يفنى وإنما فنيت صورته التي كان عليها وبالتالي انتقل إلى سنن أخرى تحكم الصورة الجديدة، ولذلك نقول: الشيء الموضوعي (مادة خام) لا تفنى ولا تهلك، وهي سرمدية الوجود بمعنى لا نهاية لوجودها.

وهذا الوجود الموضوعي بصوره المختلفة والمتنامية يقوم على مجموعة من السنن الكلية التي تحكمه التي منها:

1. قانون الحركة، لا يوجد في الكون (الشيء الموضوعي) ثبات وسكون فهو يقوم على الحركة البنيوية الداخلية في ذاته سواء أكان مادة خام أو انتقل إلى أي صورة ظهر بها، وهذا لا يستثنى منه أي صورة للوجود الموضوعي ما يُسمَّى (جماد، نبات، حيوان، إنسان..)، وطبيعة هذه الحركة لها صور:

- حركة جدلية ضدية تؤدي إلى التلاؤم والانسجام بين طرفين أو عنصرين سواء في داخل الشيء ذاته كالذرة أو صورتين منفصلتين عن بعضهما كالذكر والأنثى.

- حركة جدلية نقيضية في الشيء ذاته بنيته الذاتية تؤدي للتطور والهلاك نهاية لينتقل إلى صورة أخرى مثل موت الكائنات، وفي هذا النوع قال أرسطو بمبدأ الهوية وقصد الصورة التي يوجد بها الشيء، فعندما يكون

الخشب بصورته تلك فهو ليس صورة الرماد قطعًا ولا ينطبق عليه سنن الرماد والعكس صوابًا، وثبات الهوية (الصورة) ليس نفي لقانون الهلاك والتحول على صورة أخرى، وإنما هو ثبات الخشب على صورته مادام خشبًا، فإذا تحولت صورته إلى رماد بقانون أخذ هوية (صورة) أخرى، والمقصد أننا حينما نتعامل مع الصور نتعامل معها بصورتها الحالية الماثلة أمامنا.

- حركة جدلية تعاقبية وتظهر هذه العلاقة بين ظواهر الطبيعة مثل السخونة والبرودة أو الليل والنهار، يجتمعان في نقطة تكون نهاية الأول وبداية الآخر.

- حركة جدلية فكرية نقيضية وتكون بالحكم على المفاهيم والأفكار والأحداث إما حق أو باطل، وفي هذا النوع يصح كلام أرسطو (الثالث المرفوع).

2. الوجود الموضوعي يقوم على العلاقة الثنائية والزوجية ولا يوجد شيء أحادي.

3. التوالد المستمر للوجود وهو قانون مبني على قانون الحركة بصورتيه الضدية و التناقضية.

4. بما أن الوجود الموضوعي يقوم على الحركة نتج عن ذلك الزمن كبعد رابع له، وهذا الزمن يظهر بالوقت النسبي الذي يتعلق بطبيعة حركة الشيء، فلا يوجد زمن دون حركة، ولا حركة دون مكان (صورة شيئية موضوعية).

5. تقوم الحياة على صورة الماء بأنواعها (الغازية أو السائلة أو الصلبة أو الرطوبة).

6. الإنسان جزء لا يتجزأ من الوجود الكوني الموضوعي، وهذا يقتضي أنه

لا يحيط به علمًا، ويتعامل معه بصورة نسبية حسب أدواته المعرفية المتنامية والمتطورة، وبالتالي كل معارفه نسبية وليست مطلقة.

7. يقوم الوجود الموضوعي على نظام العلاقات بين عناصره وصوره.

8. يسير الوجود الموضوعي إلى الأمام عمومًا ويتوسع ويتنامى ويتطور ليصل إلى مرحلة النهاية الحتمية للصور مهما طال الزمن ويرجع إلى المادة الخام الصورة البدائية للخلق.

9. حركة الوجود الكوني الموضوعي يقوم على محور الثابت والمتغيِّر بالوقت ذاته. وهذه طبيعة قانون الحركة بأنواعها.

10. الوعي وظيفة تميز بها الكائن الإنساني عن سائر الكائنات، ونقصد بالوعي التصرف بحرية وغائية.

11. تميز الكائن الإنساني بامتلاكه نفسًا، وهي نظام برمجي (صورة) منفوخة بجسمه (الدماغ) صار على موجبها إنسانًا واعيًا مميزًا مدركًا.

12. عندما صار الكائن الإنساني واعيًا حرًّا صار كائنًا اجتماعيًّا ضرورة.

13. بولادة الوعي والمجتمع تأسس التفكير عند الإنسان كظاهرة اجتماعية.

14. بظهور الوعي وولادة المجتمع وتأسيس التفكير ظهر النظام الصوتي (اللسان) كوعاء حامل وحافظ للمعلومات وبالوقت ذاته حقل للتفكير وأداة للتواصل المعرفي بين الناس.

15. الواقع (الوجود الكوني بصوره) سابق عن الفكر والعلم به وهو أصل وأساس للتفكير وتحصيل المعلومات وبالوقت ذاته هو موضع التفكير والدراسة.

16. الوجود الكوني الموضوعي الذي يقوم على الحركة ابتداء وهي لازمة له هي شيء غير بنيته وإنما نظام سنني مفروض عليه سواء بصورة جزئية أو بصورته الكلية، بمعنى أن الجزء قد يستمد حركته من جزء آخر أو وظيفته، ولكن في النهاية الوجود الكوني كله بكل صوره يستمد نظامه وقوة حركته من غيره لا محالة، ومثل ذلك كمن قام بصنع دائرة مؤلفة من كرات صغيرة تمسك ببعضها، ووضع لها نظام حركي (قوة ذاتية).

وهذه الكرات شكلت الدائرة كلها وتماسكت وأغلقت على ذاتها وصارت تسير بقوة الحركة الموضوعة بها، فالمشاهد لها بشكل ظاهري يظن أن حركة الدائرة ذاتية لا بداية ولا نهاية لها، ولكن من يدرسها يدرك أن الحركة لها بداية ضرورة وإغلاق الدائرة كانت نتيجة قيام الفاعل بذلك وليس هو فعل ذاتي لها، وظهور حالة الانغلاق وانتفاء ظهور البداية من النهاية في الدائرة لا ينفي أن الدائرة ككل لها بداية في صنعها ونهاية في حركتها وتتلاشى.

17. الإنسان موجود في الكون ليقوم بدور عظيم على صعيد شخصه من خلال تفاعله مع المجتمع والواقع.

18. الموت للإنسان هو خروج نفسه التي نفخت في دماغه وتوفيها، وفناء جسمه كصورة وتحوله إلى صورة الخلق الأول مادة خام (عناصر الخلق الأولية).

19. النفس كائنة سرمدية محافظة على هويتها لا تفنى وتحتفظ ببيانات الشخص الذي شكلها في الحياة الدنيا وصار بها زيدًا أو عمرًا، صالحًا أو طالحًا.

20. الحرية في الإنسان قانون نفسي من الحاجيات النفسية التي تقوم عليها، فالكائن الإنساني ملزم بممارسة الحرية خلقًا.

21. الأخلاق قانون اجتماعي ملزم للناس لا يطلب أحد عليه البرهان.

22. كل الناس سواسية من حيث الخلق كلنا من تراب وإلى تراب كأجسام، وتتفاوت نفوسنا بما نكتسب من علم ومعرفة وعمل صالح نرتقي به ونزكو.

23. بما أن الإنسان يولد حرًّا فلا شك هو يملك حرية الفكر والتصورات وهي جزء من شخصيته.

24. لا يحق لأحد أن يكون وصيًّا على أحد في تصوراته وفكره؛ لأن الجميع لهم الحق ذاته.

25. لا يحق لأحد أن يحاسب أحد على فكره أو تصوراته.

26. علاقة الناس في الدولة فيما بينهم تقوم على العقد الاجتماعي فقط والمواطنة ودولة المؤسسات المدنية بصرف النظر عن العرق أو الملة.

27. لا يحق لأحد شن حرب لنشر فكر أو تصورات مجتمع على آخر فهذا ظلم وعدوان وتعدي على حريات الآخرين.

28. الأصل في علاقة الشعوب التعايش والتعارف والتعاون.

29. مفهوم الإسلام العام المطلوب تحقيقه بين الناس يقوم على السلم النفسي والسلام السلوكي بصرف النظر عن الملة أو الدِّين.

30. يقوم المجتمع على جانب ثابت في تشريعه منبثق من ثقافته، وجانب متغيِّر يتحرك به وفق المناسبات والظروف والأحسن.

31. الأخلاق نظام اجتماعي ثابت، والقيم كذلك، وما يُسمَّى الوصايا العشر، ونظام العلاقات مع المحارم في الأسرة الواحدة، وهذه الأمور هي الحد الأدنى التي يقوم عليها المجتمع بعلاقاته مع بعضه، وله أن يضيف عليها ما يراه مناسبًا ولكن لا تأخذ صفة التعميم وتبقى خاصة بالمجتمع ذاته.

32. الدولة ليست دينية لأنها شخصية اعتبارية وإنما تقوم على ثقافة المجتمع بحيث عندما يكون الدِّين أحد مقومات المجتمع الثقافية يصير مصدرًا دستوريًّا رئيسًا وليس نهائيًّا.

33. الحكومة سلطة أخذت شرعيتها من الدستور، وتقوم على الإكراه والقوة حماية الدستور والمجتمع والإشراف على القانون، وهذا نقيض قيام الدِّين على الحرية الشخصية، وبالتالي لا يجتمعان مع بعض قط.

34. تقوم التشريعات على مفهوم النفع والمصلحة للناس ككل، وما يضر المجتمع يجتنب ويُهمل ولو كان حكم ديني جزئي.

35. مفهوم مرجعية الناس وما يقبلون أو يرفضون يؤخذ به في غير دائرة العلم أو ثوابت الدِّين القطعية المذكورة آنفًا التي يسلم بها كل الناس (الأخلاق والقيم والوصايا العشر ومحارم النكاح) لأن الدِّين القيم هو ما يوافق فطرة الناس ورؤيتهم الاجتماعية.

36. المجتمع ظاهرة إنسانية موضوعية يخضع لسنن تحكمه تطيل بعمره أو تهلكه، والإنسان كمجتمع يستطيع أن يناور في عمر مجتمعه إصلاحًا ونهضة وعدلًا وحرية فيطيل عمره أو يهلكه بالظلم والفساد والعدوان والاستعباد.

37. الإنسان كائن اجتماعي حر بشخصه وفكره مُلزم بطاعة قانون مجتمعه.

38. الأجوبة على الأسئلة الفطرية الفلسفية (كيف، لماذا، أين) هي القاعدة الفكرية التي يَبني الإنسان فكره عليها، ويُكيف رؤيته للحياة وعلاقته مع الآخرين، ولما قبل الحياة، وما بعد الحياة على موجبها.

هذه رؤية كلية مختصرة، ويحتاج كل فقرة لدراسة وعرض الأدلة عليها[35].

35 للتوسع ببعض المفاهيم راجع كتابي دراسة إنسانية في الروح والنفس والتفكير.

القراءة المعاصرة للقرءان
ضرورة ثقافية اجتماعية

مُسلّمة صلاحية القرءان واستمراره لكل زمان ومكان عند المؤمنين به تقتضي بطبيعة الحال بشكل منطقي أن تكون بُنية القرءان بُنية مختلفة تمامًا عن أية بُنى من النصوص الأخرى، ومن هذا الوجه لم يُعدّ النص القرءاني نصًّا تاريخيًّا كأي نص آخر، وهذا صواب.

ولكن نفي صفة التاريخية عن النص القرءاني أدّى عند المسلمين خلال قرون مضت إلى أن يجمدوا دراسة هذا النص ونفي فاعليته تمامًا.

وسحبوا التفاعل الأول الذي لازم النص نزولًا إلى المجتمعات اللاحقة؛ إذ صار كل مجتمع بمثابة قناة نقلية يتم من خلالها مرور التفاعل الأول، وهكذا صارت ثقافة المسلمين ثقافة نقلية، والعلم هو حدثني فلان عن فلان (ثرثرة تاريخية)، وكثرت المقولات التي تشيد بالتثقيف الوراثي نحو: «عليكم بالأمر العتيق» و«خذوا العلم ممن مات لأن الحي لا يُؤْمَن عليه الفتنة»... إلخ.

وبهذا العمل صارت المجتمعات نسخة طبق الأصل عن المجتمع الأول الذي عاصر نزول النص الإلهي.

فكان هذا الأمر أحد أهم أسباب تخلف المسلمين وتغيبهم عن ساحة عالم الشهادة، ودخولهم في متاهة التاريخ وتبني المواقف الأيديولوجية في ذلك الوقت وبدء الصراع

من جديد من خلال سحب هذا الصراع الأيديولوجي، وما نتج عنه من فقه وعقائد إلى الزمن المعاصر؛ إذ صار المجتمع الحالي يعيش في الماضي فكرًا وثقافة، أما حضوره في الزمن المعاصر فهو حضور شبحي «كأنهم خشب مسندة»!

لذا؛ يجب أن نفرّق بين النص الإلهي وبين فهم المجتمع وتفاعله مع النص الإلهي؛ لأن تفاعل المجتمع مع النص وصياغة تفسير ومفهوم له يخضع لعامل التاريخ، وذلك لأن المجتمع يتعامل مع النص الإلهي حسب أدواته المعرفية فيكون فهم النص من قبل أي مجتمع خاص لهم لا يتجاوزه إلى غيره إلاّ من كونه تراثًا ثقافيًّا يؤخذ به بعد عملية فرزه حسب الأدوات المعرفية الجديدة، ويبقى النص الإلهي مستمرًا في الوجود والعطاء الزمكاني لكل مجتمع يتفاعل معه بشكل مباشر حسب أدواته المعرفية.

ومع هذا الوجه تظهر لنا الحاجة الملحة للقراءة المعاصرة للنص الخالد حتى نحمي مجتمعنا من الاختراق الثقافي والعولمة ومن الذوبان في الثقافة الوافدة إلينا عبر وسائل التقنية التي فرضت ذاتها علينا من خلال قانون التطور والتواصل العالمي الاقتصادي والإعلامي وتابعية الضعيف للقوي.

هذه القراءة المعاصرة للقرءان ضرورة ثقافية لتماسك المجتمع وإعادة بنائه من جديد على أسس ثقافية تسع الجميع لينهض المجتمع من سُباته الذي غرق فيه مئات السنين ليبني أساس البيت الكبير الذي هو حق للتابعين له من دون تفريق بين واحد وآخر.

ويلزم الانتباه والحذر أن النهضة في المجتمع الحالي لا تقتضي بالضرورة قراءة التراث كله والقيام بدراسات موسوعية لمختلف العقائد والملل والنِحَل وتحليل أحداث كل مجتمع بعينه وإخضاعها إلى دراسة علمية حسب أدواتنا المعرفية.

إن ذلك فخ ثقافي يجعل مفكري الأمة يغوصون في تراثهم كل حسب وجهة نظره

وأدواته المعرفية فيزيدون الأمر هولًا ويسحبون إشكاليات التراث إلى الزمن المعاصر لتصير مشكلاتهم وديدنهم وينقسمون فِرَقًا متناحرة وينعكس ذلك على المجتمع، وبالتالي يعود إلى سُباته غارقًا في أحلامه التراثية ويغيب عن ساحة عالم الشهادة.

والنص القرءاني نص ارتبط بالواقع من كونه محلًّا لخطابه، وبالتالي أخذ صفة الواقع ذاته من حيث الثبات والتغيير، فما هو ثابت في الواقع يكون كذلك في النص، وما يكون متغيِّرًا في الواقع يكون كذلك في النص على صعيد الآفاق والأنفس، والعلاقة بينهما علاقة اللازم بالملزوم لا ينفكان عن بعضهما بعضًا أبدًا ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

فوحدة المصدر - الواقع/ النص - تقتضي تطابق القول مع الفعل ضرورة(كلام الله وكلماته). ومن هذا الوجه ظهرت مقولة: ثبات المبنى والمفهوم وحركة المعنى؛ لأن الإنسان ليس مَلِكًا في الأرض، وليس عبدًا مملوكًا. وإنما هو في مقام الخلافة، «إني جاعل في الأرض خليفة» [البقرة: 30]، الذي يقتضي الالتزام بالحدود التي أَمرَ بها المستَخْلِف «تلك حدود الله فلا تعتدوها» [البقرة: 229].

هذه الحدود تمثل الجانب الثابت من التشريع، وقد أعطى الُمستَخْلِف للخليفة حرية التحرك ضمن هذه الحدود، ليحقق مصلحته ويواكب التطور والمستجدات ليحصل عنده التوازن النفسي والاستقرار الاجتماعي، ويعيش في سعادة نسبية على جنة الأرض من خلال عمارتها وتسخير ما فيها لنشر العدل والمحبة والسلام والأمان بين المجتمعات الإنسانية، وهذا هو الجانب المتغيِّر من النص الإلهي.

نظرة على منهج القراءة المعاصرة للقرءان

قد يظن بعض الباحثين أن القراءة المعاصرة للقرءان مُتسيبة لا ضوابط لها، وبالتالي فممكن أن تظهر قراءة وجودية للقرءان تنفي مصدريته الإلهية، بل تنفي الإله نفسه، وتُعَدُّ هذه القراءة رأيًا لصاحبها يجب أن يُصان حسب الذين يدعون للقراءة المعاصرة!

من هذا المنطلق رفضوا القراءة المعاصرة من أساسها، ومنهم من قبلها بشرط أن تُعيد تأسيس التراث وتعطيه الحياة مرة ثانية، ولست في صدد نقاش الرأيين وإنما سأكتفي بالإشارة إلى أهم الأسس التي يجب أن تقوم عليها القراءة المعاصرة للقرءان، ومن خلالها وما سبق ذكره يظهر تهافت الرأيين السابقين.

أولًا: أساس القراءة المعاصرة للقرءان ومنطلقها هو الإيمان بمصدريته الإلهية، لأن انتفاء هذه المصدرية ينفي عنه القراءة المعاصرة ويصير نصًّا تاريخيًّا وتراثًا لمن سبق من المجتمعات غير مُلزم بقراءته.

ثانيًا: النص القرءاني نزل باللسان العربي المبين وهذا يقتضي أن نتعامل معه حسب بنية اللسان العربي وقواعده الموجودة في الخطاب ذاته.

أهم مفاهيم اللسان العربي[36]

1. نشأة اللسان نشأة علمية وليست اعتباطية أو توقيفية.
2. إذا اختلف المبنى اختلف المعنى.

36 راجع كتابي «علمية اللسان العربي».

3. أسلوب الرمز استخدمه القرءان بشكل عربي.
4. نفي المجاز وما سُمِّي خطًا بالترادف عن اللسان العربي.
5. نظام استخدام الضمائر في القرءان يختلف عن الاستخدام الشائع بين الناس.
6. أي تغيير في بنية الجملة من زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير يؤثر بالمعنى والمفهوم.
7. العطف يقتضي التغاير.
8. العلاقة بين اللسان العربي والواقع جدلية.
9. الألفاظ العربية أجسام تقوم بها المفاهيم.
10. الألفاظ العربية حقل وميدان للتفكير.

إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة باللسان العربي.

وسأضرب مثلًا على أهمية معرفة استخدام الضمائر وعدم شرطية رجوعه لأقرب مذكور قبله.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الأنفال:61 -62].

فالضمير في جملة (فاجنح لها) يعود لكلمة (قوة) في النص الذي سبق؛ لأن الضمير أتى بصيغة المؤنث، وكلمة (السَّلم) مذكر بينما كلمة (قوة) مؤنث، والمقصد هو أن أعداء الله إن ارتهبوا من قوتكم وجنحوا للسَّلم، ويكون ذلك عادة اضطرارًا، فحافظوا على قوتكم الرادعة، ولا تجنحوا للدعة والراحة فتعطوا بذلك للعدو مبرر الرجوع إلى

العدوان والإرهاب، لأن اتخاذ موقف السّلم من قبل العدو مناورة وليس ثقافة.

ثالثًا: إن كتاب الله عز وجل لم تنزل مواضيعه بشكل مرتب ومتسلسل، وإنما توزعت وتداخلت ببعضها بعضًا لحكمة أرادها الله عز وجل، مما اقتضى ضرورة أن أية دراسة للقرءان لا يمكن أن تتم على شكله الحالي كما هو معهود بطريقة المفسرين التقليديين، بل لا بُدَّ من عملية ترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد وإخراجها من القرءان لتشكل مع بعضها منظومة واحدة وتُرتَّب أولويًّا حسب منظور علمي ومن ثم تتم دراستها.

رابعًا: استحضار الكُلِّيات في القرءان على صعيد الآفاق والأنفس ليتم فهم الأمر الجزئي ضمن منظومته من خلال الكليات والمقاصد.

خامسًا: كون النص القرءاني إلهي المصدر يعني ضرورة نفي صفة الحشو واللغو والخطأ والتناقض والكذب وأية نقيصة عنه؛ لأن ذلك يؤثر على فهمه ودراسته.

سادسًا: استبعاد الفهم السطحي السريع للنص القرءاني الذي يأتي من عامة الناس وما تعارفوا عليه من دلالات لاستخدام الكلام، وإنما يجب الغوص في أعماق النص لاكتشاف أغواره ومقاصده للوصول إلى الجديد والبديع في فهم النص.

سابعًا: الآفاق والأنفس هما السكة التي يمشي عليها العقل لمعرفة ودراسة عمق النص القرءاني من خلال إسقاط الدال (النص) على المدلول عليه (محل الخطاب من الواقع).

ثامنًا: إن فهم النص القرءاني يتطور مع تطور الأدوات المعرفية، وبالتالي يؤدِّي إلى اتساع أفق وأبعاد النص ضمن الجانب الثابت فيه كآفاق وأنفس.

تاسعًا: يجب الانتباه إلى مفهوم الرمزية في الاستخدام القرءاني للكلمات؛ لأن إغفال ذلك يجعل مفهوم النص باهتًا هزيلًا ومُغيّبًا عن الواقع.

وهذا مثال لتوضيح كيف يتم استخدام المفهوم الرمزي من خلال ترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد والآيات التي استخدمت الكلمة ذاتها بعدة دلالات بجانب معرفة الوظيفة التي يمكن أن تنتقل من الشيء المذكور صراحة في النص إلى المغَيَّب ما وراء الألفاظ من مقاصد.

الشجرة الملعونة في القرءان

قال تعالى: «والشجرة الملعونة في القرءان» [الإسراء: 60].

النظرة السطحية للنص واستدعاء دلالة كلمة «شجرة» من عوام الناس والتأثر بالتراث نقول: إن الشجرة من النبات! ولكن إذا تعمقنا قليلًا في النص نلاحظ أن النص يذكر شجرة ملعونة في القرءان مما يعني وجود اسم هذه الشجرة وصفتها في القرءان ذاته! وإذا بحثنا في القرءان ولم نجد شجرة نباتية قد نص الخالق على لعنها نعلم عندئذ أن ليس المقصود بكلمة شجرة هو المعنى المستخدم بين عامة الناس وإنما المقصد معنى آخر لكلمة شجرة تدل عليه بدلالتها اللسانية.

إذنْ؛ لا بُدَّ من استخدام الفهم العميق واستحضار النصوص الكلية من القرءان المتعلقة بالموضوع ذاته، فنلاحظ أن فعل اللعن لا يمكن في الواقع أن يكون إلا لعاقل، وكون الأمر كذلك مما يؤكد ضرورة أن كلمة شجرة ليس المقصود بها في النص النبات، وإنما المقصد هو دلالتها اللسانية التي تدل على تداخل الشيء ببعضه بعضًا أو مع غيره.

ومن ذلك نقول: الشجار الذي هو تخاصم الناس فيما بينهم، وسُمِّيت الشجرة كذلك؛ لأن أغصانها تتداخل مع بعضها بعضًا، وأطلقت كلمة شجرة على تداخلات وعلاقات العائلة أصولًا وفروعًا (شجرة العائلة).

وإذا تابعنا البحث عن الشجرة الملعونة في القرءان نجد أنها شجرة اليهود، بمعنى

العلاقات الاجتماعية اليهودية، وبالتالي أي مجتمع يتشاجر مع اليهود تصيبه اللعنة ضرورة؛ لأن الفساد الاجتماعي عدوى.

عاشرًا: ينبغي على المجتمع الإسلامي أن يُعيد تنزيل القرءان في زمنه وفق اتباع الأحسن والمناسب لمعطيات زمكانيته، ويصلح به حاله. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر55]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:18].

كيف تحكم على دراسة قرءانية في بضع دقائق

كل كتاب له مقدمة وفهرس مواضيع، فيمكن أن تقرأ المقدمة فتأخذ فكرة عن الكتاب كله، ثم تفتح فهرس المواضيع وتقرأ العناوين التي تطرق إليها دراسة، وتفتح أحدها لتتطلع على طريقة معالجته للفكرة وكيفية البحث، وهذا لا بُدَّ له من سوية ثقافية عند القارئ يملكها ليستخدمها في تقويمه للكتاب.

على صعيد المنهج اللساني:

1. كل بحث يعتمد على اعتباطية نشأة اللسان العربي أو اصطلاحها أو وضعها يكون بحثه عبثًا ولغوًا.
2. كل كتاب يستخدم إمكانية وجود تطابق في المعنى بين كلمتين مختلفتين بالمبنى يكون بحثه لغوًا وعبثًا لا قيمة له علميًّا؛ لأن القاعدة العلمية اللسانية المنطقية تقول: (إذا اختلف المبنى اختلف المعنى ضرورة).
3. كل كتاب يعتمد على أسلوب المجاز في الخطاب القرءاني تكون دراسته عبثًا ولغوًا لا قيمة لها؛ لأن الخطاب القرءاني يقوم على الحق والصدق والفصل في الخطاب وهو نور وبرهان.
4. كل بحث يُجَوِّز أن تحل الأدوات اللسانية بدل بعضها مثل أحرف الجر أو العطف يكون بحثه لغوًا وعبثًا.
5. كل بحث يجعل المعاجم أو القواميس حُكمًا على القرءان فهو لغو وعبث.

6. كل بحث يتعامل مع الخطاب القرءاني بشكل مجزأ وعضوضة يكون عبثًا ولغوًا.

7. كل بحث يتعامل مع الخطاب القرءاني تعامله مع الشعر والنثر من حيث التساهل والتجاوز والمبالغة وما شابه ذلك يكون بحثه عبثًا ولغوًا.

8. كل بحث يجعل فهم الرجال ورأيهم حكمًا أو برهانًا على فهم القرءان يكون بحثه عبثًا ولغوًا.

على صعيد المنهج الدراسي:

1. كل بحث يعتمد أقوال السلف أو التفسير كمصادر ومراجع وبراهين لدراسة القرءان فهو بحث عبثي ولغو.

2. كل بحث يستبعد الواقع من دراسته للخطاب القرءاني يكون بحثه خرافة وخيال.

3. كل بحث يستبعد العلم والأدوات المعرفية الحالية المتطورة في دراسة الخطاب القرءاني يكون بحثه عبثًا ولغوًا.

4. كل بحث يسقط من دراسته القرءانية البُعد الزمني والتاريخي لدراسة حدث يكون دراسته عبثًا ولغوًا.

5. كل بحث يدرس الخطاب القرءاني من منطلق القومية العربية يكون بحثه عبثًا ولغوًا.

6. كل بحث يجعل كلام الله تابع لكلام بشر كائن من كان أو بحاجة له يكون دراسته عبثاَ ولغوًا.

7. كل بحث يستبعد النظرة الكونية والإنسانية عن الخطاب القرءاني يكون دراسته عبثًا ولغوًا.

8. كل دراسة لا تفرق بين حاكمية الله، وحاكمية الإنسان تكون دراسته عبثًا ولغوًا.

9. كل دراسة للقرءان تدمج الدِّين بالسياسة تكون دراسة عبثية لغوية.

10. كل دراسة للقرءان تستبعده من الحياة الفاعلة للمجتمع ثقافة هي دراسة عبثية لغوية.

11. كل دراسة للشرع القرءاني تعتمد على العينية والحدية للأحكام تكون دراسة عبثية لغوية.

12. ....

تحذير من دعوات شيطانية بلباس قرءاني وعقلاني

ظهر في الآونة الأخيرة مجموعة من الكُتَّاب الجُدُد يدَّعون أنهم باحثون في القرءان ولهم منهج خاص بهم ويدَّعون أنه الصواب، وتطرفوا في ادِّعائهم فيما بينهم بدرجات متفاوتة، فأحدهم وصل إلى أن القرءان من كلام محمد وتأليفه ضمن الأرضية المعرفية حينئذ وهو خاص في زمنه، ولا يصلح للدراسة الحالية إلا ككتاب تاريخي، وصار يسخر كل حين ومين من النص القرءاني لمجرد أنه لم يفهمه، مثل (القبانجي) وصرح الرجل أنه ليس على دين محمد وأنه رجل علماني إنساني، ولو أنه مازال يحتفظ بلباس الكهنوت الدِّيني على الملة الشيعية.

وآخر تطرف في دراسة القرءان لدرجة أنه أنكر النبي محمد نفسه وصار يشتمه بفحش، وأنكر وجود مكة والكعبة وكل ما هو ثابت في تاريخ الأمة وجغرافيتها وثقافتها من صلاة وصيام وحج...حتى وصل لمبنى النص القرءاني ذاته وادَّعى أنه محرف وصار يزيل النقط والتشكيل حسب مزاجه وهواه، فقال مثلًا: إن كلمة (التين والزيتون) محرفتين فهما على الشكل الحالي لا معنى لهما ولا فائدة من ذكرهما، والصواب هو (واللين والزينون) من الليونة والزينة!

ولكم أن تتصوروا لو كل شخص لم يعجبه لفظ الكلمة ومعناها فذهب يحرف تنقيطها وحركاتها وغيَّرها كما يحلو له، هل يبقى من النص القرءاني الأصلي شيئًا؛ لأن رأي فلان بالتنقيط غير ملزم لوجود احتمال آخر، وقام أحد القراء الأذكياء وردَّ عليه وقال: أنا أجد جملة (ذلك الكتاب لا ريب فيه) كلام فارغ ولا معنى له لوجود الريب

فيه، والصواب هو (ذلك الكباب لا زيت فيه)! فبهت الذي حرَّف وكذَّب وكفر بالقرءان وطرده من الصفحة فورًا!

وظهر أيضًا رجل آخر ادَّعى أنه باحث قرءاني غيور ينشر العلم والنور بين الناس، وطبيعي أن يوجد ضمن دعوات الشيطان كلام صواب ومعسول حتى يقبله الناس وإلا نفروا عنه فورًا، ويقوم بدس السم خلاله دون أن يشعر القراء والمتلقون للأفكار فنجده يصرح بكل جهل ودون حياء إن الخطاب القرءاني يقوم على الترادف[37] وليس نفي الترادف وصار يتهم من ينفي الترادف عن الخطاب القرءاني بأنه جاهل وكافر ونهايته جهنم....

وهذا موقف عجيب وغريب أن يصدر من باحث، ولكن ينبغي أن يظهر الحق ويتم كشف الجهلة والمدعين للعلم، وهذا ما حصل مع صاحبنا المدَّعي للعلم والبحث، وكشف نفسه بلسانه وكتب متهجمًا على المفكرين الجادين.

ولولا طلب بعض الإخوة الأعزاء الرد على هذا الضلال والانحراف في فهم القرءان ومنهجه لما تناولت منشوره أو رأيه بنقد (رغم اطلاعي على منشوراته سابقًا) لأني لم أشعر أن رأيه يصلح للنقاش أو التحليل، والقارئ سوف يعرف ذلك وحده بعد القراءة المستنيرة، اقرؤوا بأنفسكم.

....

قال: نَسْخ القرءان العظيم لنظرية اللا ترادف الإبليسية.

أهدي مقالتي هذه إلى محمد شحرور وتلاميذه.

سبحانك اللهم ربّي على عظمة كتابك، معنى مُترادف واحد من خلال سورة القلم وسورة الأنبياء ينسخ نظرية اللا ترادف الشيطانية.

---

37 يقصد الشخص بكلمة الترادف المعنى الخطأ وليس المفهوم اللساني ، يعني وجود كلمتين أو أكثر مختلفة بالمبنى ولكن متفقة بالمعنى، لأن الترادف الحقيقي موجود في القرءان وهو بمعنى العلاقة الجزئية بين دلالة الكلمات وتقاربها وليس تطابقها في المعنى، والقاعدة هي: إذا اختلف المبنى اختلف المعنى ضرورة.

السلام على من اتَّبع سياسة الترادف.

سُورَةُ الزُّمَر:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزُّمَر:23].

*سُورَةُ الفُرقان:

﴿فَلَا تُطِعِ الكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفُرقان:52].

1. تعالوا معًا إخوتي وأخواتي الكرام نرى كيف نسخ الله تعالى ودمَّرَ نظرية اللا ترادف الشيطانية من خلال أحسن التفسير (القرءان الحكيم).

* سُورَةُ القَلَم:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم:48-50].

سُورَةُ الأنبيَاء:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبيَاء: 87].

معنى كلمة النون: من فعل نون.

النون: جمع نينان وأنوان: الحوت.

ذو النون: لقب يونس عليه السلام.

آية (48) من سورة القلم: «... وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ...» = آية (87) من سورة الأنبياء: «وَذَا النُّونِ»...

«صاحب الحوت = «ذا النون».

«الحوت» = «النون».

كيف تكون عندكم الجرأة بالتكبرّ والجدال في آيات الله بعد هذا الدليل القاطع أظنّ لقد حان وقت سجودكم، أي: ركوعكم، أي: خضوعكم لآيات الله جلَّ في علاه، ولكن في النهاية أنتم تختاروا إمَّا طريق الجنَّة وإمَّا طريق جهنمّ.

سُورَةُ الأنعَام:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[الأنبياء: 98].

نصيحة لكم أن تبتعدوا عن آلهتكم؛ لأنَّ مصيركم حصب جهنمّ أنتم فيها خالدون.

2. إخوتي وأخواتي الأفاضل من فضلكم انتبهوا هنالك مؤامرة كبيرة وهجمة شرسة على كتاب الله من مختلف المذاهب وخصوصًا ﴿مذهب اللا ترادفيين﴾ هدفهم تقسيم القرءان وتحريف الكلِمَ عن مواضعه وإبعاد الناس عن الحقيقة.

إخوتي وأخواتي الأفاضل هل تعلمون إذا قلنا افتراضًا بأنَّه لا وجود للترادف ماذا سيحصل لهذا الكتاب العظيم؟

الجواب كالتالي: إذا قلنا: لا وجود للترادف في القرءان الكريم فهذا يعني أنَّنا نقول أنَّ القرءان لا يوجد فيه الجواب، أي: القرءان فيه أسئلة من دون جواب، ويجب علينا أن نبحث عن الجواب خارج القرءان، أي: القرءان غير مُترابط الآيات.

وعدم جود الترادف يعني أيضًا: أنَّ القرءان غير مُفسرّ وغير مُفصلّ وغير مُبيَّن والقصد بعدم وجود الترادف أيضًا يعني علينا أن نقرأ الآيات ونبحث عن معناها وجوابها من خلال فلسفتنا السفسطائية وليس من داخل البيان القرءاني، أي: يجب علينا أن نأخذ العِلْم من الأبالسة والشياطين الذين يُسمّون أنفسهم بالتنويريّين.

إنَّ وجود الترادف، أي: إنَّ رابط الآيات وكلماتها، أي: تفسيرها من خلال نفسها هو الجهاز المناعي والمضاد للفيروسات من عدم تحريفها والاستهزاء بها من خلال الفيروس اللا ترادفي الفتَّاك الشيطاني.

الحمد لك يا ربّ على وجود الترادف في قرءانك العظيم (ذكرك الحكيم).

3. سيبقى وجود الترادف في القرءان الحكيم حسرة على الكافرين.

*سُورَةُ الحَاقَّة:

﴿ وَإِنَّا لَنَعلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَسرَةٌ عَلَى الكَٰفِرِينَ ﴾ [الحاقة:49-50].

وهذا نقدي أو ردي عليه:

نقد مختصر لتسليط الضوء على سطحية علاجه وكتابته وهزليتها لدرجة السذاجة:

- **عرَّف صاحبنا الترادف بقوله:** إنَّ كلمة ترادف آتية من فعل ردف. وردف تعني: تَبِعَ. وردفه ردفًا تعني: تبعهُ وركب خلفه. وأردفَ بالشيء وعليه تعني: أتبعَهُ عليه. وترادفًا تعني: تتابعًا وتعاونًا. وترادفت الكلمات تعني: تشابهت في المعنى.

ج- الذين نفوا الترادف لا يقصدون نفي التشابه بين معاني الكلمات أو علاقتها ببعضها بوجه من الوجوه الجزئية وتداخل المعاني مع بعضها، وإنما قصدوا نفي تطابق الدلالات لكلمات مختلفة المبنى مع إمكانية وجود تداخل أو تشابه في المعنى بشكل

جزئي دون التطابق بينهما الكلي، واستخدموا للتعبير عن ذلك كلمة نفي الترادف كخطأ شائع بين الباحثين في استخدامها ولم يقصدوا نفي الترادف بالمعنى اللساني الذي ذكره صاحبنا، فهو ليس محل اختلاف بين كل الباحثين على مختلف المدارس اللسانية، والقاعدة المتبناة، والتي يصرحون بها هي: (إذا اختلف المبنى اختلف المعنى ضرورة على صعيد بناء الكلمة أو الجملة) وأثبتوا وجود الترادف بالمفهوم الصواب في اللسان العربي بمعنى ردف الكلمات مع بعضها ذات المعنى المتشابه أو المتداخل مع بعضها بشكل جزئي، خاصة التي تشترك بأكثر من صوتين بترتيب واحد كون الجذر هو ثنائي أو ثلاثي.

فماذا يقصد صاحبنا بمفهوم الترادف الذي أثبته واستنكر من نفاه؟

هل يقصد الترادف بمعنى وجود تشابه وتقارب واشتراك جزئي في معاني الكلمات المختلفة بالمبنى بحيث تدعم الكلمات بعضها في توصيل المعنى وتسلط كل كلمة الضوء على زاوية من المعنى لتغطي الحدث أو الموضوع أو محل الكلام ولتدل على أسماء متغايرة المعنى لمسمى واحد مثل الرحمن والرحيم والعزيز والغفور والخالق والبارئ والمصور...إلخ، فهذه كلمات مختلفة المبنى متغايرة المعنى مشتركة لمسمى واحد وهو الله؟

طبعًا؛ لا يقصد صاحبنا هذا المعنى؛ لأن هذا رأي نفاة الترادف الشائع الذي تبناه الشحرور ومن اتبعه في نفي الترادف، إذنْ؛ يقصد صاحبنا من إثبات الترادف هو المعنى الشائع المستخدم خطأ(تطابق المعنى لكلمات مختلفة المبنى) رغم أنه عرف الترادف بشكل صواب، ولكن يبدو لم يفهمه أو غفل عن تطبيقه بشكل صواب بدليل تهجمه على نفاة الترادف، أو نفترض: أنه لم يفهم عليهم وهذا ليس جيدًا بحق صاحبنا ومستواه الذي قدم نفسه به كباحث!

ومع ذلك نجده قال في منشور آخر:

• إخوتي وأخواتي الكرام، الصلواة هي القرءان والعكس صحيح، وكل كلمة لها معنى خاص بها. والصيام هو الصلواة والعكس صحيح، وكل كلمة لها معنى خاص بِهِا. والصلواة هي الزكواة والعكس صحيح، وكل كلمة لها معنى خاص بها. والصيام هو الحج والعكس صحيح، وكل كلمة لها معنىً خاص بها.

• وقال أيضًا: قد أمرنا الله تعالى أن نتبع سياسة الترادف والتشابه والمجاز وضرب المعاني ببعضها.

ج- بصراحة لم أفهم ماذا يريد توصيله من كلامه هذا، هل يقول بالترادف أو ينفيه أو يثبت كلاهما، وبأي معنى يستخدم مفهوم الترادف؟ وهذا غير إثباته للمجاز في القرءان، فهذا بحث آخر وله رد مختلف، رغم أنه نتيجة منطقية لمن يثبت الترادف، فهما مسألتان متلازمتان يثبتان مع بعض وينتفيان مع بعض، ولا يصح نفي أحدهما وإثبات الأخرى.

والراجح عندي يقول: بإثبات الترادف والمجاز بدليل كلامه نفسه في المنشور، وبدليل تهجمه على نفاة الترادف، وأفترض أنه فهم رأي نفاة الترادف بأي معنى يقصدونه كونه باحثًا وليس جاهلًا، وبالتالي عالم بما يقول ويصرح به ويقصده.

ونهاية سأضرب مثلًا على طريقة تفكيره وتحليله للأمور كيف هي وما مستواها؟

قال: النون: جمع نينان وأنوان: الحوت.

ذو النون: لقب يونس عليه السلام.

آية (48) من سورة القلم: «... وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ...» = آية (87) من سورة الأنبياء: «وَذَا النُّونِ»...

«صاحب الحوت = «ذا النون».

«الحوت» = «النون».

ج- تعالوا نقلد ونحاكي طريقته في التحليل:

الرحمن اسم لله

الخالق اسم لله

الله هو الخالق وهو الرحمن

الرحمن تساوي الخالق!

مثل آخر:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[غافر:15] ذو العرش هو الله.

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 3].

ذو الطول هو الله

فنصل إلى أن ذا العرش تساوي ذا الطول!

ولا يستحق عندي إلا أن أقول: ما اتهم به نفاة الترادف ينطبق عليه هو تمامًا، والحكم للقارئ اللبيب العاقل الذي يفكر بشكل حر، ويؤمن أن الخطاب القرءاني نزل بلسان عربي مبين يقوم على الحق والصدق، وهو مُحْكَم في صياغته يتنزه عن الاعتباط والمجاز أو تطابق معاني الكلمات المختلفة المباني مع وجود الترادف بينها بشكل جزئي، وتداخل دون المطابقة.

والقاعدة التي يتبنّونها: (إذا اختلف المبنى اختلف المعنى ضرورة مع وجود إمكانية الترادف بينها بشكل جزئي دون تطابق المعنى).

نماذج من ادِّعاء تحريف القرءان عند أصحاب الدعوات الخاصة

1. **عالم سُبيط النيلي**: مفكر وباحث لساني شيعي عراقي

أ- الكتاب: «**نجوم القرءان المبين في ولاية أمير المؤمنين**»

تحريف قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[الحجر: 41].

التحريك الموجود في المصحف العثماني هو تنوين صراط وفتح الياء في علي ومعناه: إن المتكلم يقول لإبليس اللعين: إن الصراط المستقيم عليه أي على الله.

ولكنه لا يجوز لغة؛ لأن (علي) لم تأت في نهاية الكلام، بل بين الصفة والاسم ومحال أن تكون غير اسم في هذا الموضع خصوصًا؛ لأن المتكلم هنا هو الله تعالى فكان عليه صراط مستقيم وآخر غيره وهو غير جائز.

نعم قام الاعتباط بفتح لفظ (عليَّ) وتنوين صراط للتخلص من ذكر علي بن أبي طالب في القرءان. انتهى.

ويقصد «سبيط» أن الصواب هو ضم كلمة (صراطُ) وجر كلمة (علي) مع تشديدها كونها مضافة إلى كلمة الصراط ليصير النص (هذا صراطُ عليٍّ) وبالتالي تصير اسمًا ويقصد بها علي بن أبي طالب.

ب- الكتاب: « **أصل الخَلقِ وأَمرُ السُجود بَينَ الأنـا وبين الولايـة والتوحيد**»

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20].

التحريك في المصحف (مَلَكين) – بفتح اللام. لكن الملائكة قد سجدوا لآدم قبل الإغواء فلا يمكن إغواؤه والتغرير به للوصول إلى (مرتبة) هو أعلى منها أصلًا.

إذن؛ فالقراءة الصحيحة هي (ملِكين) بكسر اللام – لأن الجمع سيختلف فالجمع الجديد (ملوك) لم يسجدوا بينما الملائكة سجدوا وذلك لجعله يطمع بملك من نوع آخر لم يحصل عليه الملائكة.

2. **آية الله الشيخ إياد الركابي**: في منشور بعنوان «تحرير العقل المسلم» على صفحة الحزب الليبرالي الديمقراطي العراقي، قال:

إن الله قد بلغ المعنى للنبي عبر الوحي بحيث يفهمه محمد ويتفاعل معه ويضعه بقالب لفظي مناسب له، وهذا يدل على إن المعنى كان من الله، وأما اللفظ فمن النبي محمد صاحب اللسان العربي.

وموضوع نزول النص القرءاني معنى دون مبنى وقيام النبي بتأليف المبنى المناسب للمعنى الإلهي رأي يقول به جمهرة من الكتاب والباحثين المعاصرين مثل الدكتور طيب تيزيني، والدكتور نصر حامد أبو زيد، ولذلك يقولون بإمكانية وجود تحريف في النص القرءاني لأنه نص بشري نهاية، وكونهم يعدونه نصًا بشريًا فطبيعي أن ينفون عنه القداسة والإلزام به ويعدونه صياغة مناسبة لزمن نزوله حملت معاني الأرضية المعرفية للنبي حينئذ.

3. «**رشاد خليفة**» مهندس زراعي حصل على الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من أمريكا، مصري الجنسية مقيم في أمريكا وحصل على الجنسية، وقتل فيها من قبل أحد

الغلاة؛ لأنه ادَّعى أنه رسول الميثاق من الله، أنكر آخر آيتين من سورة براءة لعدم توافقهما مع فرضيته التي فرضها:

أ- ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: 128]، لعدم انطباق نظريته العددية عليها، وتوهمه أن كلمة «رؤوف رحيم» لا يصح أن يوصف بهما إلا الله بينما في النص أتيا وصفًا للرسول حسب ما زعم، مع العلم أنهما أتيا وصفًا لله؛ لأن ضمير الهاء في كلمة (عليه) يرجع لله وليس للرسول، وبالتالي ضمير(هو) الغائب المستتر بعد كلمة (حريص) يرجع إلى الله.

ب- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة: 129].

وهذا النص رده اعتباطًا دون ذكر السبب سوى أنه لم ينطبق عليه نظريته العددية. وكأن نظريته العددية برهان مسلم به حتى يصحح القرءان على موجبها، وفاته أن القرءان يُستدل به ولا يُستدل عليه.

ولذلك نجد معظم من يتبنى النظرية العددية في القرءان يتبنى تلاوة حفص المشهورة في بلاد الشام، و ينفي صحة التلاوات الأخرى أو يتوقف بقبولها رغم أن التلاوات متتابعة في الأمة ومشهورة في المغرب العربي.

4. **كاتب وباحث سعودي يتبنى المنهج القرءاني يكتب باسم ابن قرناس** ذكر في أحد منشوراته:

- إن كلمة (غُلبت) في نص ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2]، هي منصوبة وليست مضمومة والصواب بفتح الغين (غَلبت).

- إن كلمة (لِّينَة) في نص﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: 5] ، ليست بالياء وإنما بالباء وتصير (لبنة) وتعني القرميدة أو الطوبة جزء من الجدار.

يرجى مراجعة مدونة الباحث ابن قرناس على هذا الرابط:

http://mosa3622.blogspot.com/2015/02/

5. وذكر أحدهم إن نص: ﴿ وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[النساء: 125] ، محرف والصواب هو أن تأتي كلمة (الله) منصوبة، وكلمة (إبراهيم) مرفوعة، حتى يصير المعنى أن إبراهيم هو الذي اتخذ اللهَ خليلًا وليس العكس.

6. وذكر أحدهم إن القرءان هو كتاب بشري بامتياز ولكنه مليء بالحكم ومفيد للناس ولا بأس بقراءته، مع وجود كثير من الأخطاء العلمية والخرافات فيه.

7. القول بوجود الترادف والمجاز في القرءان هو ضرب من التحريف والتعامل معه كما يتعاملون مع الشعر.

وكل هؤلاء هم من الأمة الإسلامية، وكلهم صاروا يقرؤون القرءان ومعهم قلم أحمر يصححون به النص وفق مزاجهم دون أي علم ولابرهان، ومرد ذلك لقصورهم في فهم منهجية دراسة القرءان على صعيد اللسان العربي وعلى صعيد المنطق الأصولي.

القرءان خطاب من حي إلى أحياء

أيها الإخوة الأعزاء

إن القرءان كتاب من رب العالمين الحي القيوم أنزله إلى الناس العقلاء، ليتعاملوا معه على أرض الواقع، فربط خطابه بمحله من الخطاب، وأمر الناس أن يدرسوا ويتدبروا القرءان من خلال السير في الأرض، قال تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت:20]، وذلك لفهم كل النصوص المتعلقة ببدء خلق السموات والأرض والكائنات الحية، والحياة الواعية المتمثلة بالإنسان.

وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[النمل:69]، وذلك لفهم أحداث التاريخ، واكتشاف القانون الذي يحكم حركة التاريخ، ومعرفة عواقب الإجرام والكذب في المجتمعات، إلى أين تصل بهم من هلاك ودمار، وذلك حتى يقوم المجتمعات الصالحة باجتناب هذه الفيروسات الاجتماعية القاتلة، ويُطيلوا أعمارهم، ويعيشوا بصحة وسعادة من خلال تحقيق العدل، والسلام، والحرية على قاعدة الحق.

وقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:199]، وذلك في مناسك الحج، ولا يمكن أن يتم فهم النص دون النزول إلى الواقع الاجتماعي، ومعرفة من أين أفاض الناس حتى نفيض مثلهم.

وقد أمر الشارع حين يغيب العلم عنَّا، وينتفي عن شيء معين، أن نسأل أهل العلم والخبرة والاختصاص، وهؤلاء من خارج النص القرءاني، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، والخطاب حسب سياقه، المقصود به أهل العلم بالكتاب، وفي عمومه يشمل أهل كل علم حسب اختصاصه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾[النساء: 83] فَفهم القرءان ليس بهذه السهولة كما يُشيع بعض الباحثين في قنوات التلفزة، أنه يستطيع أي إنسان مهما تَدنى ثقافيًّا أن يتفاعل ويفهم القرءان!.

فهذا الأمر غير صواب، فالقرءان كتاب سهل الذكر الصوتي من حيث التلاوة، والحفظ كما هو مشاهد في الواقع، ولكن الذكر التدبري يحتاج إلى مستوى ثقافي وعلمي معين، وكل إنسان حسب مستواه وحسب أدواته المعرفية يتفاعل ويدرس القرءان.

لذا؛ لا بُدَّ من تضافر الجهود في المجتمع الواحد من كافة الاختصاصات، واستخدام أرقى الأدوات المعرفية، لفهم ودراسة القرءان بما يتناسب مع مستواهم المعرفي، والدراسة التي يصلون إليها هي دراسة زمكانية نسبية قابلة للتطور، والتراكم المعرفي حسب نظام السيرورة والصيرورة. (الثابت والمتغيِّر).

أهم الأخطاء والمُعَوِّقات في دراسة القرءان

1. القول باعتباطية نشأة اللسان العربي.
2. القول بعدم وجود معنى للأصوات العربية.
3. القول بوجود لفظين مختلفين بالمبنى متفقين بالمعنى، التي اشتهرت باسم الترادف خطأً.
4. القول بوجود المجاز في القرءان، رغم أن الله يقول الحق والصدق.
5. القول بوجود كلمات أعجمية في القرءان.
6. سوء فهم الضمائر في القرءان وإرجاعها إلى أقرب مذكور قبلها دائمًا.
7. عدم التفريق في المفهوم بين الأمور المعطوفة على بعضها.
8. القول بوجود أصل رباعي أو خماسي في اللسان العربي.
9. تقدير محذوفات في النص ما أنزل الله بها من سلطان.
10. التعامل مع اللسان العربي بصورة توقيفية سماعية ونفي العلمية عنه.
11. تجزئة النصوص القرءانية حين الدراسة وعدم ترتيلها موضوعياً.
12. إخضاع النص القرءاني لقواعد اللغة والشعر الجاهلي أو التراث.
13. فهم كلمة العربية في القرءان بأنها لغة قومية.

14. فهم مجموعة من الكلمات في القرءان بصورة ثقافية تاريخية حصرًا، ونفي عنها صفة التفعيل لمن يتبعهم، وهي للذم أصلاً لكل من يتصف بها مثل:

- **اليهود** : ملة وليست دينًا وهي من هَود و تدل على منهج متطرف ومنغلق على ذاته وإرهابي في التعامل مع الإنسان والمجتمع والحياة، ولا تمثل أتباع النبي موسى.

- **النصارى**: ملة وليست دينًا، وهي جمع نصران، و تدل على تعصب الإنسان لرأيه دون برهان، ونصرته على الآخرين.

- **أهل الكتاب**: مفهوم يدل على اتخاذ قوم لكتاب مُعَيّن مرجعًا لهم في أمور حياتهم من دون كتاب الله أو العلم.

- **السلفية**: هي منهج في التفكير الماضوي الآبائي ، وهي تشترك مع مرض الاكتئاب في كونها تفكير ماضوي والعيش فيه من خلال سحبه إلى الحاضر ، ليصير الإنسان يعيش في وهم ذهني لا صلة له بواقعه، وعندما تتعلق بالآباء فهي للذم والعبرة بقصصهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: 56] .

- **الأعراب**: وهي جمع لمفرد (أعرابي) من الفعل الرباعي (أعرب) والهمزة في أوله تسمى همزة الإزالة التي تدل على تغيير حركة الفعل من اللازم للمتعدي أو العكس، وهي تدل على الذم ونفي صفة العربية عن الإنسان. ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 97] .

- الجاهلية: من جهل وهي كلمة تدل على السلوك المخالف للحق أو الصواب أو القيم، ولاعلاقة لها بعدم المعرفة، فيمكن أن يكون الإنسان عالمًا وهو

جاهل سلوكًا. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

15. **الحنيفية**: من حنف وهي ملة تقابل ملة اليهود والنصارى، وهي تدل على الحركة البحثية الحرة النامية والصاعدة والمتطورة وفق محور الثابت و المتغير، و إمام الملة هو النبي إبراهيم.

16. افتراء مفهوم الناسخ والمنسوخ في القرءان للأحكام الشرعية.

17. افتراء مفهوم أسباب النزول للأحكام، رغم أن الشرع الإسلامي إنساني وشمولي.

18. جعلهم الحديث النبوي مصدر إلهي أبدي يُزاحم القرءان؛ بل يقضي على القرءان في زعمهم!.

19. اختراع ما سموه علم الحديث المتعلق بالإسناد.

20. إلزام الأمة بفهم المجتمع الأول للقرءان.

21. إلزام الأمة بفهم المذاهب الفقهية التاريخية.

22. دراسة القرءان بمعزل عن الواقع.

23. القول بعصمة أحد من الناس في قوله أو فهمه سواء أكان من أهل البيت أم الأولياء أم الذين ادَّعوا مقام المَهْدَوية أو النبوة.

24. التعامل مع الشرع الإسلامي القرءاني بصورة عينية، ونفي صفة الحدودية عنه.

25. الخلط بين الشرع الإسلامي، والفقه الإسلامي ، أي بين الإلهي والإنساني.

26. دراسة القرءان من منطلق إقليمي وليس عالميًا.

27. القول بتعدد الأديان السماوية رغم أن الله أنزل دينًا واحدًا منذ آدم المصطفى إلى خاتم النبيين محمد.

28. الخلط بين مفهوم كلام الله، وكلماته، ومفهوم السنة، والحديث، ومفهوم النبي، والرسول، ومفهوم الحق ، والصواب.

29. الخلط بين مفهوم الطاعة، والاتباع، وإساءة فهم الرسول والرسالة.

30. جعل إجماع الناس مصدر تشريعي إلهي.

31. جعل التاريخ، أو الأكثرية، أو الآباء مصدر تشريعي إلهي.

32. الخلط بين سنن النفس والمجتمع.

33. دراسة القرءان من منظور فردي، أو ذكوري فقط.

34. حصر النهضة بالأخلاق والقيم فقط.

35. نفي عن القرءان المصدرية العلمية أو التاريخية.

36. دمج الدين بالدولة أو فصله عنها.

37. عدم فصل الدين عن السلطة.

38. استخدام مفاهيم يهودية سلبية مذمومة، مثل: الإرهاب، السياسة، الرعاية والراعي..الخ.

39. تَقويل النص القرءاني مالم يَقُل.

40. تحريف النص القرءاني حين الدراسة.

41. دراسة ألفاظ النص القرءاني ظاهريًا، وتثبيت مفهوم يخالف الواقع أو العلم.

42. الخلط بين مفهوم الروح والنفس، ومفهوم الجسم والجسد، والبشر والإنسان، والشيء، واللاشيء، والعدم.

43. الاعتقاد بمفاهيم وهمية لا واقع لها، مثل: الكائن الجني الشبحي.

44. الاعتقاد بمفاهيم دخيلة على القرءان ومخالفة للحق، مثل: خروج المهدي، ونزول عيسى، وإمكانية بعثة نبي جديد ..الخ.

45. التفضيل على مجرد النوع الذكري أو الأنثوي.

46. دراسة الإنسان من خلال تطور جسمه فقط، وإغفال خلق النفس.

47. الخلط بين عملية التعقل وعملية التفكير، والخلط بين مفهوم الفقه والعلم والمعرفة.

48. تقييد مفهوم الرجال والنساء بمفهوم الذكورة والأنوثة.

49. النظرة الأحادية الجانب والجزئية.

50. استخدام مفهوم حرية الرأي بشتم الآخر واغتيال حقه في الوجود.

51. الخلط بين مفهوم الرأي الذي هو ظني، وبالتالي هو محل للاختلاف والاحترام، ومفهوم الحقيقة التي قام البرهان عليها، وبالتالي هي محل تسليم وترفع الاختلاف، ولا يُقبل قول أحد بخلافها ولا يُحترم موقفه رغم احترام إنسانيته.

52. الخلط بين مفهوم إرادة الله ومشيئته.

53. النظرة إلى الحياة الدنيا أنها دار عذاب وسجن وألم.

54. إعطاء الرأي صفة الحق المطلق وحساب الناس على موجبه.

55. حساب الناس على عقائدهم أو تصوراتهم.

56. حصر الفرقة الناجية بالذات، وباقي الناس إلى النار والهلاك.

57. خطأ مفهوم كلمة: جن، وشيطان، وعفريت، وإبليس، والسحر، والعين، والحسد..الخ.

58. الخلط بين مفهوم الإمكان والمستحيل، وقياس صفات الله على صفات الخلق.

59. دراسة القرءان والتاريخ من منظور ثقافة أهل الكتاب وتراثهم.

60. جعل القتال والحرب أصل في العلاقات بين الناس والمجتمعات؛ بينما الأصل في القرءان السلام والتعارف والتعاون.

61. إكراه الناس على الإسلام؛ رغم إن الله يقول:﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[البقرة: 256]

62. الخلط بين مفهوم التصديق ومفهوم الإيمان، ونفي الحرية عن الإنسان.

63. استخدام مفهوم القتال للأفراد رغم أنه للمجتمع فقط.

64. جعل مفهوم القتال عدواني وتوسعي؛ رغم أنه في القرءان دفاعي ووقائي وظرفي.

65. إنكار مفهوم الغيب من بعضهم؛ رغم أن الغيب أساس لعالم الشهادة.

66. إغفال مفهوم مقام الخلافة للإنسان في الأرض.

67. الدراسة للكون والإنسان والقرءان والحياة بصورة تجزيئية؛ رغم أن هذه الأمور محكومة بمنظومة عامة واحدة تحتوي منظومات كُلِّية التي بدورها تحتوي منظومات جزئية، والتجزؤ مفهوم ذهني لا وجود له في الواقع.

68. جعل مفهوم التواتر من علم الحديث؛ رغم أنه ظاهرة اجتماعية، ومرتبط بالأحداث فقط، لا علاقة له بالأقوال.

69. جعلوا مفهوم التواتر يفيد العلم، رغم أنه يفيد إثبات الحصول فقط دون الكيف، ويُترك ذلك للعلم.

70. عدم تحديد مفهوم الكفر والكافر ،والشرك والمشرك، والظلم والفسق والإجرام...

بمعنى آخر خلط بين مفهوم دلالة الفعل مثل (درس) ، واسم الفاعل (الدارس).

71. إلغاء حاكمية الإنسان لحساب حاكمية الله.

72. الاعتماد على الشكل دون المقصد في دراسة الشرع الإسلامي.

73. النظر إلى القصص القرءاني نظرة حكايات وسِيَر ليس إلاّ.

أهم المراجع

1. **المصاحف**، أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني
2. **البرهان في علوم القرءان**، الزركشي
3. **الإتقان في علوم القرءان**، جلال الدِّين السيوطي
4. **المقنع في رسم مصاحف الأمصار**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني
5. **مصحف التلاوات العشرة**، محمد فهد خاروف– مراجعة الشيخ محمد كريم راجح
6. **ناسخ القرءان ومنسوخه**، ابن الجوزي
7. **رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية**، غانم قدوري الحمد
8. **النبأ العظيم**، عبد الله دراز
9. **التلاوات وأثرها في التفسير والأحكام**، محمد بن عمر بن سالم بازمول
10. **تحت راية القرءان**، مصطفى صادق الرافعي
11. **تاريخ آداب العرب**، مصطفى صادق الرافعي
12. **مقاييس اللغة**، ابن فارس
13. **مباحث في علوم القرءان**، صبحي الصالح
14. **دراسة الكتب المقدسة**، موريس بوكاي
15. **الكتاب والقرءان**، د. محمد شحرور
16. **نقد الخطاب الدِّيني**، د. نصر حامد أبو زيد
17. **مفهوم النص**، د. نصر حامد أبو زيد

18. **النص القرءاني أمام إشكالية البنية والقراءة**، د. طيب تيزيني

19. **المرأة والدِّين والأخلاق**، د. نوال سعداوي د هبة رؤوف عزت

20. **القرءان في الإسلام**، محمد حسين الطبطبائي

21. **أصول الفقه**، محمد رضا المظفر

22. **الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرءان الكريم**، سامر إسلامبولي

23. **تحرير العقل من النقل**، سامر إسلامبولي

24. **دراسة أصولية الآحاد، الإجماع، النسخ**، سامر إسلامبولي

25. **علمية اللسان العربي وعالميته**، سامر إسلامبولي

26. **دراسة إنسانية في الروح والنفس والتفكي**، سامر إسلامبولي

27. **كيف نتعامل مع القرءان**، محمد الغزالي

28. **مقدمة ابن خلدون**، ابن خلدون

29. **فجر الإسلام**، أحمد أمين

30. **الفتنة الكبرى**، طه حسين

31. **الإسلام والعصر تحديات وآفاق**، محمد سعيد رمضان البوطي- د.طيب تيزيني

32. **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني

33. **الكشاف عن حقائق التنزيل**، الزمخشري

34. **الشيعة والتصحيح**، د. موسى الموسوي



لمحة عن المؤلف:

سامر بن محمَّد نزار إسلامبولي

- **تولُّد: دمشق، سورية 1963 م.**
- **باحث ومحاضر في الفكر الإسلامي.**
- **عُضو في اتِّحاد الكُتَّاب العرب.**

نُشر له مقالات في مجلة العالم، ومجلة إسلام 21، ومجلة شباب لك، والأسبوع الأدبي، والوقت البحرينية، والمثقف.

صدر للمؤلف

1. **علْمية اللسان العربي وعالميّته**، تقديم الأستاذ: د. مازن الوعر، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.
2. **تحرير العقل من النقل**- قراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019م.
3. **اليهودية انغلاق فكري وإرهاب اجتماعي**، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.
4. **مفهوم السُّنَّة غيرُ الحديث ويليه غطاء رأس المرأة أو شعرها حكم ذكوري، وليس قرءانياً**، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.
5. **دراسة نَقْدية لمفاهيم أصولية** (الآحاد - الإجماع - النسخ)، ، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.
6. **ظاهرة النَّصِّ القرءاني تاريخ ومعاصرة** (ردّ على كتاب: النصّ القرءاني أمام إشكالية البنية والقراءة للطيب تيزيني)، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

7. **القرءان بين اللُّغة والواقع**، دار الأوائل، دمشق، ط2005/1 م.

تقديم الأستاذ: د. سمير إبراهيم حسن، عميد كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانية في دمشق، والأستاذ: د. محمَّد الحبش،مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

8. **ميلاد امرأة** (رواية نَفْسية واجتماعية)، تقديم الأستاذ: ندرة اليازجي، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

9. **فتاوى أزهرية وأفكار فلسفيَّة** (قَصَص قصيرة)، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

10. **مفاهيم ثقافية** (الله، الحرية، الشيء، العدم، الموت، الثالوث، التقمص)، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

11. **نبي الإسلام غير نبي المسلمين**، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

12. **دراسة إنسانية في الرُّوح والنَّفْس والتفكير**، تقديم الأستاذ: جودت سعيد، والأستاذ: ندرة اليازجي، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

13. **القرءان من الهجر إلى التفعيل**، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

14. **حوارات ثقافية**، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

15. **علْم الله وحرية الإنسان**، دمشق، دار الأهالي، ط1 /1994م.

16. **المرأة مفاهيم ينبغي أن تصحَّح**، دار الأوائل، دمشق، ط1999/1 وط2/ 2002 م.

17. **المشروع الثقافي الراشدي، ويليه الإرهاب إيدز العصر**

18. **الألوهية والحاكمية**، دراسة علمية من خلال القرءان الكريم، دار الأوائل، دمشق، ط2000/1.

19. **الانتحار الفكري**، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية، 2019 م.

عنوان الباحث

السويد: 0046734233031
البريد الإلكتروني: s.islambouli@gmail.com

والنص القرءاني موجود بين أظهرنا قابل للدراسة والتأكد من صحة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس من خلال مراكز ومؤسسات علمية على كافة الاختصاصات، فإذا ثبت أن مضمونه خطأ ومناقض لمحل الخطاب من الآفاق والأنفس يكون نصًّا قد تم تحريفه والتلاعب به قطعًا رغم أنف الجميع، ولو ألَّف المؤمنون بصحته آلاف المجلدات ونقلوا الإجماع على ذلك والتواتر له، لأن النص الرباني لا يمكن أن يتناقض مع محل خطابه ولا بأي شكل.

أما إذا ثبت أنه نص منسجم كل الانسجام مع سيرورة وصيرورة الآفاق والأنفس بحيث صار النص القرءاني المتلو هو صورة لسانية طبق الأصل للصورة الموضوعية، فلا شك أن هذا النص رباني وهو صحيح لم يتعرض لأي تحريف أو تلاعب.



سامر بن محمد نزار إسلامبولي

ولادة دمشق 1963، سوري الجنسية، مقيم في السويد

باحث ومحاضر في الفكر الإسلامي

عضو في اتحاد الكتّاب العرب في سورية منذ عام 2008

بلغت مؤلفاته حوالي عشرين كتاباً من أهمها:

• دراسة إنسانية في الروح والنفس والتفكير • علمية اللسان العربي وعالميته. تقديم الدكتور مازن الوعر.

• تحرير العقل من النقل • القرآن من الهجر إلى التفعيل • اليهودية إنغلاق فكري وإرهاب اجتماعي.

القصص

• ميلاد امرأة (قصة نفسية واجتماعية) • أفكار فلسفية وفتاوى أزهرية. مجموعة قصص قصيرة

المؤتمرات التي شارك فيها

• مؤتمر حقوق الإنسان الذي أقامته جمعية التجديد الثقافية البحرينية في عام 2010 في البحرين عنوانها: الحريات وحقوق الإنسان • ندوة الملتقى الثاني لكُتّاب التنوير في مركز الدراسات الإسلامية في دمشق عام 2006

• ألقى محاضرات في المراكز الثقافية.

مقالاته المنشورة في الدوريات والصحف

• مجلة العالم تصدر في لندن، مجلة إسلام 21 تصدر في لندن • مجلة شباب لك تصدر في دمشق، جريدة الوقت البحرينية • جريدة المثقف البحرينية • جريدة الأسبوع الأدبي التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق.

منتدى الباحث سامر اسلامبولي: https://www.facebook.com/groups/170302883083402

الصفحة الرسمية: http://cutt.us/TroyV الإميل: s.islambouli@gmail.com موبايل: 0046734233031



مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر

الإسكندرية - مصر

www.levantcenter.net

